

رضا سليمان

ظلال الموتى

رواية

هدية الكتاب

CD موسيقى رعب



المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع



ظلال الموتى

رواية

رضا سليمان





إهـــداء

إلى

الرفيق

مَن سألنى مندهشًا:

هل يوجد على الأرض مثل هذه النماذج؟!

إلى

ولدي «خَلَاد»

رضا سُليمان



يموت المرء ألف مرة قبل الموتة الأخيرة



(1)

ليلى

لقد كان الشيءُ المُلقَى على الأرض، والذي تحسَّسَتْهُ «ليلى» بيدها منذُ لحظةٍ واحدة، رأسَ إنسان، رأسًا بلا جسد، رأسًا يرقدُ فوق بركةٍ صغيرةٍ من الدماء.

لم تكن عادةُ «ليلى» أن تعودَ متأخرةً إلى منزلها، لكنها في هذه الليلةِ بالتحديد تعرضت لحادث «التواءِ الكاحل» عند هبوطِها درجاتِ السُلَّمِ الداخليِّ في فيلا صديقتِها «مايسه» إبنةِ رجلِ الأعمالِ الشهير «فؤاد بدر الدين»، اضطرت «ليلى» بسببِ هذا الالتواءِ أن تمكثَ بعضَ الوقت حتى تتحسَّنَ حالتُها وتستطيعَ الوقوفَ مرةً أخرى عليها بدون أن تشعرَ بهذا الألم الرهيب، أو على الأقلِ تشعرَ ببعضِه لكنها تستطيعُ التحامل.

رغم ما كانت تشعرُ به من ألم فقد علت وجهَها بسمةٌ خفيفةٌ ممزوجةٌ بتعاريج الوجع، ابتسامتُها الخفيفةُ تلك كانت تعبيرًا عن حالةٍ من الرضا الداخلى بتلك الإصابة، الحقيقةُ أنها تشعرُ مُنذ أيام عدة بانقباضٍ في القلب مع توتر وخَشية من حدثٍ عظيم قد يحدثُ في أيِّ لحظةٍ، لم





يُحدِّدْ لها خوفُها الغريزيُّ تفاصيلَ ذلك الحدث، أو موقعَه أو زمانَه، لكنها تخشاه، تمامًا كما نشعرُ بانقباض داخلي وارتجافِ جَفنِ العين فنعتبرهُ نَذيرَ شُؤم، وواقعُ الأمر أن ذلكَ يُعَدُّ في علوم النفس البشرية نظرية لها أُسسٌ وقواعدُ ثابتة، لكنها نظريةٌ غيرُ واضحة، صعبةُ الفهم، صعبةُ التطبيق لدرجةٍ تقاربُ الاستحالة، إنها نظريةٌ يمكنُ أن نطلقَ عليها «نظريةَ الإيمان» فإن المؤمن بشيء ما سوف يحققه، مهما كانت درجة صعوبته، وذاك ما يُقال عنه، أحيانًا وقتَ النجاح، قُدراتٌ خارقة، فهذا الذي يمتلكُ طاقةً يستطيعُ من خلالِها تحريكَ شيءٍ ما عن بُعد، لا يمتلك قدرات خارقة، إنما فقط استطاع استخدامَ قدراتِه وآمنَ بها، فنجحَ في تحقيقِ هدفه. مثلَ ذلك الراغبِ في الثراء، الراغب في تحقيقِ منزلةٍ علمية، وأيضا ذلك الذي يؤمنُ بوقوعِ كارثة.. فتقعُ الكارثة، هي نظريةُ الإيمانِ إذن التي جعلت ليلى تقولُ في داخلها بأن التواءَ الكاحلِ أمرٌ يسير وهَيِّنٌ مقارنةً بما كانت تخشاه، لذا زينَ وجهَها شبحُ ابتسامة، فسوف يذهبُ خوفُها وانقباضُ قلبِها، لكن لن يدوم ذلك إلا دقائقَ معدودة، فالأمرُ العظيمُ الذي آمنت بحدوثِه لم يقَعْ بعد.

تعرضُ عليها «مايسه» المبيتَ معها لكنها ترفض، فأمُّها مريضة ولن تستطيعَ المبيتَ بعيدًا وتركها وحدها، قد تحتاج إلى مساعدتها ليلًا، خاصةً وأن والدَها مُسافرٌ منذ عدةِ أسابيع، في مأموريةِ عمل، إلى منطقةٍ تابعةٍ للشركةِ بصعيدِ مصر.

تهبطُ ليلى من السيارةِ الأجرة على ناصيةِ الشارع، منزلها يقع في شارعٍ جانبي يرفضُ السائقُ الدخولَ إليه بعنادٍ لا تدركُ ليلى أن سببَه



خوفُ السائق من أن تكونَ هي الطعمَ الذي ألقتْهُ له عصابة متخصصة في سرقة السيارات لتقطيعِها وبيعها، يُؤْثِرُ السلامة بإنهاء رحلته في الشارع العمومى.

تقتربُ «ليلى» من تلك البناية المكونة من أربعة طوابق، شقتهم بالطابق الثالث، تُطِلُّ على الحديقة الخلفية للمبنى، لعلَّ أمُّهَا تنتظرها الآن خلف الباب، تعلمُ «ليلى» مَدى قلق أمها عليها، لذا أخبرتها عبرَ اتصالٍ تليفونى سريع، حاولت أن تبدو فيه مَرِحَةً كعادتها، أنها سوف تتأخر قليلًا بسبب حادثٍ بسيط تعرضت له مايسه صديقتها وهي في حاجةٍ لأن تكون بجوارها ساعة أو أكثر، ثم أنهت الاتصال حتى لا تخرج منها كلمة أو آنَةُ ألَمٍ تكشفُ حقيقةَ موقفِها.

تقترب أكثر من مدخلِ العمارة الذي يشطرُ حديقتها إلى نصفين، المدخلُ عبارة عن مَمرٍ طولُه على الأقل عشَرةُ أمتار، مُحَاطٌ بسورٍ على الجانبين من الشجرِ الكثيف وأغصان اللبلاب المتشابكة.

وكأنها آتية من عالم آخر تُفيقُ على صوتِها المكتوم وقد تسمَّرت قدماها في الأرض كجذرِ شجرة، لاحظت وللمرة الأولى أن المكانَ مظلمٌ جدًّا، رفعت عينيها لتتأمل المنطقة من حولها فإذا بها تغوص في بحرٍ من الظلام، بحرٍ أسود أمواجُه تتلاطمُ فتزيد قسوتها، أصواتُ صريرِ جنادب الليل تنبعثُ من قلب تجمعات الأشجار المتناثرة بين مبانى المنطقة. طائرٌ يخبط بأجنحته، وكأنه يحلم بنفسه يطير، فوق غصنٍ ضعيف يهتز به فيسقطُ لحظة قبل أن يفرِدَ جَناحَيْه ليحفظ توازنه ثم يَطير لأعلى وعيناه مُثبتتانِ على ليلى فيما بدا لها لوهلة، ينقبضُ





داخـلُ «ليلـى» قليـلًا، لكنها ابتسـمت بسـرعة وكأنها تؤكد لنفسـها أن الأمرَ طبيعيٌّ جدًا، فلا شيء في أن تغيبَ الكهرباء عن المنطقة، يحدثُ كثيـرًا أن تغيبَ الكهرباء، ويحدثُ كثيـرًا أن تَهُبَّ الرياحُ وتصنع صفيرًا مُزعجًـا، ويحدث كثيرًا أن تتلوىَّ أغصانُ الأشـجارِ وتتلاطم، ويحدث كثيـرًا أن تتبارى جنادبُ الليل مُصْدِرةً أصواتهـا المزعجة التي تخترق الأذن لتستقر في قلب الرأس وكأنها ألاتٌ حادة تنخُر وتنخُر، ويحدث كثيرًا أن يُرفرِفَ طائرٌ ليلًا بين أغصان الشجر.

لـم تسـتطع تلـك الابتسـامة التي رسـمتها «ليلـى» علـى وجهها أن تقضيَ على ذلك التوتر الذي اعتراها ولا اسـتطاعت أن تُهدِّئ من ذلك الانقبـاضِ الذي ملك أحشـائها وعصرها، شـعرت بالألـم يُعاودها في سـاقِها التي التوت منذ قليل عند صديقتها مايسـه، ليسـت المرة الأولى التـي تهبـط فيها هـذه السـلالم الرخاميـة الملتويـة الهابطة مـن الطابق الثانى إلى الريسبشـن الواسع جدًّا، لا تعلم لماذا يصنعون درجات هذه السـلالم من الرخام الذي يُسـهل عملية الانزلاق، رخام عنيف جدًا في ردود أفعاله تجاه من يسقطُ عليه، له حروف ونُتوءاتٌ حاده تكاد تُذْهِبُ بما تبقَّى للواحدِ من وعي.

«الحمدُ للهِ أني سقطتُ مكاني بعد التواءِ كاحلى ولم أتدحرج على السُلّم حتـى النهاية» تمتمت ليلـى بهذه الكلمات وهـي تخطو الأمتار الأخيرَة بين الأشجار لتصل إلى البوابة الحديدية.

كانـت تتحـرك ببطءٍ وآلية، فهي لا ترى أي شـيء، فقط تسـمعُ وقعَ خطواتهـا المتوجسـة على البلاط الخشـن الذي يغطـى الممر، يغزوها





صوت جنادب الليل ولهو الرياح مع أغصان الأشجار بقوة، قلبها ينتفض في مكانه، ليست في حاجه مطلقًا لأي توتر هذه الليله، يجب أن تكون طبيعية أمام والدتها كي لا تشعر بألمها في ساقها، فأمها تخاف عليها كثيرًا لدرجة أنها قد لا تنام ليلتها من قلقها، و« ليلى» لا تريد أن تعكر صفو أمها بأي شيء، يكفيها ما هي فيه من ألم، فجأة..

فجأة تعثرت قدم «ليلى» اليمنى في شيء مُلقى على الأرض، شيء في حجم الكرة، لكنه أثقل، لم يتحرك أمامها بعد أن صدمَتهُ بقدمها، وقفت مفزوعة تتسارع أنفاسها، بحثت عن ابتسامة تطمئن بها نفسها،فلا داعي للخوف، إنه مجرد حجرٍ في الطريق، تحسست بطرفِ قدمِها الأيمن بهدوء لتحدد موقعه، ثم قررت أن تنحنى لتلتقطه وتلقى به بين الأشجار.

قبل أن تنحنى، مدَّتْ قدمَها أكثر يمينا ويسارًا حولها، إنها ليست صخرة، هي أخف لأنها تكادُ تتدحرج أمامها، وهي أثقل من كرة، إنه شيء له نتوءات و.. وقررت ألا تستمر في ظنونها وأن تنحنى فورًا لحمل هذا الشيء أيا كان وتلقى به إلى جانب الممر لئلا يتعثر فيه مار آخر.

أطبقت بيدها اليسرى على حقيبتها المعلقة على كتفها الأيسر وهي تنحنى مرسلة ذراعها الأيمن إلى تلك النقطة التي حددتها بقدمها منذ قليل، وصلت يدها إلى هذا الشيء، بهدوء تتحسسه قبل أن تُمسِكَ به.. لمست تفاصيله، غاصت أطرافُ أصابعها في شيءٍ لزج، بعد لحظة واحدة أدركت «ليلى» ما هو هذا الشيء.. وقفت مذعورة وهي تصرخ





بشـدة ليختلط صراخها بصوت الرياح وجنـادب الليل وتلاطم أغصان الأشـجار. لقـد انتصـر فزعها وانقبـاض قلبها، تلاشـت قوتهـا وذهب إصرارُهـا علـى التصـدى لمـا يعتمـلُ بداخلهـا، تهـاوت حصونها مرة واحـدة، يحتبس بداخلها الصـراخ ليزيد من تأججها قبـل أن تقفز قفزة سـريعه تتخطى بها الزمان والمكان لتستقر في مدخل البناية ثم تسـقط فاقدة الوعى تمامًا.

بينمـا يرقد الرأس، رأس بلا جسـد، في مكانـه فوق بركة صغيرة من الدماء.

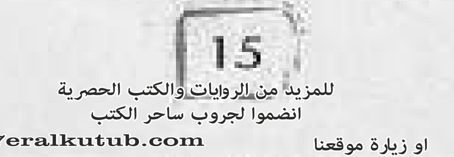
***



(2)

سُعاد

نظرًا للكثير من الأحداث التي مرت على مجتمعنا في الفترة الأخيرة، فقد تغيرت طباع الناس وطُرُق تفكيرهم وتقبلهم للأمور، بل تغيرت رؤية الأمور عن ذى قبل كثيرًا، فأصبح من المألوف أن تحدث أعمال عنف وبلطجة وسرقة ونهب وضرب وقتل، وقد كنا من قبل نخشى من أقل احتكاك ونعده طامة كبرى. حتى الأفراد أنفسهم أصبح لدى الكثير منهم ميل نحو العنف، عنف عند طلب أي شيء، عنف عند التعامل العادي، ثوابت مجتمعية انهارت بعد رؤية الدماء وقد انتشرت، بعد رؤية السرقة وحوادث التحرش والاغتصاب، من ذلك أيضا وعلى سبيل المثال لا الحصر انتشار الألعاب النارية بدرجة كبيرة جدًا جعلت سماع دَوِيِّ اطلاق نار في المنطقة يبدو أمرًا مألوفًا لا يستدعى أن يخرج السكان إلى الشرفات ليستطلعوا الأمر، إنها مجرد ألعاب نارية، وإن كانت في الحقيقة طلقات نارية سقط على إثرها قتلى.





أيضا من ضمن ما تغير في مجتمعنا مؤخرًا سلوك الكثير من الصبية، فتراهم ينطلقون في الطرقات جريًا أو على دراجاتهم الهوائية أو البخارية وهم يصرخون ويولولون مقلدين أصوات فتيات تستغيث، انتشرت تلك الأفعال حتى أضحت عادة لا يتلفت إليها السكان أو الماره.

هذا ماحدث بالفعل مع صرخات «ليلى» قبل أن تفقد الوعى، فقد وصلت صرخاتها إلى الكثير من السكّان، لكن أغلبهم استمع إليها ومطَّ الشفاه إشمئزازًا ساخطًا على الصبية وما يفعلونه، وشكّ بعضهم في أن تكون تلك صرخات حقيقية وليست صرخات مجون صبية، لكنه لم يغادر مكانه، فقد آثر البقاء في سكينته، أين يذهب في هذا الظلامِ الحالكِ والجوِ الموحش في الخارج؟!

شخصُ واحد فقط وصلته صرخات «ليلى»، فانتفض في مكانه وسقط قلبه من بين أضلعه لحظة وصول الصرخات إلى أذنيه، إنها السيدة «سعاد فريد» والدة «ليلى». شعرتْ بأن تلك الصرخات التي وصلتها ضعيفه، لبعد المكان، صرخات ابنتها، أحست ذلك بقلبها، بذلك الرباط الخفي الذي يصل بين الأباء والأبناء، فقد حدث كثيرًا أن ارتبكت الأم، أيُّ أم، وقالت بأن مكروهًا وقع لإبنها الذي يتواجد في مدينة أخرى، ويعود الإبن وقد حدث له مكروه بالفعل، إنه رباط خفيّ يزيد مقداره لدى الأمهات أصحاب القلوب العامرة، إنها العاطفة القلقة التي تخشى باستمرار على الأبناء، أو هو حاسة خفية يمتلكها



الإنسان ولكنها لا تظهر إلا في ظروف بعينها ومع أناس يمتازون بعواطف خاصة.

عموما.. دقت السيدة «سعاد فريد» بيدها على صدرها وهي تتمتم «اللهم اجعله خيرًا» ثم أرهفت السمع أكثر تنتظر صرخات أخرى لعلها تحدد من خلالها إن كانت تخص ابنتها «ليلى» أم لا، لكن الصمت أطبق على المكان أكثر من ذى قبل وكأنه يعلن في عناد التحدى السافر للسيدة سعاد التي تلازم فراشها في انتظار عودة ابنتها، تخيلت للحظة ذلك الصمت شبحًا ضخمًا يظهر من قلب الظلام ليتجسد أمامها ويُخرج لها لسانه المشقوق، تأملته في فزع، شاهدت له عينان مظلمتان يخرج منهما شَرَرٌ يمتزج بالضوء الشاحب الصادر عن الشمعة المضاءة إلى جوارها، صوته مثل فحيح أفعى نحاسية تنثر سمومها في المكان، ارتعدت وهي تنكمش في مكانها. تهز رأسها بشدة لتعود إلى المكان ولتذهب أشباح الليل إلى أوكارها.

أنصتَت مرة أخرى.... لا شيء، بعد تفكير لحظات لم تجد أمامها شيء تفعله سوى أن تمد يدها لتحمل تليفونها المحمول لتتصل بـ«ليلى» وتطمئن عليها، وفقا لتقديرها الزمنى للمسافة بين منزل مايسة بدر الدين إلى منزلها.. يفترض أن تصل «ليلى» خلال الربع ساعة القادمة، لكن لا مانع من الاتصال بها والاطمئنان عليها وهي فرصة أن تخبرها بأن التيار الكهربى قد انقطع عن المنطقة منذ دقائق.

تُجرى الأم الاتصال، يأتيها رنين الاستقبال لدى الطرف الآخر.. يستمر الجرس وتستمر في الانتظار حتى ينتهي ولا مُجيب، يساورها





الشك وينقبض قلبها أكثر، لكنها تُبَسْمِلُ وتُحَوْقِلُ وتهزُّ رأسها لِتُنفِضَ عنه الوسواس الخناس وتُعيد الاتصال مرة أخرى.

أكثرَ من عشْرِ مرات تحاول السيدة سعاد فريد الاتصال بابنتها «ليلى» ولا مجيب، مع كل اتصال يتزايد فزعها حتى وصلت إلى درجة من التوتر لم تستطع معها الإنتظار أكثر من ذلك، لم يعد لديها أدنى شك في أن تلك الصرخات كانت لابنتها، يجب أن تُصدق حدْسَ قلبها الذي يخبرها بأن «ليلى» قد تعرضت لمكروه أسفل البناية. تسارعت أنفاسها وتزايدت دقات قلبها، ظهرت رعشة على أطراف أصابعها، دقّ أُذنيها طنينٌ وكأنه دقات طبول الحرب مع نفيرٍ مُفزع.

تحاملت السيدة سعاد فريد وتركت السرير في إعياء تام، تدثرت بشالٍ أسود من القطيفة حملته من فوق حافة السرير، استعانت بعصا تتوّكأ عليها بيدها اليمنى بينما حملت الشمعة بيدها اليسرى، بخطوات مريضة وصلت حتى باب شقتها وبصعوبة فتحت الباب وخرجت تحمل سلسلة المفاتيح والشمعة وعصاها، تأملت المكان حولها، قابع في بحر من الصمت والظلام، خيوط الضوء الشاحبة المتسللة من الشمعة تنهزم أمام جحافل الظلام، تألمت بشدة وهي تهبط درجات السلم، إنها تعاني من آلام رهيبة في ركبتيها، لم تأت ثلاث عمليات متتالية بنتيجة تذكر، في كل مرة يعدها الأطباء بأنها سوف تستطيع المشي والحركة بشكل طبيعي ومع مرور الأيام تسوء الحالة وتعود إلى ما كانت عليه، بل في المرة الأخيرة أصبحت أسوأ مما كانت عليه،



لدرجةٍ جعلتها تستسلم للأمر الواقع وتقرر أن تعيش ما تبقّى لها على هذا الوضع، تستعين بالمسكنات للتغلب على آلامها.

بعد مرور وقت طويل بالفعل لا يتناسب مع عدد درجات السلم التي لا تزيد عن الثلاثين درجة، تصل السيدة سعاد فريد إلى مدخل العمارة، كانت خلالها تتألم بشكل غريب، ألمٌ شفافٌ لم تشعر بمثله من قبل، كأنها تسير في قلبِ حُلْم، تُحلّقُ تارة وتسير أخرى، كأنها تتدحرج فوق وسائد مصنوعة من أشواك تدُكُّ جسدها، لكنه في النهاية ألم لا يعوق حركتها، وأيُّ شيءٍ في الوجود لم يكن ليعوقَ حركتها في طريقها إلى الكشف عن مصدر الصوت والتأكد من سلامة ابنتها، لكن ما حارت في تحديده لحظة واحدة قبل أن تعود إلى أرض الواقع هو نوعية ذلك الألم الذي تشعر به، ولن تدرك طبيعته إلا في وقت لاحق، وقتٍ لم يخبرنا أحدٌ على الإطلاق بما يشعر فيه من آلام، لأنه ما من أحد وصل إلى تلك المرحلة وعاد منها ليخبرنا بطبيعة ما عاشه وما شَعُر به.

على ضوء الشمعة الشاحب تجد جسدًا مكُوّمًا على الأرض، تسقط منها عصاها وبصعوبة تحافظ على الشمعة في يدها، من غير تلك الشمعة لن تستطيع أن تتحرك خطوة واحدة، تقترب من ذلك الجسد، إنها «ليلى»، تنكفئ عليها بجسدها، تهتف باسمها، تقلبها بشدة لعلها تفيق، تحنو عليها وهي تمس وجهها وتتأكد من أنفاسها، ليلى.. ابنتي.. أجيبيني.. ليلى..

لحظاتٌ مرت ثقيلة كأنها سنوات حتى عادت «ليلى» إلى الوجود، عادت صامته مفزوعة، وكأنها آتيةٌ من قلب غابة تجرى أمام قطيع من





الحيوانات المفترسة، تنقل بصرها بين أمها وبين ذلك المكان المظلم الذي يحوى الرأس المقطوع، بحثت عن لسانها لتنطق به بعض الكلمات فلم تجده، هل أصابها الخرس؟! هل نَسِيَتْ حروف الهِجاء؟!

ما تزال أمها تسألها في فزع عما حدث، بصعوبه أشارت» ليلى» نحو تلك النقطة في الظلام، تنظر الأم فلا تجد غير الظلام، فتعود لتسأل ابنتها، تسألها وفي عقلها يتقاتل ألف احتمال، هل اعتدى عليها أحد؟ لماذا فقدت الوعى؟ لماذا كانت تصرخ؟ لماذا لا تتحدث؟ لماذا تشير نحو الظلام؟! ترى ماذا يُخبئ الظلام؟

ضمَّت الأم ابنتها ولم تستطع أن تُوقِفَ نهر دموعها الذي انهمرَ فجأةً كشلاَّلٍ وهي تسألها:

- أرجوكِ يا «ليلى».. أجيبني يا ابنتي.. ماذا حدث؟

مرة ثانية.. بل رابعه أو خامسة تُشيرُ «ليلى» نحو تلك النقطة في الظلام، ما يزال لسانها قطعة لحم صمَّاء، في هذه اللحظة لم تجد السيدة سعاد فريد بُدًا غير أن تتحامل لتقف حاملة شمعتها، ثم تتحرك قليلا في اتجاه المكان الذي أشارت نحوه ابنتها، تقدمت خطوة، تُحرك «ليلى» يديها في الهواء في إشارة منها بألا تقترب، لكنها ما كادت تفعل حتى كانت أمها تنحنى لتفحص ذلك الشيء الملقى على الأرض.

لم تمر لحظة حتى صرخت السيدة «سعاد فريد» صرخة زلزلت المكان، صرخة اقتلعت قلب ابنتها «ليلى» قبل أن تقتلع قلبها، صرخة أسقطت من يدها الشمعة لتستقر بجوارها وهي تسقط على الأرض فاقدة الوعى.





تسمرت «ليلى» مكانها، فقد شُلَّ جسدُها بالكامل وهي تشاهد والدتها وهي تتحنى وتُقلِّب الرأس ثم تصرخ وتهوى مغشيًا عليها وتسقط الشمعة المشتعلة بجوارها.

لم تتحرك «ليلى» من مكانها بإرادتها، لأنها لم تكن تمتلك أي قوة لتحرك بها، إنما وجدت شيئًا خفيًا يأخذ بيدها لتقف، لم تفكر في هذا الشيء الذي يجذبها، لابد أن تقف لتُنقذ أمها من تلك النيران التي شبت في ثوبها بسبب الشمعة، أمها تحترق ويجب أن تنقذها، لابد أن تتحرك بسرعة لتطفئ النيران التي تتزايد مع حركة الهواء، صرخت ليلى:

- أمـــي.

خرج صوتها مشروخا، مختلطًا بأصوات بعض أبواب شقق الجيران، وهي تجر نفسها نحو والدتها التي تشتعل، يتزايد صرير الجنادب، تصرخ بومة تقبع على شجرة قريبة، من بعيد يأتي نباح كلب يصارع أشباح الظلام، تسرى رعدة رهيبة في جسد ليلى، تتشنج أطرافها، تمد يدها في الهواء بصعوبة شديدة وقد التوت أطراف أصابعها بشكل غريب أذهلها، يتمدد جسدها وكأن أربعة عمالقة يجذبونها إلى الاتجاهات الأربعة في آن واحد كي يمزقوها، انتفضت محاولة التغلب على تلك اللحظة الرهيبة، لابد أن تصل إلى أمها، تقترب أصوات أقدام الجيران مع كلمات استفهام ودهشة، تبحث عن أي شيء تقاوم به تلك النيران، كانت تتحرك في أكثر من اتجاه، لسانها يهتف بلا صوت مسموع مناديا أمها، عيناها تدوران في المكان بشدة حتى تكادان تخرجان من محجريهما، تبحث عن لعابها فحلقها





جاف جدًا، تتمنى لو يقترب أحدهم بسرعة على أثر الصراخ والجلبة، تبحث عن أي مصدر للماء، قواها تخور وأقدامها لا تقوى على حمل جسدها الضئيل، جسدها ينزف عرقًا غزيرًا، لا تعرف كيف استعانت بحقيبة يديها لتطفئ بها النيران المتسللة إلى جسد أمها، ضربات متتالية بحقيبتها على النيران، تخور قواها وتذهب أنفاسها.

لحظة واحدة.. بل جزء من اللحظة نظرت فيه «ليلى» نحو الرأس المقطوع المُلقى جانب أمها. على أثر الضوء المنبعث من ملابس أمها التي تشتعل شاهدت «ليلى» الرأس المقطوع، سكنت حركتها تمامًا، خَرُسَ لسانُها، سقطت على ركبتيها فلا أقدام لديها لتحملها بعد ما شاهدت، كانت تخبو وتبتعد عن المكان بينما النيران تشتعل أكثر في جسد والدتها، وأشباح كثيرة يتوافدون على المكان من كل اتجاه، أشباح كظلال بعضهم يحمل شعلات ملتهبة، يبدو أنها شياطين قد أتت لتشعل فيها هي الأخرى النيران، أيُّ غضبٍ حلَّ على تلك الأسرة البائسة؟ قبل أن تغيب «ليلى» عن الوعي، للمرة الثانية في دقائق معدودة، لاحظت أمها وهي تفيق على أثر لسعات النيران في جسدها، شاهدتها وهي تَهُّب واقفةً تنتفض مثل أي كائن يحمل روحًا ويلقى في النيران، تهبط بعينيها نحو الرأس المقطوع ولسانها يتحرك بلا صوتٍ قائلًا «بابا».







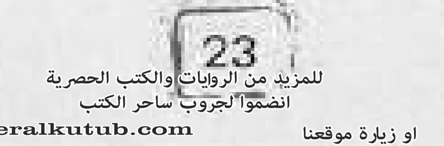
(3)

عمر

قبل أسابيع من تلك الأحداث خرج المهندس «عمر على» من منزله حاملًا حقيبتهُ التي تحتوى على ملابسه وأوراقه وعدد من الكتب التي يهوى قراءتها، وقف أمام الباب مُودعًا زوجته «سعاد فريد» وابنته الوحيدة «ليلى»، يتأمل جمالها لحظات قبل أن يضمها ويطبع على جبينها قبلة حانية ويُوصيها بأمها خيرًا، ثم يرحل.

المهندس «عمر»، رجل خمسينيٌّ أشقر، صاحب شعر ذهبى ناعم، معتدل الجسد، رقيق المشاعر، دَمِثُ الخلق، كثيرًا ما كانت تخبره إبنته «ليلى» بأنه كان يجب أن يكون نجما سينمائيًا لولا أنه فضّلَ الهندسة وارتبط بها.

يشعرُ بانقباض لا يدرى منبعه على وجه الدقه، بعد لحظات من التفكير يتوصل إلّى أن السبب يعود إلى القرار الذي اتخذته إدارة الشركة بسفره المفاجىء ليحل محل المهندس يوسف قدرى الذي سقط من أعلى الطابق السادس في منطقة العمل ليتوفي على الفور.



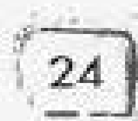


لم يكن «عمر» ليعترض على أي عمل، لكن سفره لمدة بعيدًا عن زوجته المريضه وابنته الوحيده بدون أن يرتب للأمر، جعل صدره ينقبض، ولولا تشجيعهم له على السفر لرفض هذا القرار.

يصل إلى الشارع، يضع حقيبته إلى جواره ويقف لينتظر سيارة أجرة، يسترجع سريعا تلك الترتيبات التي قام بها من أجل ضمان راحة أسرته في غيابه، فقد وفرّ لزوجته المال اللازم لعدة شهور، بالإضافة إلى الأدوية التي تلزمُها. يتذكر كلماته الأخيرة إلى إبنته «ليلى» وهي تضحك في خِفَّةٍ كفراشة وتحتضنه معلقة بأن عليه أن يسافر ولا يخشى أي شيء، فقد ترك خلفه فتاة بألف رجل. ولم يكن أحدهما يعلم بأن تلك الجملة الأخيرة التي قالتها على سبيل الدعابة سوف تكون ذات قيمة حقيقية مستقبلًا نظرًا لما ستواجهه ليلى من صعاب.

«ليلى» في الحادية والعشرين من عمرها، في السنة النهائية في كلية العلوم، يدرك أنها خلال الأيام القادمة لن تستطيع الموائمة بين محاضراتها وبين رعايتها لأمها، فقد كانت زوجته تعاني كثيرًا، وقد قسما العمل بينهما للتخفيف عنها. لابد أن «ليلى» سوف تستعين بزميلتها مايسه بدر الدين لتحصل منها على كل ما يفوتها من محاضرات، لكن.

تقترب سيارة أجرة، يشير لها، يستقلها متجهًا إلى محطة السكة الحديد، من هناك يحمله القطار في رحلة طويلة إلى صعيد مصر، إلى موقع عمل الشركة. يعلم أن المشروع عبارة عن إنشاء عدة عمارات لإسكان الشباب على أطراف إحدى القرى التابعة لمحافظة أسوان، لم يحالفه الحظ لزيارة أسوان من قبل وتمنى لو زار آثارها برفقة زوجته





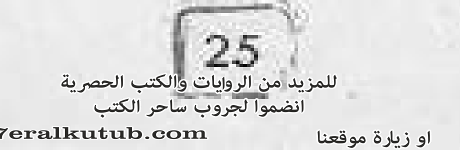
وابنته في رحلة للتنزه، أما اليوم وقد توجه إليها وحيدًا وفي رحلة عمل شاقة فإنه يشعر بذلك الانقباض ويشعر بالوحشة أيضًا، فلم يعد يرى الآن تلك الابتسامات التي تُوزعها عليه الأشجار كما كل صباح، أو يستمع إلى نقاش العصافير الحاد، أو حتى مواء قطة تستغيث، لم يرى الابتسامات الحنون على وجه الأطفال ولاتعانق أيدى العشاق خلسة، لم يكن رائق المزاج كعادته ليلاحظ تلك التفاصيل التي كثيرًا ما استمتع بملاحظتها.

يخرج القطار كما السهم المنطلق تاركًا خلفه القاهرة بصخبها، وتبدأ القرى والمدن في الظهور ثم المواجهة ثم التلاشى أمام عينيه لتحل محلها صور أخرى.

رحلةٌ طويلةٌ يتغلب على مللِها بمتابعة تفاصيل الحياة خارج القطار وداخله، وأحيانا بالقراءة في كتاب يستخرجه من حقيبته، إنه يهوى الشعر، يقرأ منه الكثير، وأحيانا ينظِمُ بعض الأبيات وإن كان لا يُطلع عليها أحد إلا أن «ليلى» التي تتحايل وتبحث حتى تعثر عليها وتقرأها خلسة وهي سعيدة فخورة بأبيها، تناقشه فيما قرأت، يستمع إليها جيدًا، سعيدًا بآرائها التي تتميز بالنضج والكثير من الصواب، ثم يعقب في النهاية قائلًا:

- كل فتاةٍ بأبيها مُعجبة.

يخبرها بأن ذلك مثل عربى في التراث يؤكد تعلق الفتيات بالآباء وأنهن يشاهدن في الأب كل شيء جميل وإن خالف الحقيقة. لكنها

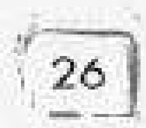




تؤكد له أنها ترى كل شيء فيه جميل، لأنه يستحق ذلك الحب والتقدير، وليس لكونه والدها فقط.

بينما كان القطار في رحلته الطويلة إلى أسوان، وبعد ساعات من الانطلاق، يشعر المهندس «عمر» بخمول في جسده وقد تراخت عضلات جسده، وثقلت جفونه، حتى إن سلطان النوم قد هجم عليه بجنودة التي لا تقاوم، يهز رأسه كي يُنفِّضَ بعضها، إنه لا يريد أن ينام الآن، فقد أوشك النهار على الانتهاء، ليكن النوم في فترة المساء، أما الآن فعليه أن ينشغل بأي شيء، ففي السهرة لن يجد ما ينشغل به إن هو استسلم للنوم الآن، يتثاءب بشدة حتى إنه يشعر بألم في فكيه، جفونه سقطت مرة أخرى على الرغم منه، هذه المرة نفض رأسه بعصبية وفتح عينيه بشدة وتمنى لو يضع رأسه تحت صنبور ماء، أو في دلو مليء بقطع الثلج.

في هذه اللحظة بالذات يشاهد "عمر" عبر النافذة شيئًا غريبًا، يفتح عينيه بشده، يَفْغَرُ فَاهَهُ حتى آخرِه من الدهشة، يقف ليمُدَّ رأسه من النافذة ناظرًا نحو الخلف ليتأكد مما شاهد، يدور بعينيه عبر النوافذ الأخرى باحثًا عن أي شخص آخر يكون قد شاهد ما حدث ويؤكد له أن ذلك حقيقة وليست أحلامًا أو تهيؤات، في اللحظة التي ينظر فيها نحو الأمام، يرى لافته من تلك المرسوم عليها إشارات تخصُّ حركة القطارات، لافتة حديدية قريبة جدًّا، مسافة تكاد لاتذكر من القطار، حادة.. قوية.. سوف تقطع رأسه لا محالة، إنها تقترب بسرعة رهيبة.





لا يعلم المهندس «عمر» ماذا حدث في ذلك الجزء التالى من الثانية، لكنه وجد نفسه يسقط بشدة فوق مقعدة وقد حُبست بداخله الأنفاس، شعر وكأنّ يدًا قوية قد أطبقت على كتفيه وجذبته بقوة شديدة ثم ألقت به فوق مقعده، نظر مشدوهًا حوله باحثا عن صاحب تلك اليد العملاقة، لم يجد أحدًا. من عمق لجة ذهوله يتذكر أنه يجب أن يتنفس، فتنطلق أنفاسه فجأة من أثر التوتر الرهيب حتى إنه يلهث كمن يجرى هرولة من مدة طويلة، يشعر بانقباض غريب في عضلات كتفيه من أثر تلك اليد التي أمسكته وجذبته إلى الخلف قبل أن تقطع اللافتة الحديدية رأسه.

ماذا شاهد؟ ولماذا وقف في هذه اللحظة بالذات ليتأكد مما شاهد؟ وكيف أنقذته يَدٌ خفية من الموت الرهيب؟ أسئلة دارت في ذهنه في اللحظات التالية.

يعود بالذاكرة إلى ما قبل الدقيقة المنصرمة، لقد كان يجلس ملقيا بنظره عبر النافذة إلى الخارج، كان القطار في هذه اللحظات يمر أعلى قنطرة حديدية على مجرى مائى يبدو عميقًا، في هذه اللحظة شاهد فتاة ترتدى عباءة سوداء تلقى بنفسها في المجرى المائى، لم يصدق عينيه، يقف ليتأكد، يشاهد أثر دوامة الماء الناتجة عن سقوط الجسد في الماء، بالتحديد في منتصف المجرى المائى، يلتفت إلى الأمام باحثًا عن شخص آخر يؤكد له أن ذلك حقيقة وقد حدث بالفعل.. لكن يحدث ما حدث من أمر اللافتة الحديدية القاتلة، واليد القوية الخفية التي تنقذه في آخر لحظة.





لا يعلـم المهنـدس «عمر» كم مرَّ عليه مـن الوقت وهو يفكر في أمر الفتاة التي ألقت بنفسـها إلى المـاء، لماذا أقدمت على تلك الخطوة، لا شـيء في الوجود يستحق بأن يفقد الإنسان حياته من أجله، تلك الحياة منحـة مـن خالـق الكون، يجـب أن تُسـتغل أفضل اسـتغلال ولا يجب القضاء عليها مهما كانت الظروف، ترى ما السبب الذي دفعها لاقتراف ذلك الإثم؟! يتذكر أنه كان بينه وبين الموت جزء من الثانية، يمُط شفتيه متعجبًا، وهو يقول لنفسه:

– جزءٌ مـن الثانية يـا «عمر».. بعدها كان سـيضاف لاسـمك لقبُ المرحوم.

يمـد يديه ليتأكد مـن حافظة نقوده التي يضع في أحـد جيوبها بطاقة الرقـم القومـى التي تحمـل اسـمه وعنوانه وإلـى جوارها وضـع ورقة صغيـرة كتب عليهـا أرقام تليفونات زوجته وابنتـه وكتب إلى جوارهما عبـارة (أرقام أسـرتى عند الضرورة القصوى)، تأكـد من وجودها، فقد انتابه شـعور فظيع بأن اللافتة كانت سـتقطع رأسـه لتُلْقِـيَ به إلى خارج القطـار، حتـى إنه تخيل الـرأس يتدحرج علـى جانب الطريـق والدماء تسـيل منه ليسـتقر بعيدًا عن القضبـان بين الأحراش والحشـائش، ولم يستبعد أن يمر كلب أسود، ضال، جائع فيجد الرأس فيقف لينظر نحوه لحظات ثم يقترب منه بأنفه، يشـم رائحته ثم يهجم عليه بأنيابه الحادة، أما الجسد فيسـقط داخل القطار حيث يجتمع رُكاب عربة القطار حول الجسـد الملقـى بـلا رأس، لا أحـد يعـرف من هـو، ولا أحد يسـتطيع الاقتـراب منـه، بعد حين يتقـدم أكثرهم جـرأة ليفتش فـي جيوبه ليجد



حافظة نقوده فيستخرج منها البطاقة وتلك الورقة التي تحمل أرقام زوجته وابنته، يتصلون بهم ليبلغوهم ما حدث. ترى كيف سيكون وقع الخبر على زوجته السيدة سعاد فريد؟ وكيف سيكون وقع الخبر على ابنته الحبيبة «ليلى»؟

تتداخل الصور أمام ناظريه بين بكاء وصراخ، أصوات كثيرة تخلع القلب من مُستقره، ظلام حالك يعم المكان، من قلب تلك الصورة يشاهد ظلالًا كثيرة، يتأملها، فإذا به يشاهد والديه.. يفغرُ فاهه، لقد رحلا منذ سنوات طويلة، هل عادوا من قبورهم؟! يتأمل أكثر.. يقترب.. يحتضن أمه، يضم يديه على لا شيء، إنهم ظلال الموتى، وليسوا الموتى أنفسهم، يصرخ مناديًا أمه، ينهره والده "لا ترفع صوتك يا عمر، تأدب أمام والديك" ينظر إلى الأرض خجلًا حتى يكاد يخترقها بعينيه، يود الاعتذار..

لم يشعر بنفسه إلا ويدٌ تهزُهُ فجأة، أحدُ العمال يسأله "هل يطلب شرابًا أو طعامًا؟" يستفيق من غفوته، يتأمل المكان حوله، لا يزال في القطار.. ذهبت الصورة التي تحول ظلال الموتى، لا يعلم لماذا أتوْهُ في غفوته ولم يرى أحدهم في أحلامه منذ سنوات؟! يبحث عن نسمة هواء تذهب بذلك الفزع الذي تملكه، يلاحظ دموعه التي ترقرقت على وجنتيه، يبحث عن سببها، أهي شفقة على حال زوجته وابنته «ليلى»، أم دموع على والديه الذين ظهرا له بعد طول غياب؟! يُنفِضُ رأسه ليخرج من خيالاته المزعجة بينما العامل لا يزال واقفًا متعجبًا من حال الرجل





وصمته، يطلب منه عمر فنجانًا من القهوة المعتدلة. كان في حاجة لمادة الكافيين لتنعش ذهنه قليلًا.

يسأل نفسه.. ماذا يحدث له؟ لماذا تغيرت حالته المزاجية فجأة وسيطرت عليه فكرة الموت وتعايش مع الفكرة تمامًا حتى إنه استدعى موتاه في غفوته التي انتهت ببكاء، وقد تمزق قلبه شفقة على حال زوجته وابنته من بعده؟

يأتيه العامل بفنجان القهوة، يحتسيه بنهم وهو يَعُبُّ من رائحتِه ليملأ خياشيمه، يودُّ لو تتخلل رائحة البن النفاذة كل خلاياه.

يُخْرِجُ كتابهُ مرة أخرى علَّهُ ينشغل ببعض ما فيه، بعد لحظات وقبل أنْ يطوى صفحة واحدة تتداخل الكلمات ثم تغيب عنه تمامًا لتحل محلها صورة الكلب الأسود، الضال، الجائع الذي يأكل رأسه المقطوع!! يشرد بعيدًا مشمئزًا للحظات وهو يتخيل الكلب الأسود يلتهم الرأس متلذذًا، يعود إلى نفسه ليسألها:

– و فيما الدهشة، أَتُنكِرُ تلك الفَعلةَ على الكلب بينما يفعلها بعض بني البشر فيأكلون لحم الكلب؟! لقد قرأتُ مقالة ذات يوم بأن هناك أناسًا يأكلون لحم الكلاب، يذبحونها ويطبخونها ويأكلونها بنهم.

تملكته لحظة المعرفة لعله يخرج من كآبته فأخرج تليفونه المحمول ودخل إلى شبكة الإنترنت، يبحث عن الشعوب التي تأكل لحم الكلاب، أتت أمامه الكثير من المقالات التي تحمل هذا العنوان، بلمسة من إصبعه فتح صفحة بعنوان إحدى عشرة دولة على مستوى العالم تأكل لحم الكلاب، قرأ المقال على مهل وهو في غاية



الاندهاش، فمن ضمن هذه الدول الإحدى عشر، دول تحتل مركزًا عالميًا في التطور التكنولوجي والفكري أيضًا !! يبتسم ساخرًا وهو يقرأ أن هناك بعض الدول منعت أكل لحوم الكلاب للحفاظ عليها من الانقراض وبالتالي لجأ بعض الأشخاص إلى صيد الكلاب صيد غير شرعي وتهريبها سرًا إلى المطاعم، ولم يتوقف الأمر عند الكلاب، بل تخطى ذلك إلى القطط أيضًا.

شعر المهندس «عمر» بغثيان رهيب ورغبة شديدة في القيْء، تمنى لو لم يقرأ ذلك المقال، وكأنه قد هرب من حفرة ليقع في حفرة أخرى أعمق. يترك مقعده ويتوجه إلى الحمام، يمكث في داخله دقائق، لا يستطيع إفراغ ما في جوفه، يغسل وجهه بالكثير من الماء ثم يخرج ليقف أمام نافذة باب مغلق ليتابع الطريق مدة قبل أن يعود إلى مقعدة ليستقر ويذهب في نوم مليء بالأحلام المفزعة، وقد سيطرت عليها مرة ثانية ظلال موتى آخرين كان يرتبط بهم ارتباطًا وثيقًا، يندهش في حلمه متسائلًا: لماذا يجتذبه عالم الموتى بهذا الشكل الذي لم يحدث من قبل، كانوا ينظرون نحوه بحزن وصمت وقد تشابكت أيديهم وبدت على ملابسهم أتربة القبور، جماجمهم هشة يخترقها الضوء، على كل منهم آثار أسباب وفاته، فمنهم الممزق بسبب حادث سيارة، ومنهم النحيل المتداعي المتوفي بعد صراع مع السرطان ومنهم.. ومنهم.. يدور بعينيه بينهم بسرعة رهيبة حتى تدور به الدنيا ليسقط في قلب دوامة كبيرة تبتلعه لتلقى به في قلب فضاء شاسع ناصع البياض.





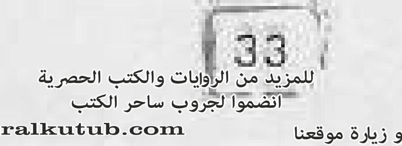


(4)

شدوان

لا يدرى المهندس «عمر» منبع الانقباض الذي يشعر به متزايدًا مع مرور الوقت، يبحث عن أسبابه فلا يصل إلى نتيجة. يستقر متأففًا في غرفته في الاستراحة القريبة من موقع الشركة على أطراف قرية «الكاجوج» التابعة لمركز كوم أمبو، كان قد عبر نهر النيل حتى وصل إلى تلك القرية ومن ثم انطلق عبر طرقها الضيقة والتي تتسع في بعض الأماكن، وتضيق في أماكن أخرى حتى لا تكاد تتسع إلى أم تمسك بطفليها ليسيرا إلى جوارها بعرض الطريق.

يستمرُّ في سيره متأملًا كل شيء حوله حتى يصل إلى جانبها الغربي حيث موقع الشركة، تستقر في ذاكرته المنازل التي تقع على حافة نهر النيل بألوانها الزاهية تحيط بها أشجار النخيل المتناثرة بين البيوت وعلى أطراف القرية وكأنها شواهد على تاريخ ذلك المكان، تتخلله الروائح المختلطة التي تنطلق من البيوت، معظمها بخور وروائح أكلات مشبعة بأنواع مختلفة من البهار التي لا يعرف لها اسمًا، تتابعه





وجوه سمراء مُجعدةٌ وعيون غائرة تفركها أحيانًا أكف معروقة،أو تتابع وجوه أطفال تلمع من سمرتها تحت أشعة الشمس الملتهبة.

في طريقه إلى الاستراحة يمر عبر طريق ضيقة بين زراعات قصب السكر، الطريق موحش، يختنق مع الهواء المحبوس بين النباتات الكثيفة المتشابكة، حركة وخربشات دائمة بين أوراق النبات الجافة يلتفت أكثر من مرة للخلف باحثًا عن مصدر الصوت، وكأنها الجان تلهو بين الزرع، تصمت لحظة بحثه وتعبَثُ حالَ عَدْوِه. يصعد، بصدر منقبض وأحشاء تتلوى، عبر طريق أخرى حتى يشاهد من بعيد موقع العمارات السكنية التي تقيمها الشركة، الاستراحة على اليمين، وفي الأفق يشاهد جبال شاهقة تحجب خلفها شمس هذا اليوم الجديد.

يقابله الخفير «شِدوان» مُرحبًا، يفتح له باب الاستراحة ليدخل بينما يستمر في فتح النوافذ لتهوية المكان، بعد ترحاب وحوار بسيط يتركه ليستريح من عناء السفر، قبل أن يغلق الباب خلفه يخبره بأنه موجود أمام الاستراحة لخدمته في أي وقت شاء.

بعد حمام سريع يستبدل المهندس «عمر» ثيابه ويشعر ببعض قوته تعود إليه، يفتح باب الاستراحة مناديًا على «شدوان» الذي يأتي مسرعًا.

«شدوان» صاحب جسد ضخم، بشرة سمراء كما أهل أسوان، يرتدي جلبابًا رماديًا واسعَ الأكمام ومفتوحَ الصدر ليظهر شعر صدره الذي تتخلله شُعيرات بيضاء، على رأسه يلف شال أبيض صانعًا عمامة ضخمة مثل مِظلّة تحجب شمس أسوان الملتهبة، تعلو وجهه إبتسامة صافية كثيرًا ما تخبو أمام علامات قسوة فرضتها عليه طبيعة المكان،



وأيضًا طبيعة عمله كخفير عليه مواجهة أي تعديات أو أطماع تخص مواد بناء الشركة ومعداتها.

يجلس المهندس «عمر» في منطقة فضاء مربعة الشكل أمام الاستراحة، فوق مقعد من البلاستيك، يرتدي «ترننج» أحمر اللون، يتأمل طبيعة المكان ويتنسم هواءه المشبع بروائح تملأ صدره للمرة الأولى في حياته، يحاول جاهدًا التعرف على تفاصيلها لكنه لا يستطيع، فيكتفي بحفرها على جدران ذاكرته.

يشعل «شدوان» النار في قطع خشبية متبقية من أعمال ولا تصلح للاستخدام يسمونها «طفش»، لم يسأل يومًا سبب تلك التسمية، يبرك بجلبابه الفضفاض بجوار النار، الرمال تتحرك أسفله اترسم تفاصيل جسده من أسفل، يصب ماء من قنينة بلاستيكية إلى إناء نحاسي بيد مصنوعة من حديد، يضع الإناء على النار، يلقي بداخله بملعقتين من الشاي الخشن، يتأمل ألسنة النيران الخافتة التي تتحرك لأعلى ثم تتلاشى، دخان يصعد من بعضها، يحيط بالإناء النحاسي، وذاك بسبب طبقة الهباب المتكلسة على جدرانه، مؤكد سيلتقط الشاي طعم الدخان، يفكر المهندس عمر في ذلك وهو يتابع شدوان، يلفت نظره حركة بسيطة قام بها شدوان، فبعد أن وضع الشاي الجاف مد يده نحو العشب وبقايا الخشب المتبقية حول النار المشتعلة، يكسر قطعة خشب صغيرة في حجم نصف عود الكبريت ثم يلقي بها إلى قلب الإناء، كان شدوان شارد الذهن قليلًا وهو يفعل ذلك مما جعل المهندس عمر





يتأمله مندهشًا من فعله،يبدو أنه يفكر في أمر، وقد فعل ذلك بدون قصد، تمر لحظة ثم يسأله شذوان:

- كم ملعقة سكر يا باشمهندس؟

- واحده كفاية يا "شدوان".

يستغرب «شدوان» ولكنه يبتلع دهشته تلك، فلا مجال للتعليق مع هذا الوافد الجديد الذي لم يتعرف على تفاصيل شخصيته بعد، يضع ملعقة السكر في الكوب مشمئزًا من طعم الشاى المتوقع متسائلًا في صمت: كيف يستطعمون ذلك الشاى المائع؟! إن لم يكن كوب الشاى أسود حبرًا وعليه كمية كبيرة من السكر فلا طعم له ولا يضبط الرأس!!

يصدر أزيزًا مستمرًا ثم يتصاعد البخار كثيفًا من الإناء، لحظات يتأمل شدوان داخله حتى يتأكد من غليان الشاى، ينتظر حتى تنقلب طبقته العليا الكثيفة، يليها فورانٌ مُرصّعُ بفقاقيع، يرفع الإناء عن النار ليضعه على الرمال لحظات حتى يهدأ قبل أن يصب سائله في أكوابه.

يحمل «شدوان» كوب الشاى، يملأ كوبًا آخر بالماء المثلج، رغم دخول البلاد رسميًا في فصل الشتاء إلا أن قرية الكاجوج التابعة لأسوان لا تزال تعانى من ارتفاع شديد في درجات الحرارة. يقترب من المهندس «عمر»، فيراه شاردًا، يتابع نظراته المتأملة فيجده وقد صوبها ناحية الجبال البعيده، فيقول:

- هي جبال البحر الأحمر.. وهادى جبل «بريرو».. اتفضل الشاى يا باشمهندس.





يمد يده بالصينية قليلًا ناحية المهندس «عمر» الذي يتناول الشاى مبتسمًا في هدوء عندما سمع اسم الجبل الذي يبدو كاسم لجبل في أمريكا اللاتينية، لكنه لم يسأل عن سبب التسمية حتى إنه دُهش من نفسه. تأمل لحظات ذلك الامتزاج بين اللونين الأصفر والأخضر الممتدين حتى الأفق ليمتزج بهما اللون الأزرق، لون السماء المتدلية الأطراف لتحتوى قمم الجبال الشاهقة، لا يعلم لماذا يتذكر صور الموتى، تستقر صورة أمه أمام عينيه، يطول شروده، بعد لحظة يفيق على طعم الشاى الذي رفعه إلى فيه بشكل آلى، لقد كان الشاى رائع المذاق لا أثر فيه لأي دخان، تعجب وسأل:

- توقعت أن يكون هذا الشاى بطعم الدخان..!!

- البركة في الخشبة.

يحمل شدوان قطعة خشب صغيرة مثل تلك التي ألقى بها إلى الإناء منذ لحظات، رفعها في يده إلى أمام وجهه، قائلًا:

- قطعة الخشب تمتص الدخان وكل الروائح من الشاى.

قبل أن يسأله المهندس عمر عن سبب ذلك، يقف «شدوان» مشيرًا نحو فتاة تقترب من بعيد، ثم يهتف مناديًا عليها:

- «منيرة».. تعالى يا بنيتى.. أنا إهنه مع الباشمهندس «عمر».

يجلس مكانه بينما تقترب «منيرة»، يتأملها المهندس «عمر» وهي في طريقها إليهم، فتاة في التاسعة عشرة من عمرها تقريبًا، تلمع عيونها ببريق غريب، واللون الأبيض فيهما يكسر حدة بشرتها السوداء، تقترب



أكثر فتبدو جميلة، ترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا وعلى رأسها طرحة حمراء تتخللها عدة ألوان أخرى أبرزها الأزرق.

قبل أن تصل إلى المكان الذي يجلس فيه والدها مع المهندس الجديد، تشاهد والدها يميل نحوه ويحدثه بكلمات قليلة، مؤكد يحدثه عنها وعن كونها الابنة الوحيدة بعد خمسة صبيه، سافر منهم من سافر وتزوج مَن تزوج وانتقل إلى بيت آخر من تبقى، ولم تبقى له غير ابنته «منيرة» التي تقوم على خدمته بعد وفاة زوجته، لم يفصح شدوان لأي أحد عن حبه الشديد لمنيرة، ذلك لأنه خشى أن يفصح فيظهر منه ذلك الجانب الرقيق فيصفونه بالضعيف، كما أنه لم يفصح لأنه لا يمتلك المفردات التي يستطيع أن يعبر بها عن مدى حبه لها، الخلاصة أنه يحبها حبًا عظيمًا.

يتناول «شدوان» بوْجة الطعام من ابنته، يقف المهندس «عمر» ليرحب بـ "منيرة"، لم يتحدث بما يدور بداخله في تلك اللحظات، لقد شاهد فيها ابنته «ليلى»، نظر نحوها بإعجاب ومحبة وهو يشير لها بالجلوس معهم، ترفض في البداية وقد تغيرت بشرتها السوداء لتتحول إلى اللون البنى الداكن من أثر تصاعدِ دماءِ الخجل، تقول هامسة:

- سأعود.

- اليوم طويل يا منيرة.

تنظر نحو والدها في حيرة وكأنها تسأله أن يتخذ القرار بدلًا منها، يصمت لحظات، بدا وكأنه بين بيْنَ، فكلا الأمرين واحد بالنسبة له، لكن أمام إصرار المهندس «عمر» يوافق «شدوان»، فتوافق «منيرة»، لا



ترفع عينيها عن الأرض إلا قليلًا عندما تشعر بأن المهندس الجديد ينظر إلى ناحية أخرى ولا يغمرها بنظراته، أكثر ما لفت نظرها بشرته البيضاء وشعره الناعم وجسده الذي بدا كجسد الرياضيين، هو شخص جذاب من ذلك النوع الذي تشعر بقبوله مثل زوج لا مثل أب، قد تسرى تلك الرعشة حال تماس الأيدى، رعشة لها خدر لذيذ تختلف بشكل كبير من تلك التي تحمل عاطفة الأبوة.

يتأملها عمر جيدًا، يشعر بتلك الرعشة عندما تتلاقى أعينهما، لكنه يشعر بها تمامًا كما شعرها أمس وهو يودع ابنته ليلى، لكنها ارتجافة تلاقى أعينهما قد حدثت بالفعل، ولكل منهما مشاعره الخاصة التي يفسرها بها.

بعد لحظات من الصمت يسألها المهندس «عمر» عن دراستها، فتخبره بصوت خفيض بأنها أنهت دراستها بعد حصولها على دبلوم المدارس الفنية الصناعية قسم تفصيل، تدريجيًا تنطلق في الحديث متخطية خجلها وهي تخبره عن قدرتها وقدرة أبناء قرية الكاجوج على صناعة الملابس والمفروشات والمنسوجات اليدوية ثم أشارت إلى الطرحة التي تلف بها رأسها وتخبره بأن هذا شغل يديها، تمسك طرف طرحتها بأطراف أناملها لتستعرضها أمامها، تنزلق بعض الشيء فتظهر خصلات من شعرها الفحمى الناعم، بشكل لا إرادى ينظر نحو شعرها، يلحظه شدوان فينظر إلى ابنته مُحذرًا، تدرك منيرة ذلك فترفع يدها اليسرى لتسحب طرف طرحتها لتغطىّ ما ظهر من شعرها، بينما تهز يدها الأخرى المستعرضة أمام المهندس عمر كى تلفت انتباهه إلى





نقوشـها، يتأمل المهندس «عمر» النقـوش المصنوعة من الخيوط التي تزين الطرحة، إنها جميلة بالفعل، يقول منبهرًا:

- رائع.. هل هذا بالفعل هاند ميد؟

يتأمـل «شـدوان» الكلمة لحظات بحثًا عن معناهـا ولما لم يجد يهز رأسـه متسـائلًا عن معنى ما قاله المهندس عمر، تبتسم «منيرة»، تتبادل النظرات مع المهندس الجديد ثم تتوجه بالحديث إلى والدها تفسر له معنى «هاند ميد» وقد زادتها ابتسامتها جمالًا فوق جمالها.

الحقيقة أن «منيرة» كانت تحملُ كمًا عظيمًا من البراءة، روحها تملأ المكان، هي من ذلك النوع الذي يكون بجوارك لسـنوات طويلة لكنك لن تشعر بقيمته الحقيقية إلا بعد فقده، فتتذكر كل كلمة، كل حركة، كل لفتة، كل رأي.. تتذكر كل شـيء صدر عنه تذكر المقدسـات، تتمنى لو عادت الدنيا إلى ما قبل الفقد لتعبر له عن مدى محبتك له وذوبانك فيه، لكن هذا لا يحدث أبدًا، فتندهش وتتمنى أن تخبر كل سكان الكون بألا يتركـوا ما بين أيديهم يرحل بدون أن يعبـروا له عن مدى حُبهم له وعن مدى سعادتهم بقربهم منه.

يمطُّ «شدوان» شفتيه ويرسل بنظراته في الهواء وهو يعقب بكلمات غير واضحة تمامًا «طب ما يجول: شغل إيد.. وخلاص».. لم يكن يود أن تصـل كلماته إليهم ولم يكن يسـتطيع كتمها بداخلـه، فتركها تخرج مُبْهَمة هكذا.

لا تعلم "منيرة" لماذا شـعرت بشـيء من الراحة نحو الوافد الجديد عكس كل من سبقوه أو من يتواجدون حاليًا في الموقع، ذلك أن والدها





كان يتركها تحمل له الطعام على مضض، فكان أكثر ما يقلقه هو ترك المكان المسئول عن حراسته، لكنه كان يصرفها سريعًا لتعود، أما اليوم فقد جلست وتسامرت، وها هو والدها يتنازل عن تحفظه ويترك ابنته تجلس معهم، بل تتقمصهُ روح القاص فيسرد الكثير من التفاصيل التي تخص عائلات وقبائل قرية الكاجوج: المحافيظ، المرازيق، البلاليع، الريساب، هذه العائلات التي تنتشر في طول المنطقة وعرضها ولها فروع في جنوب ليبيا وشمال السودان، يفيض في الحديث عن نوبات العداء والمصالحة بين العائلات، هنا تضحك "منيرة"، وإن كست وجهها علامات أسى وهي تتحدث عن ذلك الخلاف الأخير الذي وقع بين شخصين من عائلتين مختلفتين وإن كانا يعيشان في الجوار، نظر نحوها المهندس «عمر» مستزيدًا، فتقول:

- تعرف إن الجو عِندِينا حر طول السنه، ما في بيت إلا وعنده جهاز تكييف، عادى، سرحان البلاليعى اشترى تكييف وفتح له مكان في جدار ناحية شوقى الريسابى، وكانت المصيبة يا باشمهندس..

- خير يا "منيرة"؟

- عركة جامت وربك وحده مَن لطف قبل ما تزيد.. عشرة ماتوا وخمسه وعشرين نجلوهم المستشفي في حالة خطرة.

مذهولًا يتساءل المنهدس «عمر»:

- ماذا؟!





تعيد الأرقام على مسامعه مرة أخرى ويؤكد له «شدوان» صحة ما قالته ابنته التي قامت بدافع غريزي لتُعِدَّ الطعام على مائدة جانبية، بينما يسرد شدوان أحداثًا مشابهةً أو أكثر إثارة.

يندهش عمر مما يسمع، شدوان يسرد له أحداثًا مرعبة وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، يعلم عمر أن طبيعة المناطق الحارة تزيد أهلها قسوة، لكن المعرفة المجردة بطباعهم يختلف عن التواجد الحقيقي معهم، يعود إلى قلبه الانقباض الذي كان قد أخذ في الرحيل منذ أن استقبله شدوان وأتتهم منيرة ونشروا حوله الجو الأسرى الذي تركه خلفه في القاهرة.

المائدة كانت صغيرة والطعام قليل لكن "منيرة" استطاعت بقليل من المجهود أن تجعلها مائدة جذابة حيث نسقت ألوانها ووزعت الأطعمة على أكثر من طبق صغير وأضافت أعواد الجرجير الطازج بعد أن غسلته بالماء فبدا لامعًا، ثم وزعت شرائح الطماطم حول قطعة الجبن القديم بنية اللون، فردت أرغفة العيش الشمسي على جانب المائدة، وأخيرًا وضعت كوب ماء بدا مثل كريستالة عظيمة تتوسط المائدة، ثم دعتهم لتناول الطعام.

على عكس ما توقعت منيرة، لم تظهر علامات السعادة على المهندس عمر بمائدتها الريفية البسيطة، كان شارد الذهن، يرسل نظراته بعيدًا، إلى أحضان الجبل، من بعيديلمح زوبعة رملية خفيفة تدور في خطوط متعرجة، يتذكر أقوال الأطفال في الأرياف قديما عن





تلك الزوبعة "فساء العفريت" يمط شفتيه مندهشًا، أي عفريت هذا الذي تنتج عنه مثل تلك الزوبعة؟! عقول أطفال.

إن كانت تلك مُخيّلة الأطفال، فلا غرابة في أن تستلهم أو تستقي الخرافات وتتناقلها الأجيال، لكن ما بال هؤلاء القوم يتحدثون عن الدماء والقتل حديثهم عن تفاصيل حياتية، منيرة التي بدت منذ لحظات، مع خصلات شعرها الفاحم، رغداء مصنوعة من البراءة، تحدث عن القتلى والجرحى، بسبب أمر بسيط، وكأنهم شيء لا يذكر. كان هذا حال المهندس عمر وهو يمضغ اللقيمات على مهل.

أما «شدوان» وابنته فقد علت وجوههم إبتسامة جامدة، لم يدرك «عمر» أن الجمود طبيعتهم، ذلك الجمود المفروض عليهم بسبب طبيعة المكان وظروف الحياة وقسوتها في كثير من الأحوال، وسوف يدرك في المستقبل القريب جدًا أن الجهل هو أحد أهم أسباب ذلك الجمود.

وجدوه متواضعًا عكس كثيرين غيره، خاصة عندما حدثهم ببساطة عن عمله، حياته، ابنته «ليلى»، زوجته السيدة «سعاد فريد» ومرضها، حدثهم عن أن زوجته وابنته كانتا السبب الوحيد لرفضه هذه المأمورية ولولا أن مدتها قصيرة لما وافق، يستمر في حديثه بشكل أعاد إليه بعض صفاته المفقود.

لم يعكر صفو تلك الجلسة غير إقتراب أحد الرجال وخلفه يسير كلب أسود اللون ضخم الجثة يكشر عن أنياب حادة بينما يسيل لعابه





لزجًا مقززًا، بإشارة من صاحبه يتوقف الكلب على بُعد خطوات وهو يرقب الوافد الجديد بنظراته.

يرتبك المهندس «عمر» لحظة رؤيته لهذا الكلب، يشعر بأنه شاهده من قبل!! أين؟ يحاول إعمال فكره بعنف حتى إن الدماء ضغطت على أذنيه مصدرة طنينًا شديدًا، لكنه يفشل في تحديد ذلك، يهزُ رأسه ليتغلب على تلك الرغبة التي تكاد تذهب بعقله، لا يلحظ علامات الضيق التي بدت على ملامح «شدوان» و«منيرة» لحظة رؤيتهم للقادم وكلبه، يبدو أنه من تلك النوعية التي تثير في النفس انقباضًا ما، من ملامحه التي تبدو أكثر وضوحًا كلما اقترب يتأكد المهندس «عمر» أنه بالفعل شخص مثير وتمنى في لحظة أن يكون مارًا ليلقى التحية ويرحل، لكن أمنيته هذه تبخرت في لحظة واحدة، عندما همس «شدوان» قائلًا:

- «فراج».. ريس الأنفار في الموقع يا باشمهندس.

يزداد الانقباض بداخله عندما اقترب ذلك الرجل مرحبًا به بشكل فج حتى إنه أخذه بالأحضان وكأنه صديق غاب عنه فترة من الزمن، وقبل أن ينتهي ذلك الرجل المثير للانقباض من عبارات الترحيب، يلاحظ نظرات المهندس «عمر» نحو الكلب الأسود الضخم، يعقب ضاحكًا «ما تخافش يا باشمهندس.. ناصور كلب طيب، ما يأذيش حد واصل.. غير لما أنا أقول له» يضغط «فراج» على حروف كلماته الأخيرة وهو يمعن النظر في وجه المهندس «عمر» مركزًا على عينيه في تبجح. ثم يلقى بعبارة غريبة أثارت الحضور:

- هل يذكرك كلبي ناصور بشيء يا باشمهندس؟





يهز عمر رأسه كمن يفيق من نوبة شرود ولا يجيب بكلمة واحدة، بينما يتزايد امتعاض «شدوان» مما يفعله «فراج»، أما «منيرة» فقد رفعت طرف طرحتها المُدلى لتوارى به بعض وجهها، لحظات حتى استأذنت في الإنصراف، ينطلق معها والدها ليودعها بينما يظل «فراج» مع المهندس «عمر» الذي تماسك ولم يعبر عن ضيقه من أسلوبه الفج، وقبل أن يُبدى دهشته من جرأة فراج الذي جلس وتمطع مادًا ساقيه على طولهما، تذكر فجأة أين شاهد ذلك الكلب.. نعم إنه هو نفس الكلب الذي شاهده حال غفوته في أثناء رحلته في القطار، فزع لحظة وارتعد داخله، كيف ذلك؟! تساءل في صمت.. يهز رأسه بعنف.. الكلاب تتشابه.. يعلل لنفسه.. فأي كلب أسود ضخم هو نموذج الكلاب المخيفة، لكن لماذا يسأله فراج مثل هذا السؤال؟ كيف علم بأمر ذلك الكابوس الذي راوده؟! أم هي مصادفة !!.. ينتفض لحظة ثم يتماسك وهو يعود إلى المكان على صوت «فراج» وهو يطلب منه الجلوس. يلحظ «عمر» أنه ما يزال حتى اللحظة واقفًا، تداخلت على وجهه علامات مختلفة، لم يهتم «فراج» بتلك الملامح وألقى نظرة سريعة على جسد «منيرة» قبل أن تختفي في الممر الضيق بين زراعات القصب، ثم ينادى على كلبه:

- ناصور.. تعالى.

يأتى الكلب الضخم الشرس في وداعة لا تتناسب مطلقًا مع هيئته، وفي خنوع يجلس تحت أقدام صاحبه وعيناه معلقتان بذلك الرجل



الغريب، لا يستطيع أن يخفي شراسته وعداوته لذلك الوافد مثل صاحبة الذي أظهر توددًا باهتًا مصطنعًا.

المهندس «عمر» يسحب ساقية أسفل مقعده وقد تملك منه الخوف بعدما تذكر بوضوح ذلك الكابوس الذي راوده في القطار وهذا الكلب الأسود الشرس يمسك برأسه بين فكيه غارسًا فيه أنيابه البيضاء ولعابه يسيل على جانبيّ فمه، يزدرد لعابه فيشعر بغصة في حلقه، يتمنى لو عاد «شدوان» مسرعًا، زوبعة الرمال الخفيفة تقترب من المكان تتلوى في دورانها، يركز عمر نظره عليها مواريًا ما يعتمل في داخله من اضطراب، يلاحظ " فراج " الخوف في عيني المهندس «عمر» فيتحدث قائلًا:

- جولت لك ما تخاف يا باشمهندس، ناصور ما يزعل من حد أنا راضي عنه.. (يضحك ويفرك رأس كلبه بيده اليسرى ثم يكمل متوجها بالسؤال إلى الكلب) إكديه يا ناصور؟

يصدر الكلبُ صوتًا ضعيفًا بينما يرفع رأسه أكثر لتتخلّلهُ أصابع صاحبه بقوة. يتمالك «عمر» ويخبر نفسه بأنه لا مشكلة في أن يتبادل الحديث معه لحظات، إنه مجرد عامل في الموقع وما هي إلا مأمورية سوف تنتهي ويعود إلى أسرته، لكنه لم يعلم أن تلك الأمنية بالذات كانت هي الأمنية المستحيلة.

يهز رأسه ثم يشير بيده نحو الكلب وهو يسأل العامل " فراج ":

- ماذا تعنى «ناصور»؟!

- ناصور دا إسم الكلب بتاعى يا باشمِهندس..





- عرفت !!.. أسألك عن معنى الإسم؟!

يتماكر فراج، يشاكس كلبه لحظات قبل أن يقول :

- كان عندينا ساحر، كانوا يجولوا عليه ناصور.. جوم أنا لما جبت الكلب دا وهو صغير سميته ناصور.

- ساحر؟!

يستعد فراج للحديث عن الساحر وعن معجزاته التي بدا أنه يحفظها جيدًا، لم يعلم عمر أن فراج يرسل الرعب إلى قلوب مَن أمامه بتلك الحكايا عن الساحر ناصور، ثم يضع بينها ما يؤكد علاقته به وبعالم السحر، فيخشونه ويتمنون ألا يغضب منهم، لكن اقتراب «شدوان» وتعمده الجلوس إلى جوار المهندس «عمر» ليفصل بينه وبين «فراج» وكلبه، أرغمه على عدم الخوض في ذلك. يشير شدوان نحو «فراج» وهو يتحدث بكلماته التي رغب بها أن يُنهي الحديث:

- فراج ريس الأنفار هنا يا باشمهندس.. تؤمر بشيء قبل أن يرحل؟

يهز المهندس «عمر» رأسه علامة النفي، لكنه قبل أن يتحدث بأي كلمة، ينطلق «فراج» قائلًا بضيق :

- أشرح للباشمِهندس الشغل يا عم «شدوان»!!

يزوم الكلب ناصور عندما يستشعر توتر صاحبه ويرفع رأسه إلى أعلى، ينكمش «عمر» في مكانه بينما يظهر الضيق الشديد على وجه «شدوان»، يبتسم «فراج» وهو يربت على رأس كلبه ثم يتوجه بالحديث إلى المهندس «عمر» مضفيًا على موقعه في العمل الكثير من الأهمية



والمهابة، هو رئيس العمال في الموقع وتحت يده يعمل أصحاب المهن من البنائين، الحدادين، النجارين، حتى عمال الكهرباء والتشطيب، إنه يرأس عمال هذا الموقع منذ أن بدأ العمل فيه ولن يترك مكانه قبل إنتهاء المشروع مهما كانت الأسباب، يلاحظ المهندس «عمر» أن «فراج» يضغط على حروف كلمات جملته الأخيرة خاصة عندما كررها مرة ثانية «مهما كانت الأسباب».

لا يجد «عمر» ما يتحدث به، لم يتعرف على أية تفاصيل بعد، لذا فإن عدم الخوض في تفاصيل العمل هو أفضل وضع الآن، ولما لم يجد ما يتحدث به تطرق إلى موضوع المهندس السابق الذي مات إثر سقوطه من أعلى البناية، تظهر ملامح الحزن والأسى على وجه «شدوان» بينما يمط " فراج " شفتيه لحظات قبل أن يقول:

- كان إبن حلال..

يلتقط شدوان طرف الحديث بسرعة قائلًا:

- نعم.. كان إبن حلال، ما خرجت منه العيبة، لكن نَصِيبُة.. ولكل أجل كتاب يا باشمهندس.

- و نعم بالله..

يصمتون لحظات يتأملون الفراغ المحيط، يعود المهندس «عمر» بعينيه ليتأمل ناصور، يفكر.. ترى.. ما معنى كلمة ناصور التي أطلقها ذلك الساحر على نفسه؟! مؤكد هذا الاسم يحمل معنى ما مرتبط بعالم السحر والجان وتحضير الأرواح.





الحقيقة أن طبيعة المهندس «عمر» الشاعرة الحالمة كانت تنأي به عن الخوض في هذا المجال، معلوماته فيه كانت صفرًا تقريبًا، لذا لم يجهد تفكيره في البحث عن الأسباب التي حدت بهذا الساحر لاختيار هذا الاسم، إنما قرر أن يبحث عن معنى الاسم على شبكة الإنترنت بعد أن ينصرفوا ويختلي بذاته.

يعود «شدوان» ليتحدث ولكن إلى «فراج» قائلًا:

- بينا يا «فراج».. الباشمهندس لازم يرتاح من السفر.

يضحك «فراج» كاشفًا عن أسنان صفراء مدببة، يقف في تكاسل ويتبعه كلبه ناصور ليقف في نشاط وهو يهز جسده بأكمله كأنه ينفض عنه الكثير من الشوائب التي علقت به، بالفعل تتناثر ذرات الرمال التي علقت به ثم يتحرك بخطى هادئة واثقة في طريق العودة، يلقي عليه «فراج» نظرة خاطفة وهو يمد يده ليرفع بها طرف جلبابه المهترئ من الأسفل فتبدو ساقيه سمراء عليهما خطوط بيضاء من أثر أملاح مترسبة بعد عرق غزير، ثم يقول:

- عندك حق يا «شدوان».. ارتاح يا هندسة.. إرتاح وإطمئن.

يبدو أن تلك كانت عادة «فراج» في حديثه، يلقي بالجمل التي تحمل أكثر من معنى، ثم يكررها مرتين أو ثلاث، فقد قال «إرتاح وإطمئن» مرتان وفي كل مرة كانت تحمل معنى أكثر تأكيدًا أو تهديدًا إن أردنا الدقة، لم يفهم المهندس «عمر» ما يرمى إليه «فراج» لكن على ما يبدو أن «شدوان» قد فهم ما يرمى إليه، فقد تغيرت ملامحه وأربَدّ وجهه ونظر نحو «فراج» نظرة بُغْض حتى كادت كلماته ترتسم على



ملامح وجهه، ثم عاد إلى المهندس «عمر» بنظرات هادئة مع ابتسامة بشوش وكأنه يخبره بألا يخشى شيئًا.

مع انسدال الليل كاملًا على منطقة المشروع يُخيِّمُ صمتٌ رهيب، لا أصوات غير هوام الليل الصحراوية وصفير لا يدرى أحدٌ مصدره وإن كانوا يدركون أنه يأتى من عمق الجبل. يدنو المهندس عمر من النافذة وكأنه يود التطلع عبرها إلى المكان من حوله، لكنه في واقع الأمر كان يود التأكد من إحكام غلقها، من بعيد يصل إلى مسامعه أصوات متداخلة لعواء ذئاب ونباح كلاب وصراخ بوم وكأن شيطان الليل ظهر بينهم فجأة، يحاول بقدر ما يستطيع عدم التركيز لكنه يفشل في ذلك حتى إنه قد وضع كفيه على أذنيه ليمنع عنها الصوت، يعيد إحكام غلق النافذة وقد تسارعت دقات قلبه.

على ذلك الضوء الشاحب المنسكب من مصباح في جانب الغرفة يجلس ليتصفح أحد الكتب التي أخرجها من حقيبته، يقرأ عدة سطور بدون أن يعى منها حرفًا واحدًا، كان يفكر في أشياء كثيرة على رأسها المدعوُّ فراج وكلبه الغريب ناصور، يتذكر زوجته وابنته ليلى، يبحث عن صور لهما على تليفونه المحمول، يتأملهم قليلًا، يود لو يتحدث إليهم مرة ثانية قبل أن ينام، لكنه يتراجع لئلا تكونا قد أخلدتا إلى النوم، ثم إنه هاتفهم في أول الليل. يفزع على إثر دقات خفيفة على الباب وصوت خافت أشبه بالفحيح:

- باشمهندس.. صاحى؟





لا يجيب، يجمد في مكانه حتى إنه يحبس أنفاسه، ليستمع مرة أخرى كي يحدد مَن هو، يكرر المنادى النداء، إنه شدوان، يقف عمر مقتربًا في خفة حتى يتأكد من صاحب الصوت، بهمس يسأل :

- شدوان؟!

- أي نعم.. صاحى؟

يفتح عمر باب الاستراحة مندهشًا من تلك الزيارة التي تأتي بعد انتصاف الليل بقليل، ثم إن شدوان يهمس وكأنه يخشى أن يسمع أحد صوته، يرتبك عمر لحظات عندما يداخله الشك في تلك الزيارة، لم يجد بداخله الراحة التامة ناحية هؤلاء القوم، لكنه يبذل مجهودا مضاعفًا للحفاظ على أعصابه لئلا تُفلِتُ منه كلمةٌ أو تعبيرٌ ما يفضح داخله، يشير إلى شِدوان بالدخول ثم يغلق الباب، بالفعل يلاحظ خطوات شدوان الخفيفة ونظراته إلى الخارج بحثًا عن أحد يراقبه، يرسل المهندس عمر نظراته إلى الخارج عبر زجاج النافذة بعد أن يزيح ستارتها قليلًا، يطمئن فيعود بنظرات، حاول أن يجعلها هادئة، إلى شدوان ليسأله وهو يجلس قبالته:

- خير يا شدوان؟!

- كان لازم أكلمك عن الشيطان «فراج»، انتظرت لما تأكدت إنه نفى هو ورجاله.

- تكلم يا شدوان.





بشكل لا إرادى ينظر شدوان نحو الخارج فيشير له المهندس عمر بالجلوس ليفصح عما بداخله، بالفعل يجلس شدوان ثم يقترب برأسه ثم يقول:

- فراج يا باشمهندس..

يهز عمر رأسه مستفهمًا، يكمل شدوان وقد ظهر عليه الخوف الشديد بشكل أثار داخل المهندس عمر كثيرًا:

- ناصور..

- الكلب؟

- لأ.. الساحر؟ الكل يعلم أن فراج تربى على يده.

- تربى على يده؟! في السحر؟!

- صُح..

- فراج له في السحر والشعوذة؟

بالرغم مما يبدو على ملامح «شدوان» من جمود وقوة وصلابة، إلا أنه بدا في تلك اللحظات مثل طفل صغير خائف، بل يكاد يرتعد، مما جعل المهندس «عمر» يربت على كتفه ليطمئنه قليلًا، ثم يحمل إليه كوب ماء، يتناوله منه ليضعه جانبًا بدون أن يقربه من فمه بالرغم من جفاف حلقه، يكمل قائلًا:

- له في السحر؟! مخاوى عفاريت ياما يا باشمهندس.. كل البلد تعمل له ألف حساب.





ينفض المهندس عمر رأسه ليُسقط تلك المخاوف التي تسرَّبتْ إليه، يقف ليتناول بعض ثمار الموز من أحد الجوانب، يناول شدوان إحداها محاولاً التخفيف عنه وهو يقول:

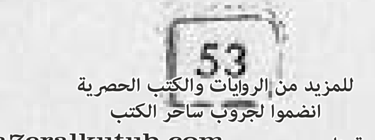
- يا عم شدوان.. العفاريت..

يقاطعه بصرخة مكتومة:

- جان حقيقى يا باشمهندس.. الموضوع أكبر مما تتخيل. ناصور دا هو اسم الجان اللى مرافقة فراج.

ما أن ينتهي «شدوان» من جملته الأخيرة، وقبل أن يتفوه المهندس عمر بكلمة واحدة حتى تنطلق صرخة مدوية وتنطفئ اللمبة الشاحبة التي تنير المكان ويحل الصمت والظلام.

***





(5)

ليلى

تعود ليلى إلى الوجود لتجدَ نفسها مُمددَةً على أحد الأسرة في مستشفي خاص، إلى جوار السرير، صديقتها مايسة بدر الدين، يبدو أنها هنا منذ فترة طويلة، لقد ذهبت مايسة في غفوة فوق مقعدها، تألمت ليلى وهي تحاول الجلوس فوق السرير، أيقظ صوتُ تأوهِها مايسه، بابتسامة مرهقة نظرت نحوها وهي تقف وتحتوى يدها بين راحتيها، بهدوء تقول:

- ليلى.. حبيبتي.. حمد لله على سلامتك.

- مايسة؟!

تنظر يمينًا ويسارًا مستفسرة عن المكان، تجيبها مايسه:

- مستشفي خاص يا ليلى أصحابها معرفة بابا.

- مستشفي؟! ماما.. بابا.. لأ..

فجأة تنتفض ليلى صارخة عندما تتذكر كل ما حدث في لحظة واحدة، مر على الحادث أسبوع كامل، فقدت فيه الوعى، كلما عادت





إلى الوجود لا تعي شيئًا، كانت على حال هيستيرى يصعب وصفه، هي نفسها لم تكن تمتلك عقلًا يدرك أي شيء، يتم حقنها بالمخدر لتغيب عن الوعي مرة أخرى.

في هذه اللحظات يعلو صراخها حتى يصل إلى خارج الغرفة، بسرعة يدخل طبيب وخلفه ممرضتان بدا عليهم أنهم مروا بنفس الطقس أكثر من مرة، وجدوا مايسة تحتضن ليلى وتحاول تهدئتها.

ليلى تبكي بشكل جنوني، شعرها مهوش يتناثر في كل مكان يستطيع الوصول إليه، دموعها منهمرة كما المطر من عيون حمراء كما الدم، تصرخ منادية والديها، أين هما وكيف تركاها في لحظة واحدة !!

بصعوبة بالغة يسيطر الطبيب على ليلى ويحقنها بمخدر شديد المفعول، يُمسك كل منهم بأحد أجزائها حتى تتلاشى قوتها وتهدأ تدريجيًا، قبل أن تغيب مرة أخرى تحتويها مايسة وتهمس:

- ليلى.. توفيَّ والداكِ وهذا قضاءُ الله.. يجب أن تهدأي وإلا فقدناكِ يا حبيبتي.

هذا آخر ما استمعت إليه ليلى قبل أن تغمض عينيها تمامًا تاركة المكان، لكن الكلمات لم تغادر عقلها. داخلها يتمزق ولولا شعورها بالشلل التام لمزقت داخلها بأظفارها.. فقدت والديها في ساعة، الأب مقتولًا، قُطع رأسه عن جسدة وألقى به في مدخل البناية والدماء تسيل منه ساخنة، والأم ماتت محروقة تمزقها حسرتها على زوجها المقتول قبل أن تعرف سبب قتله، كيف الحياة بعدهما؟ يظل ذلك السؤال يتردد صداه في داخلها. دارت بها الدنيا أكثر وأكثر، يعم ظلام شديد، تحاول



أغمضت عينيها، ثقيلان جفناها، سقطت في دوامة سحيقة، ليست دوامةً في نهر من ماء، إنما دوامةٌ في نهر دماء، تجرها لأسفل وأسفل، كل شيء بلون الدم، حتى اليد التي تمتد لتنقذها كانت يدًا ذات عروق شفافة تشاهد الدماء تمر عبرها. تشاهد حيوانًا مفترسًا يمزق فريسته وفمه ملطخ بالدماء التي تقطر على جانبيه، يَصُمُّ أذنيها عُواءُ ذِئاب لا تراهم، مفزوعة تنكمش حتى تتكور، يقترب صوت كلاب تنبح بشراسة، كلاب سوداء تقترب وتقترب، تفر من أمامها قطعان من قطط هاربة مذعورة، لسرعتها لا تستطيع ليلى الفرار من أمامهم، يطئونها بأقدامهم، يغرسون أظفارهم في خلايا وجهها، تسيل الدماء، يغطي وجهها وتنعدم الرؤية تمامًا، تلتصق خصلات شعرها الأسود الفاحم بخديها، تحاول إزاحتها فلا تستطيع، الدماء غزيرة والآلام رهيبة، تستسلم تمامًا تاركة الوجود.

لم تعلم ليلى بطبيعة الحال كم مر من الوقت عليها وهي في غيبوبتها الأخيرة، لكن ما إن عادت إلى الوجود حتى رَأَتْ إلى جوارها مايسة وقد ارتدت ملابس أخرى غير تلك التي كانت عليها في المرة السابقة. تأملها مايسة وعلى وجهها ابتسامة ممزوجة بالحزن والألم، تميل نحوها في رفق الشقيقة التي حلت محل الأم، تحتضنها، بعد لحظات من بكاء مشترك تمتزج فيه دموعهما تحاول ليلى التماسك وإظهار التجلد، لكن قوتها خانتها فخارت وانهمرت الدموع من جديد، لكنها هذه المرة لم تسقط في بئر اللاوعي، استمرت على حالة اليقظة التامة، نعم هي متأثرة إلى أقصى درجة يمكن أن يتخيلها عقل بشرى، فليس من السهل على فتاة وحيدة في عمرها، أن تفقد والديها في لحظة





واحدة، وليس الفقد فقدًا جراء وفاة طبيعية أو حتى حادث طريق، إنما هي جريمة قتل وجريمة حرق، والجريمة لابد لها من مدبر وفاعل.

لم تفقد وعيها لكنها لم تجد بداخلها قدرة على التفكير، كانت مثل كتلة صماء، تنظر إلى الشيء ساهمة شاردة.

لم تُفصح مايسه عن قلقها الذي نما بداخلها مثل جبل منذ أن أخبرها الطبيب بخطورة الموقف، ليلى من الممكن أن تُقْدم على الانتحار في أي لحظة، لذا يجب عليها وهي صديقتها الأثيرة أن تُهدئ من روعها وأن تبقى إلى جوارها أطول فترة ممكنة. الحقيقة أن مايسة لم تكن تلك الفتاة الثرية المدللة، إنما كانت تمتلك قدرًا من الثقافة وذاك أحد أهم الأسباب التي عَمَّقت صداقَتهُمَا، لقد قررت أن تحاول بشتى الطرق إعادة صديقتها إلى الحياة، أن تزرع بداخلها أمل يربطها بالحياة بدلًا من سيطرة رغبتها في الانتحار التي قد تجبرها على اتخاذ تلك الخطوة في لحظة ما.

تتحدث معها في أمور مختلفة، تفعل كل ما تملك من حركات كي تثير فضول ليلى، بعد طول حديث تهدأ مايسه وتقترب منها كثيرًا وعلى ملامحها جدية تدل على ما يعتمل بداخلها من انفعال حقيقي، تقول:

- في تلك الأيام التي جلستُ معكِ فيها يا حبيبتي، كنتُ أُمضّي وقتي في القراءة (تسحب كتابًا من فوق منضدة صغيرة بجوار السرير) قرأتُ هذا الكتاب.



تنظر ليلى على الرغم منها ناحية الكتاب، كتاب صغير غلافه بُني مع دوامات صفراء، تقرأ عنوانه بعينيها The Secret ، تعيد ليلى نظراتها إلى الفراغ، تبتسم مايسة وهي تعيد الكتاب إلى مكانه وتُكمل حديثها:

- طبعًا لا أطلب منكِ قراءته الآن، لكنى أود أن أخبرك بما فيه، The Secret يعنى السر، سر يكمن فينا يا ليلى، يجعلنا نحقق كل ما نريده مهما كان، هذا السر الذي يشرحه هذا الكتاب هو سر الحياة الذي أدركه عظماء التاريخ، فكان إدراكهم هو سر عظمتهم، منهم أفلاطون، شكسبير، نيوتن،ابن سينا، بيتهوفن، الحسن بن الهيثم، اينشتاين، البيرونى وغيرهم كل مَن يحقق طموحاته وإن لم يدرك أنه يسلك نفس طرقهم، السر يكمن في قانون الجذب، الإيمان بتحقيق الهدف، هذا الإيمان الحقيقى يجذب النجاح، يجذب أي شيء : السعادة، الصحة، الثروة.

تصمت لحظة تحتوى فيها راحة صديقتها، تحتويها بحنان حقيقى، تقول:

- لابد أن يكون لكِ هدف حقيقى في الأيام القادمة، وتمتلكى إيمانًا حقيقيًا بتحقيقه يا ليلى.

تلتفت نحوها ليلى بصمت رهيب، لكن نظرتها حملت تساؤلًا ما، أضافت مايسه بسمتها وهي تقول:

- ليلى.. يجب أن تعلمى.. لماذا قُتل والدكِ؟ ومَن قاتله..؟! لقد بات الثأر ثأران.. لابد من معرفة قاتل والديكِ، نعم لقد قتلت طنط سعاد أيضا..





وكأن ريحًا عاتيةً هبّتْ فجأة، حملت ليلى لتتقاذفها على صفحاتها، يصمُّ أذنيها صريخُها، تذكرت والديها القتيلان، تصرخ وتصرخ، تستدعي مايسه الطبيب والممرضات، يمارسون نفس السلوك، تهدأ ليلى، يتخدر جسدها، تتأملهم قبل أن يتلاشوا، في أعماقها قناعة بما قالته مايسه، لكن كيف يتاح لها تحقيق ذلك؟ والسؤال الأهم، والذي حاولت أن تصرخ به ولكن لسانها خانها فلم يتحرك، كان عبارة عن كلمة واحدة : لماذا؟!

بعد ساعات تعود ليلى، تتأمل المكان، تشعر بأنفاسها منتظمة، للمرة الأولى منذ الحادث تجد ليلى خيوط فكرها واضحة منتظمة، هدأت واعتدلت جالسة على سريرها، وقفت مايسة سعيدة مما لاحظته على ملامحها من تغيير، تطلب كوب ماء، تناولته على مهل وهي شاردة، لا تكاد تستمع إلى كلمات مايسة التي تحاول تهدئتها بها وتقرأ على مسامعها مقاطع من ذلك الكتاب. حتى إنها لم تتفاعل مع الممرضة أو الطبيب الذي أتى بعد لحظات وقدأظهروا سعادتهم بعودتها وعدم سقوطها في تلك الحالة الهيستيرية مرة أخرى، كانت شاردة تمامًا، تفكر في ذلك الهدف الذي يجب أن تحيا من أجله.

بعد مرور فترة من الوقت تناولت فيها ليلى بعض الأطعمة الخفيفة مع الزبادى والعصائر الطبيعية، وكانت قد رفضتها في البداية، لكن مع إلحاح مايسة وإصرار الممرضة بأنها تعليمات الطبيب حتى تسترد بعض قوتها التي فقدتها خلال الأيام السابقة، تستجيب لهم.

بالفعل تشعر ليلى بالدماء تجرى في عروقها، بل وساعدها ذلك على التركيز أكثر وهذا ما كانت في أشد الاحتياج إليه. الطبيب أبدى





ارتياحًا لذلك التطور، شدَّ على يد مايسه مهنئًا أمام الغرفة وهو يتناول منها كتابه The Secret، تعود مايسه لتحضن صديقتها مؤكدة لها أن الطبيب سوف يقرر خروجها من المستشفي خلال أيام قليلة لو استمرت على نفس الحال من الاستجابة. طلبتْ ليلى، مع ابتسامة رقيقة ممتنة، من مايسه أن تغادر، فقد بدا عليها الارهاق من سهرها بها ورعايتها لها طوال تلك المدة التي لا تعلم كم هي على وجه التحديد. ترفض مايسة المغادرة بل وترفض مناقشة الفكرة. في اليوم التالى وبعد إلحاح توافق مايسة بعد أن وعدتها ليلى بأنها ستكون على قدر المسئولية وسوف تستعين بقراءة القرآن كى تظل هادئة.

الحقيقة أن ليلى قد قررت بالفعل أن تقرأ القرآن كاملًا خلال الأيام التالية وتهب أجر قراءته لوالديها لعل الله أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأكدت لها مايسة ذلك وذكرتها بحديث الرسول الكريم حينما قال: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. فوالديها الآن في أمس الحاجة إلى الولد الصالح الذي يدعو لهما.

تخرج مايسة وتنصرف الممرضة، تبقى ليلى وحيدة في غرفتها، تتأمل، شاردة، الفراغ من حولها، عقلها لا يرى شيئًا غير صورة رأس والدها المقطوع غارقًا في الدماء وصورة أمها كتلة من النيران بين الأفق المظلم، لولا سكينة نزلت عليها لذهب عقلها ولهامت على وجهها في الطرقات تسب هذا وتلعن ذاك تاركة شعرها منفوشًا كمن صعقه تيار كهربائى، مرتدية ثيابًا ممزقة، وما أكثر ما نرى هذه النوعية الضالة





في شوارعنا ولا نعلم أي قصص مفزعة كانت خلف هذه الحالات، لابد أن أيًا من تلك الحالات قد مر بأفظع الأحداث، لكننا لا نهتم، بل ونتعامل معهم من عَلٍ متأففين منهم ومن أفعالهم.

تلك الصورة الأخيرة ما شغلت حيزًا كبير من عقل ليلى في تلك اللحظات وهي تتخيّل نفسها وقد هامت على وجهها تتقاذفها الأيدى وتتبعها النظرات المشمئزة المتقززة من صورتها. تقرر أن تتماسك، فلا يجب أن تصل إلى هذه الدرجة مهما كانت الظروف، ثم إن هناك أمرًا آخر عليها التماسك من أجله، إنه ثأرها.

نعم ثأرها.. لابدلها من الانتقام من قاتل والديها، تضغط على أسنانها بشدة حتى تسمع صريرهما، إنها لا تعلم عن القاتل شيئًا البتة، تلك هي مهمتها في الأيام القادمة.

شردت في أكثر من اتجاه، بحثت عن أي سبب، غاصت في أعماق الماضى تبحث عن علاقات والدها وهل كان يعادى أحدًا؟! لم تصل إلى أي نتيجة.. بعد ساعات من البحث ومحاولة التركيز استقرت على رأي واحد فقط، المتغير الوحيد في حياتهم المستقرة كانت مأمورية العمل التي سافر إليها والدها مؤخرًا، لابد أن أحداثًا ما قد وقعت هناك، قتل على إثرها والدها.

بهدوء شديد تقرر ليلى أن تخرج من المستشفي وتتوجه إلى الشركة التي كان يعمل فيها والدها ومنها تحصل على تفاصيل تلك المأمورية الأخيرة.

***





(6)

عمر

نعم.. ناصور اسم جنى، وهو من أقذر الشياطين وأقواهم على الإطلاق، بل ويخشاه أغلب السحرة لأن بطشه شديد على مَن يتوكل به من طريق السحر.

تلك هي المعلومات التي حصلتُ عليها عند بحثى عن معنى كلمة ناصور بعدما حدثنى عنه شدوان وتركنى مفزوعًا بعد انقطاع التيار الكهربائى، فقد تملكته رعشة ولم يتفوه إلا بكلمات مبهمة فهمت منها أن ما يحدث الآن هو من عمل الجان ولابد أن فراج قد أرسلهم خلفه وسوف ينتقمون منه. فزع شدوان انتقل لى بالعدوى، ثَقُل لسانى وظهرت رعدة خفيفة على أطراف أصابعى وأنا أبحث عن شمعة تنير ظلام الاستراحة المقيت، ابتسمت ساخرًا مما يحدث، لستُ ممن يخشون مثل تلك الخرافات، وكى أطمئن داخلى بحثتُ عن تلك المعلومات وحصلتُ على تلك النتيجة،ناصور من أقذر الشياطين، وفراج يتعامل معه !!





يبتسم عمر تلك الابتسامة التي نرسمها على وجوهنا كي نؤكد لأنفسنا أولًا أننا طبيعيين ولا نخشى شيئًا، لكنه وفي لحظة صدق مع الذات أقر بأنه خشي الظلام الحالك الذي لف المكان، وخشي الصمت الرهيب الذي صمّ آذانه، وتأكد من ارتباكه الداخلي لحظة كشفه لحقيقة رغبته في السهر بجوار الشمعة المضاءة ورفضه الاستسلام للنوم بعد هذا اليوم الطويل، وبعد تلك الأحداث الغريبة التي مر بها في يومه الأول.

لم يشعر بنفسه إلا مع أشعة الصباح الأولى التي تخللت عبر زجاج النافذة، ألفي بقايا الشمعة وقد ذابت فوق حواف منفضة السجائر، وقف يتمطى وقد شعر بآلام رهيبة في ظهره من أثر نومه جالسًا فوق المقعد طوال الليل.

بعد أن ينتهي من الطقوس الصباحية المعتادة يرتدي ملابسه ويحمل رسوماته وينتقل إلى موقع العمل.

مؤكد أن نظرته إلى «فراج» اليوم هي نظرة مختلفة عن نظرة الأمس، لكنه يجب ألا يُظهر ذلك خلال تعامله معه، فمن المفترض أنه لا يعلم شيئًا مما يثار حول فراج، ثم إن كان ما قاله شدوان عن فراج حقيقة فهذا أمر يخص فراج وحده ولا علاقة له به، ما بينهما عمل، ولا داعي أبدًا للخوض في تلك الخزعبلات، وأخيرًا هناك احتمال كذب شدوان لأي غرض في نفسه، وعلى عمر ألا يتخذ جانب أحدهم بدون بينة.

حينما وصل إلى موقع العمل وتحدث مع الريس فراج في أكثر من شأن، لحظتها أدرك أن «فراج» ليس بالشخص المعتدل وأن هناك بعض المتاعب سوف تنشأ إن هو تركه يفعل ما يريد، تدريجيًا بدأ يقتنع

يقل ما قاله شدوان عنه، فقد كان فراج يتحدث ويتحرك بثقة كبرى لا تتناسب أبدًا مع مجرد عامل أو حتى رئيس عمال.

في البداية لاحظ أن حديد التسليح الموجود في أسقف عدد من العمارات أقل من النِصاب الهندسي المشار إليه في الرسم المعتمد من الشركة ومن تعليمات وزارة الإسكان، هنا غضب عمر غضبًا شديدًا لكنه قرر ألا يفصح عما يعتمل بداخله حتى يكمل جولته في الموقع، يمر وخلفه فراج وعدد من العمال على إحدى العمارات في مرحلة التشطيبات، يلاحظ استخدام العمال لأنواع رديئة من المواد بالإضافة إلى مستوى سيئ من العمل، هو أمر بالفعل منتشر في الأعمال الحكومية ولكن ليس بهذا السوء وليس مع المهندس «عمر» الذي يرفض باستمرار أن تكون الأعمال المسندة إليه ذات مستوى رديئ.

بعد جولة استمرت ساعة تقريبًا، يستطيع عمر التعرف على أكبر قدر من الأعمال الرديئة في الموقع، يعود إلى مكتبه بعد أن يشير إلى الريس فراج بأن يلحق به. تعمد أن يناديه بالريس فراج فلا يترك له أي مجال لوصل الود بينهما.

المكتب يختلف عن الاستراحة، فهو عبارة عن مبنى من الخشب والألوميتال يحتوي على حجرتين وحمام صغير، ينتشر فيه عدد من النوافذ الزجاجية التي تتيح للمشرف على الموقع متابعة سير العمل، وهو مأوى لكل العاملين في الموقع وفيه يتم عمل الاجتماعات والمستخلصات وغير ذلك من أعمال. أمام المكتب كان الخفير



«شدوان» قد قسم المكان إلى حوضين صغيرين زرع في أحدهما شجيرات النعناع وفي الآخر نبات الجرجير.

بعد دقائق يصل فراج إلى المكتب وخلفه ظله المتجسد في شكل الكلب ناصور، يشير عمر، وهو يكظم غيظه، نحو الكلب قائلًا:

- أخرج هذا الكلب؟!

- حاضر يا باشمهندس.. لا تحزن يا خال..

ثم يشير إلى الكلب علامة الخروج مهمهمًا بكلمات بنفس المعنى، يتحرك الكلب كما المجبر ليترك المكان، وكأنه يدرك أن الأمر ليس على هوى صاحبه يتوقف بعد خطوات ناظرًا نحو صاحبة ليتأكد من صحة قراره بأن ينتظره في الخارج، يؤكد «فراج» ذلك بإيماءة من رأسه فيخرج ناصور. بينما تتزايد دهشة عمر من ذلك التفاهم بينهم وكأن ناصور هذا رجل رشيد.

يستعصى الأمر على عمر، لم يتعرض لموقف مثل هذا من قبل، لكن الجهل بالأمر يعفي من ذلك الشقاء المتعلق به، فيمط شفتيه مستسلمًا ثم يجلس خلف مكتبه ويُرخي قبضة يده التي كانت ممسكة بقوة على لا شيء منذ دقائق، يشعر بأن ذلك الطنين الذي كان يدق أذنيه قد هدأ هو الآخر، يتذكر كل كلمة قالها شدوان عن فراج وعن الجِنى ناصور الشرس وعن علاقة فراج بالجان، ولم ينسى بطبيعة الحال ذلك الكلب الشيطانى القابع خارج المكتب. يملأ صدره بالهواء ثم يزفر تدريجيًا، يبدأ في الحديث عما لاحظه من تقصير في الأعمال ونقص في المواد المستخدمة بشكل يؤثر على سلامة البناء، ثم يقف معلنًا في حزم رفض



استكمال أية أعمـال إلا بعد إضافة كميات الحديد "المسـروقة" وأكد على هذه الكلمة بشـكل جعل " فراج " يخرج عن ثباته ويهزى بالكثير من الكلمات، مما جعل «عمر» يخبط براحة يده على المكتب صارخًا :

- كلامى نهائى.. لن تتم أي أعمال إلا بعد استكمال النواقص.

هنـا يفقـد «فراج» أعصابه بشـكل كامل ويعلو صوتـه، فيزمجر كلبه ناصور في الخارج، لكن زمجرته تتوه مع انفعال «فراج» وهو يقول:

- نصيحتى لك.. إسمع الكلام وما تكون عنيد مثل غيرك.

يخيـم الصمت على المكان بعـد هذه الجملة الأخيـرة التي أطلقها «فراج». يقف «عمر» ويقتـرب منه متأملًا مدققًا النظـر لحظات يرتبك على إثرها «فـراج» ، فقد أيقن، لكن بعد فـوات الأوان، أن جملته هذه دليل ضده على أن وفاة المهندس «يوسـف قـدرى» كانت جريمة قتل مدبرة وليست حادث سقوط عادى.

هنـا يسـتدير «فـراج» ليخرج مـن المكتب وقـد اتخذ قـرارًا لم ولن يفصح عنه لأحد، لكنه في هذه اللحظة يتوقف في مكانه ويدير رأسه من فوق جسده بشكل غريب وقد رسم على وجهه ابتسامة باهتة وهو يقول:

- حاضر يا باشمهندس.. سأفعل كل ما تريده.. أنت مدير المشروع والكلمه كلمتك.

ثم يخرج جاذبًا خلفه باب حجرة المكتب بعنف، يتناهي إلى سـمع المهندس «عمر» صوت فراج وهو ينادى على كلبه ناصور ليتبعه، يهدأ قليلًا، يتحرك ليعد كوب شـاى عن طريق غلاى كهربائى، مصممًا على أن يتحرك بشـكل طبيعـى وأن يمارس سـلطاته كمهندس مسـئول، إنه





ليس في ندية مع فراج، هو فقط يأمر وعلى فراج الطاعة، قبل أن يغوص في بحر أفكاره أخذته حميته وما صارت إليه الأمور، فينظر من النافذة متحدثًا إلى فراج الذي لم يكن قد ابتعد كثيرا :

- حالًا يا فراج.. يتم المطلوب حالًا.

يهز فراج رأسه علامة الموافقة، لكن تعبيرات وجهه لم تكن واضحة لعمر عبر هذه المسافة التي تخطت الخمسين مترًا. يلتفت عمر فإذا به ينتفض لحظة رؤيته لذلك الجسد الواقف أمامه، شدوان في منتصف المكان صامتًا وقد غرق في ملابسه الفضفاضة. يزدرد عمر لعابه عبر صحراء فمه المقفرة، المكان هنا، الناس هنا، تركه لأسرته، كل شيء يتحرك ضده، ليست رحلة عمل كما قيل له في الشركة، هي مأمورية أقرب إلى العقوبة، حتى شدوان الذي شعر نحوه بشيء من الراحة له نظرات غريبة، غامضة مرعبة أحيانًا.

يشير له بالجلوس ويسأله وهو يعد الشاي عن سبب يقظته الآن، إنه يعلم أن خفراء المواقع ينامون نهارًا ويستيقظون ليلًا، بعد فترة صمت طالت يجيبه شدوان بأن النوم قد جافاه، إنه يشعر بحالة من الارتباك والتوتر منذ الأمس، أو بالأحرى يشعر بانقباض رهيب لا يعلم سببه. يخفف عنه عمر ويخبره بأن الأمور تسير على ما يرام، وها هو قد شاهده وهو يأمر فراج بالالتزام بالمعايير الهندسية، إنه لن يسمح بأي سرقات تتم في هذا الموقع طالما كان موجودًا. يتأمل شدوان الجملة الأخيرة بدون أن ينبس بكلمة " طالما كان موجودًا" يرتبك أكثر، يخشى الإفصاح، يترك المكان متأثرًا، يتركه «عمر» يرحل،





ولا سيتغير شدوان مع اعتدال الأمور، يتحدث عمر بذلك إلى نفسه يطمئنها بأن الأمور تسير بشكل طبيعي في هذا المكان.

بعد دقائق يعود فراج هاشًا باشًا، وخلفه أحد العمال، وأمام المهندس عمر يطلب فراج من عامله، الذي كان يقف وعلى ملامحه علامة غريبة، أن يأتي بالحديد ويسير وفقًا لما هو مدون على الرسم الهندسي، يندهش العامل وهو ينصت إلى تعليمات رئيسه، ثم يتأمل المهندس «عمر» لحظات قبل أن ينطلق لينفذ المطلوب.

يخبره فراج بأنه لن ينتهي اليوم حتى يكون العمل على أكمل وجه، ثم يعاود الابتسام محاولًا تهدئة الأمور، يقترب ليضع يده على كتف المهندس عمر بشكل ودود، بينما تعتلي الدهشة وجه عمر، يطلب منه فراج أن يرافقه ليتناول معه طعام الغذاء، فهو ضيف عليهم في الصعيد قبل أن يكون مهندسًا مسئولًا عن الموقع، لكن «عمر» يرفض، معللًا بأن لديه بعض الأعمال يجب أن يقوم بها، وسوف يعود الآن إلى الاستراحة، يبتعد نصف خطوة ليسحب كتفه من تحت يد فراج وهو ينظر نحوها باشمئزاز، العلاقة بينهم ليست حميمية لدرجة أن يضع يده على كتفه كما الأصدقاء، قبل أن يترك المكان بشكل تام يلتفت نحو فراج ويأمره ألا يقوم بأي أعمال خرسانية إلا في وجوده، يجب أن يشاهد حديد التسليح قبل أن يختفي في المادة الخرسانية ويجب أن يكون موجودًا لمتابعة نسبة الأسمنت المضاف وتلك هي المواد التي تحتمل الغش باستمرار في أعمال الإنشاءات الأولى.







(7)

فـــــراج

يقف «فراج» جامدًا في مكانه كما تمثال فرعوني، يشرد بنظره بعيدًا، نحو جبل «بريرو». في الحقيقة لم يكن يرى الجبل، أمام عينيه تجسدت السباع تتقاتـل، خُلقت أمامه صـورة مصاصو دماء يتنازعون فريستهم الجديدة، الفريسـة هذه المـرة هي المهندس «عمر»، يقـف بينهم عاريًا يحاول إخفاء أسـفله، بينما ينهشون لحمه والدماء تتدفق منه شلالات، غريب أن تكون الأشكال المتجسدة هي لأجساد يعلمهم «فراج» جيدًا، منهم عدد من العمال الذين يعملون معه ومنهم أيضًا الخفير «شدوان»، أصحاب بشـرة سوداء وأسنان مدببة ناصعة البياض، تسيل من أفواههم الدماء الحمراء التي يتجلط بعضها قبل أن يصـل إلى الأرض فيلتصق مثل قطرات تسـيل على جسـد شـمعة تحترق. ينتظـر تداعى المهندس عمر في لحظات لكنـه فوجئ به يتصدى، بـل يقاوم بقـوة، يدفع بيديه رغـم الدمـاء التي تسـيل منه، لكن الوضع لم يسـتمر طويـلًا، فقد مزق أحدهـم ذراعه الأيمـن ونهش آخر جزءًا كبيرًا مـن لحم صدره، وهجم





ثالث على كتفه ورقبته يمزقها، بينما يجذبه «شدوان» من الخلف ليضع رأسه على حجرة مرتفعة عن الأرض ثم يحمل آله حادة يرفعها إلى أعلى ثم يهوى بها بقوة فوق رقبة «عمر»، يسقط الرأس ليستقر بعيدًا وقد جحظت عيناه مستقرة على «فراج» ومَن حوله وكأنها تسألهم عن سبب فعلتهم تلك.

يعود فراج إلى منزله، ذلك المنزل المقام على حدود القرية من جانبها الغربي، أقرب للصحراء منه إلى قلب القرية، الشمس قرص دامي يسقط في بئر الليل، طيور مختلفة ألوانها تحلق أسرابًا لتستقر في أوكارها قبل انطلاق أشباح الظلام المرعبة.

منزل فراج بسيط لدرجة توحي لعابر السبيل بأن صاحبة ذا فاقة، إنه لم يهتم يوما بمنزله ولا بزوجته «حميدة». جل اهتمامه منصبًا باستمرار على كلبه ناصور وغرفته السفلية التي يمضي فيها أغلب وقته. لم تنجب له حميدة أطفالًا، وهو من الأصل لم يهتم، لم يشعر يومًا برغبة حقيقية في أن يكون أبًا ويحمل أطفاله ويداعبهم. هناك أفراد رسالتهم في الحياة تنصب على ذواتهم، لا يستطيعون التخلص من عشقهم لذاتهم وإلقاء بذور جديدة لتستمر الحياة، هؤلاء هم أنصار «الأنوية» العظمى، الحياة تنتهي بموت الأنوي.. فراج كان من تلك النوعية وإن لم يدركها بشكل كامل، وإن سئل يومًا فلن يستطيع تقديم ذلك التفسير السابق لكنه سيقول أن كل كلمة قيلت هي حقيقة.

في المقابل لم تنجب حميدة لأنها لم ترغب في الإنجاب، الغريب أنها لم تأخذ أي وسيلة لمنع الحمل، ووفق تشخيص الأطباء الذين



أعجب بها إليهم فـراج، من باب التأكـد فقط من رجولتـه الكاملة، تبين التحاليل أنهما، فراج وحميدة، يستطيعون الإنجاب ولا يوجد أي سبب سوى يمنع حدوث ذلك، فقط هـو عدم تلاقى الميـاه لتنتج الأجنة، ومن الممكن أن تنجب حميـدة إذا تزوجت بآخر غير فراج وقد ينجب فراج إذا تـزوج بأخرى غير حميدة، هذا ما قالـه الأطباء، وهذا ما وجد صدرًا رحبًا لدى حميدة وفراج.

منذ فترة طويلة.. بالتحديد منذ عشر سنوات شاهد حميدة وأعجب بها، كان فتيًا حقًا، لكنه صاحب سـمعة سيئة في قريتـه، وغير ذلك هو شاب عاطل، وقتها كان أسيرًا لفكرة الثراء السريع التي تقبع على مسافة خطوات منه، أي مقبرة يسـتطيع الوصول إليها خلسة ليحمل منها قطعة أثرية ليبيعها للصوص الآثار، ظل سـنوات يبحث ويسير في ركاب هذا وذاك لكـن المحصلـة دائما كانت لصالـح الرءوس الكبيـرة، يلقون له بمبالـغ زهيدة ليضمنوا ولائه أو اتهامـه إن أرادوا لىّ ذراعه، فكان ذلك يضمـن له العيـش فقط وليس الثـراء، يوفر له متطلبات جلوسـة فترات طويلة بمقهي «الطويلة «لصاحبه عبدالفتاح الطويلة، أحد الوافدين على القرية من سنوات طويلة وعاش فيها حتى أصبح من أهلها.

وقتهـا، وبعد صفقـة تهريب أثـار فاشـلة كالعـادة، كان يجلس أمام المقهي شـبه مُمددٍ علـى ذلك الكرسـى العريض المصنـوع من جريد النخيـل، يمسـك بيـده خرطـوم «الجـوزة «يسـحب دفعات مـن دخان المعسـل الأسـود الفاحم الذي يحترق أسفل قطع النيران، كلما سحب



أنفاسًا ازدادت النيران تأججًا، حتى إن مراهنات كانت تتم بين بعضهم حول مَن يسحب أنفاسًا طويلة وقوية تشتعل على إثرها نيران الجوزة في تلك الأمسية بالذات، والتي لن ينساها فراج ما تبقى له من حياة. تمر حميده من أمامه وخلال ثانية واحدة تلاقت فيها الأعين، سُحر بها، افتتن إن أردنا الدقة، والحقيقة أنه كان معذورًا، فقد كانت حميدة في تلك اللحظات عبارة عن جسد طرى يتثنى خلف ثوب لامع يتأرجح مع اهتزازات تفاصيله، يزدرد لعابه فراج كما جائع عثر على مائدة عامرة.

لم يكن من السهل، في هذه البيئة، أن تتلاقى الأعين لتفحص وتظهر إعجابها، لكن ذلك ما حدث مع فراج، فقد بادلته تلك الحورية، التي هبطت عليه من الجنة كما قال لنفسه، نظرات الإعجاب. يميل على أحدهم ليسأله عن تلك الفتاة، يعلم أنها حميدة، تدرس في الجامعة وغير مرتبطة بشكل رسمى على حد علمه، وهي إحدى فتيات عائلة «المرازيق» وهنا كانت المشكلة التي واجهت فراج وجعلته يزداد كآبة على كآبة، يضرب المنضدة أمامه بقبضة قوية تتأرجح على إثرها الأكواب ومنفضة السجائر محدثة صوتًا يستمر لحظات حتى يتلاشى، لكن هذا الصوت يتحول إلى طنين يستمر في رأس فراج. لقد أعجب بفتاة يصعب، بل يستحيل عليه الاقتراب منها إلا بالزواج، وهو أمر لن توافق عليه عائلة المرازيق، يلعن حظه الأسود في داخله ويمتص الدخان جرعات متتالية كأنه ينتقم من ذاته بينما تستقر نظراته على قطع الفحم المشتعلة وهي تزداد احمرارًا كما داخله المشتعل.





إذ سألنا حميدة عن تلك النظرة المتأملة التي ألقتها نحو الفتى فراج لحظة مرورها أمام المقهى، لما تذكرتها إلا بعد تركيز شديد، ثم تقول باستغراب: آه.. تذكرت. بعدها تمط شفتيها وتخبرنا أنها تخيلت الجالس هو محمود، أحد شباب عائلتها، إنه يشبهه كثيرًا من بعيد،لكن محمود لم يكن من رواد المقهى ذات يوم، وهذا ما أثار دهشتها أن يكون هو، لكن ما إن تأملته حتى عرفت أنه شخص آخر غير محمود فسحبت نظراتها وانطلقت في طريقها لا تلوى على شيء، تلك كانت حميدة التي نسيت الأمر برمته، فماذا عن فراج، هل نسى الأمر؟

كلا.. لم ينم ليلته بسهوله في ذلك اليوم، فلم تفارق صورة حميده خياله، يبدو أن سحرًا ما قد أصابه، إنه سحر جمالها، الحقيقة أن حميدة تتميز بجسد ممشوق طرى واضح التفاصيل غير عيون واسعة بيضاء وكأنهما جوهرتان على بشرة خمرية، شفتان مكتنزتان، أوف.. يزفر فراج بشدة، لو هي ابنة عائلة أخرى غير عائلة المرازيق لتقدم طالبًا الارتباط بها.

يستيقظ في هذا اليوم وقد سيطرت الفتاة على تفكيره تمامًا، لقد شاهدها في ليلته على أكثر من وضع، تناول إفطاره شارد الذهن، يحاول الخلاص من الفكرة التي تبلورت وسيطرت عليه تمامًا، سوف يتقدم للزواج بها وليحدث ما يحدث، فلن يكون هناك أكثر من رفضه، وهناك احتمال ضئيل جدًا أن توافق عليه عائلة المرازيق، إنه فتى في مقتبل العمر، على مقدرة من إثبات ذاته في أي عمل إن توفر له، سوف يعدهم بالاستقرار وتكوين أسرة ويكون نعم الصهر.





ينتظر حتى تغيب الشمس، ففي الليل تهدأ النفوس غير مشغولة بأعمال النهار فيطيب الحديث عن الزواج، يرتدي أفضل ما يمتلك من ثياب، يدهن شعره المفلفل بالكريم في محاولة لفرده، يتحطر، يُلمع حذاؤه البني، ينطلق في طريقه لا يلوى على شيء.

يطلب الإذن في الدخول، يدخلونه حجرة الاستقبال حتى يأتيه الأب الذي بدا أنه كان يتناول طعامه، فقد انتشرت رائحة تحمير دجاج أو لحم مع خليط من روائح مختلفة لأطعمة أخرى، يبدو أن الأسر العريقة لا تفارقها روائح الأطعمة العريقة، كان فراج يحدث نفسه بذلك وهو ينتظر الأب، يشغل نفسه بتفحص قطع أثاث الحجرة تارة وبالصور المعلقة على الجدران تارة أخرى، يحاول أن يستجمع أفكاره المشتتة، يرتب الكلمة تلو الكلمة كي يصوغ العبارات التي سيتحدث بها بعد لحظات، يشعر بجفاف حلقه، يود لو يطلب كوب ماء، ماذا حدث له؟ إنه متوتر بعض الشيء، طبيعى أن يتوتر، لكن تلك القشعريرة التي سرت بداخله الآن ليست طبيعية، إنها تشير إلى خوفه مما سيحدث، ماذا تفعل يا فراج؟ هل جُننت؟ يفكر في الانصراف قبل أن يأتي رب المنزل، لكن فكرة الفرار لم ترق له، يبحث سريعًا عن سبب آخر لتلك الزيارة غير أمر الزواج، لكن توتره أطار أي فكرة من رأسه، الفكرة الوحيدة التي أتته كانت فكرة اقتراضه مبلغًا ما يحتاج إليه لمدة شهر، وما أتاهم إلا لسمعتهم الطيبة، لكن لا توجد علاقة سابقة تسمح له بأن يأتي ليقترض منهم المال.





قبل أن يستقر على فكرة ما ذات ملامح واضحة ومقنعة في الوقت ذاته، يدخل الرجل وكأنه أحد ملوك الجان يهبط فجأة من سقف الحجرة، رجل عريض الكتفين، طويل، جبهته عريضة يبدو فيها بوضوح الحد الفاصل بين الجزء المختفي تحت العمامة وبقية الوجه الأسود المتعرض للفحات الشمس والحياة، يرتدي جلبابًا أبيضَ فضفاضًا، ما يزال على شفتيه لمعة خفيفة من آثار طعامه الدسم.

يرحب به الرجل ولا يستطيع أن يخفي دهشته من زيارته، يتفرس ملامحه بنظرات ثاقبة جعلت كل ما كان يفكر فيه فراج يتبخر في لحظة واحدة، قبل أن يطول الصمت يسأله الرجل عن سبب زيارته معلنًا أن لا وقت لديه يمضيه في الترحاب بشخص غير مرغوب فيه من الأساس.

يتلعثم فراج قليلًا، ثم ينطلق ليلقي كل ما في جوفه وكأنه يريد أن يتخلص منه دفعة واحدة وليكن ما يكون، يستمع إليه الرجل مندهشًا في البداية مذهولًا في اللحظات التالية، بعد لحظات بدا فيها الغضب الشديد على وجه الرجل انطلقت منه الكلمات طلقات نارية لتستقر في عقل وقلب فراج، بل في كل جزء من جسده:

- كيف تجرؤ يا هذا؟! أجننت حتى تأتي الى بيتي وتطلب يد حميدة ابنتي للزواج؟!

لم يستمع فراج إلى ما قاله الرجل بعد ذلك، فقد صم أذنيه، كلمات كثيرة، تقريع وسباب وتهديد بالقتل إن علم أحد بأمر تلك الزيارة التي إن وضعت في سجل تاريخ العائلة للوثته، وسيكون الرجل رحيمًا به الى درجة لم يتخيلها ويتركه ليرحل سالمًا.





يخرج فراج يعب من الهواء في الخارج كأن الداخل كان خاويًا من الهواء، أو كان محرما عليه أن يتنفس هوائهم، كان داخله مشتعلًا، يود جرعة ماء ليطفئ بها نيرانه، يسرع الخطى كي يصل إلى مقهي الطويلة بأي شكل، لم ير أحدًا في الطرقات، لم يشاهد بيوتًا، لم يسمع صوتًا، فقط كان مشتعلًا.

يصل إلى المقهي، يحمل أول كوب ماء يقابله على مائدة آخرين، يتناوله جرعة واحدة غير مبالٍ بنظرات صاحب المنضدة التي حمل من عليها كوب الماء، ينتحي ركنًا قصيًا، يود الانفراد بذاته، ولولا خوفه لانطلق إلى الجبل معتزلًا البشر.

ماذا حدث؟! بل ماذا فعل؟! وكيف جلس بلا حراك أمام هذا الرجل وهو يكيل له الإهانة تلو الأخرى!! مِمَّ خُلق هذا الرجل المتعالى؟.. ألسنا من عجينة واحدة!! لماذا جعلته غنياً وجعلتنى فقيرًا يا رب.. يصرخ بتلك الكلمات في داخله، لا يشعر بعامل المقهي يقف أمامه يسأله، ربما، للمرة الثالثة عن مطلبه، يهز رأسه كمن يصحو على كابوس، يطلب شايًا و"حجر معسل" وقبل أن يسترسل العامل في كلماته متسائلًا عما ألم به، يكون فراج قد أدار وجهه منهيًا ذلك الحديث الجانبى، إنه الآن لا يرغب إلا في معاقبة ذاته، يود لو يُخرج نفسه الضعيفه من جسدة لِيُبرّحها ضربًا على ضعفها أمام هذا الرجل والد حميدة، آه.. يتذكر حميدة، هل ارتكب جرمًا لأنه حلم بها؟! الآن زاد تفكيره فيها بعدما مُنعت عنه، وكل ممنوع يستقر في القلب، لو أن الرجل رفضه بأسلوب حسن لما طار عقله بهذا الشكل، لما استحال



الرفض عداءً، لما اشتعل داخله وقرر الانتقام.. نعم الانتقام، لابد أن يثأر لكرامته.

الحقيقة أن فراج في تلك اللحظات كان شخصًا آخر تمامًا، حتى هو نفسه لم يتوقع يومًا أن يتحول إلى هذا الشخص، رغبة الانتقام المستعرة بداخله جعلت منه شيطانًا أكثر منه إنسانًا، لكن كيف له الانتقام من غول عائلة المرازيق هذا؟

لا يدرى لماذا ابتسم عندما وصل إلى فكرة الانتقام!!

أحيانًا يحتاج بعضهم إلى قضية جوهرية تتمحور حولها حياته، لم يكن فراج من قبل يهتم بشيء غير اللحظة وما تحمله، أما الآن فأصبح له هدف محدد وهو الانتقام من أحد أقطاب عائلة كبرى في قريته، سوف يكون حديث القرية والقرى المجاورة كلها إن هو حقق ما يريد وأتاه الرجل معتذرًا طالبًا العفو عما بدر منه، وإن كان قد أهانه في غرفة ولم يشهد أحد ما حدث، فلابد وأن يشهد الكل اعتذاره له، آه لو يأتيه منكسرًا، بنفس ملابسه التي واجهه بها وبلا عمامة ليتفحص حمرة جبهته المحددة عن وجهه الأسمر بخط واضح كأنه مشدود بقلم فحم.

لكن كيف الانتقام؟ سؤال راوده وهو يسحب أنفاسًا متلاحقة من طرف خرطوم الشيشة ثم يتبعها بدفقات الشاى غير مبالٍ بسخونته وكأنه يطفئ نيران داخله بنيران أخرى.

كيف الانتقام..؟!





لابد أن يهدأ قليلًا حتى يستطيع التركيز والامساك بطرف خيط الانتقام، يفرد ساقيه على طولهما، يتمطى قليلًا ثم يتثاءب مطلقًا صيحة طويلة، يطلب كوب شاي جديد "ثقيل حبر" ليفكر جيدًا.

بعد لحظات يعتدل على مقعده، يدق بقبضته المنضدة الخشبية مطلقًا صيحة تلفت الأنظار نحوه لكنه لا يبالي، فقد غلبته فرحته بما توصل إليه، انتقامه سيكون سلاحًا حاد النصلين، ينتقم من ذلك الرجل المتكبر سليط اللسان بأن يتزوج بابنته حميدة، ينتقم ويحقق مأربه، كيف يكون ذلك؟ هذا ما سيفكر فيه الآن.

تنبع القدرات من قلب الأمال، وتختلف السبل باختلاف المعتقدات، نمر بفعل واحد لكن ردود أفعالنا تختلف وفقًا لمعتقداتنا ومخزوننا الفكري.

يقف فراج سعيدًا منتشيًا بما توصل إليه، يترك الحساب على المائدة غير مبال بنظرات أحد وهو يهرول تاركًا المقهي، يتخذ طريقه إلى الجبل، الجبل الذي كان يفكر في هجر القرية إليه ليتحول إلى أحد أشقيائه، الآن يتوجه إليه لكن لمهمة أخرى، لقد قرر مقابلة ناصور، ذلك الرجل المخاوي، ساحر المنطقة الذي لا يشق له غبار، الحكايا لا تنقطع عن معجزاته، يقابل رواده بالجديد دائمًا، يفك السحر ويسحر المفكوك ويقلب الناس على بعضهم البعض بوسائل شيطانية. سوف يطلب منه الزواج بحميدة وبذلك ينال ما يتمنى ويكسر شوكة والدها الجبار.





يقترب من منزله المقام في حضن الجبل، بيت متهالك من أثر السيول، يتبقى منه غرفة وملحق بها حمام بالاضافة إلى بعض جدران سقط عنها السقف فأضحت أطلالًا، الصمت يعم المكان ولا أي أثر لصوت يوحي بالحياة في ذلك الوقت من الليل، ينادي "عم ناصور" فيتردد صوته بعدد طبقات الجبل القريب، يدور حول المكان ببطء باحثًا، من بعيد يأتيه عواء ذئب ثم يجيبه من الجانب الآخر ذئب يعوي بشدة وكأنهما يتنافسان على زعامة المكان، يرتبك فراج لحظات ويتسمر مكانه، هل يعود أم ينتظر ظهور الرجل، لابد أنه في مكان ما وسوف يعود عما قريب.

تهب ريح لها صفير وتحمل معها ذرات الرمال تلسع بها مَن في طريقها، يتوارى فراج خلف جدار قائم، يرفع طرف تلفيحته ليضعها على أنفه كي تقيه شر تنفس الرمال، يسند ظهره إلى الحائط رغبة في الانزلاق والجلوس حتى يقرر ما سيفعله بعد أن تهدأ تلك العاصفة... فجأة..

من جزء على بعد أمتار منه، جزء لم يتبينه في الظلام، جزء وكأنه طاقة فُتحت فجأة من قعر الجحيم، فتحة قطرها نصف متر تقريبًا تشتعل فيها نيران ألسنتها خليط بين الأزرق والأحمر، وكأنها طاقة فرن بلدي كالذي كانت تستخدمه أمه في خبز العيش الفلاحي، يرتد فزعًا وكأنه يدفع الجدار إلى الخلف، من أين أتت تلك النيران في لحظة واحدة ولم يكن لها أي أثر قبل لحظات، ثم.. ثم ما هذا الصوت؟! إنه صوت أشبه بالفحيح ينبعث من قلب تلك النيران، يتأمل بشدة.. يفرك



عينيه ليرى بوضوح، نعم.. هناك في قلب النيران المشتعلة جسد، يظهر منه ظهره ويبدو أنه يجلس القرفصاء، يشهق فراج بشدة ثم يقف ليطلق ساقيه إلى الريح تاركًا المكان، خطوة واحدة فقط يتحركها فراج متوجسًا واستعداد للهرولة، فضوله يجعله يلقي بنظرة أخيرة على ذلك الجالس في قلب النيران، نعم هو جسد شخص ما، النار حوله في كل مكان لكنها لا تمسك به، صعقه المشهد تمامًا، كيف لا تشتعل النار في هذا الجسد؟!! قبل أن يفيق من ذهوله يأتيه صوت فحيحي من أعماق الجحيم:

- مكانك يا فراج.

ينتفض، يشهق بشدة، تتسمر قدماه في الأرض، بل تغوص في الرمال، يا إلهي.. لقد انتهي زمن المعجزات.. ماذا يحدث الآن؟!!

يشعر بثقل رهيب في لسانه كما باقي جسده وعيناه مثبتتان على ذلك الجسد الظاهر من طاقة الفرن المشتعل، لحظات تمر كدهر، يستدير الجسد كما الجالس على سطح يتحرك على رولمان بلى، تظهر تفاصيل الجسد تدريجيًا، إنه ناصور، الرجل الساحر، تعلو وجهه ابتسامة صماء لا تستطيع محو لون وجهه الأصفر، يجلس في قلب النيران ولا يحترق، عيناه غائرتان مثل كهفين في صدر جبل بعيد، جبهته عريضة وفمه يحوى بقايا أسنان، سواد الفرن يلطخ جلبابه في أكثر من مكان.

ما يزال ناصور في مكانه وما يزال فراج متسمرًا تنعكس على وجهه تموجات ألسنة اللهب، يشير ناصور بيده نحو فراج علامة الاقتراب، يرتد فراج إلى الخلف عنوة وكأن جسده يأبى الاقتراب، يبتسم ناصور



ثم يشير بيديه في الهواء بعلامة ما، لا يعلم فراج معنى تلك العلامة لكنه فجأة يجد ساقيه يتحركان على الرغم منه، ينظر إلى قدميه وهما يتحركان في اتجاه الفرن المشتعل، يضغط عليهما بقوة ليمنعهما من الحركة، لا يستطيع، إنهما يتحركان ويحملانه مدفوعان بقوة خارجية، يحاول التشبث في أي شيء لكن يداه تخونانه، للمرة الأولى في حياته يشعر بقدميه مشلولتين وإن كانتا تتحركان، أما يديه فكانتا مشلولتين بالفعل بعد أن سقطتا إلى جانبيه، يتحرك خطوة تلو الأخرى حتى يشعر بنيران الفرن تلفح وجهه فتتصاعد الدماء لتعكس ألسنة اللهب.

يتأمله الرجل قليلًا ثم يمد يده اليسرى، ترتفع يد فراج اليمنى بلا إرادة منه، يمسك بها ناصور، يصرخ فراج من هول ما شعر، وكأنه أمسك بقضيب حديد ملقى في قلب النار من ساعات حتى توهج تمامًا، ينزع فراج يده ويرفعها أمام عينيه متأملًا متألمًا.

يضحك ناصور بشدة، تتردد ضحكته عبر طبقات النار والجو والجبل، ثم يخرج من النار في هدوء ليقف أمام فراج المفزوع والمأخوذ تمامًا، يمد يده ليمسك به مرة أخرى، ينتفض فراج قافزًا خلفًا، يفاجئ بأن قدميه تطيعانه، قبل أن يفيق من ذهوله يكون ناصور قد أمسك به ويجذبه خلفه ليدخلا تلك الغرفة الوحيدة المتبقية من ذلك المبنى الذي كان يومًا ما منزلًا معمورًا.

يسير خلفه بلا أي رغبة منه، لم يجد في داخله رغبة في مقاومته، وأيضا لم يجد رغبة في الانطلاق خلفه، تتساوى الأمور فيستكين تمامًا، حتى يجد نفسه في قلب الغرفة المعتمة إلا من بصيص خافت





شاحب لنجوم الليل، البادية خلف نتف السحب السوداء، يتسرب عبر النافذة الصغيرة الموجودة أعلى الجدار الغربي.

يتركه ناصور جانبًا غارقًا في ذهوله، هو الآن أقرب إلى عجينة صلصال سهلة التشكيل لم تُبث فيها الروح بعد، يتوجه ناصور إلى دولاب خشبي قديم، بُني اللون، تتناثر على جوانبه البقع الباهتة، يطلق بابه صريرًا لحظة فتحه وكأنه يتأوه تحت يد الرجل، يفيق فراج على الصوت المزعج فيتابع ما يحدث وقد جحظت عيناه لرغبة الرؤية في ذلك الظلام، تعجب: كيف يتحرك الرجل ويرى في هذا الظلام؟! يرتعد وهو يرى ناصور يلتفت خلفه وقد احمرت عيناه وكأنها اغرورقت بالدماء، لم يلحظ ما يحمله ناصور في يده.

يجلس ناصور على الأرض ويسحب منضدة صغيرة، قليلة الارتفاع، إلى جواره، يشعل عود ثقاب ويقربه بهدوء من فتيل شمعة، يعلو ضوء الشمعة لينير الغرفة ويتراقص ضوءه على جسد فراج الذي لا يزال ملتصقًا بالحائط وكأنه صورة مطبوعة عليه.

يهمهم ناصور بكلمات مبهمة وقد ثبّت عينيه على لهب الشمعة، ترتعش أطرافه، يمد يديه في الهواء كمن يستقبل جسدًا يسقط من علٍ، ينظر إلى سقف الغرفة، يعلو صوته، تختلط الكلمات بالآهات ثم بالصرخات، يصرخ ويصرخ مثل شخص يتعرض لتعذيب شديد حتى إن فراج ارتعد هو الآخر وتمنى في تلك اللحظة أن تحمله الريح وتعود به إلى القرية، في تلك اللحظة ندم على تلك الخطوة ندمًا شديدًا، لكنه مستقبلًا سيعلن عن ذاك اليوم أنه كان يوم ميلاده الحقيقي.



يسحب فراج قليلًا ناحية باب الخروج، لكن ناصور يصرخ بقوة وهو يشير نحوه بيده علامة العودة إلى مكانه، يعود فراج صاغرًا، بينما يستمر ناصور في كلماته غير المفهومة وصراخه، يقول:

- باسم القوى رب السبع طباق السفلية، العظيم في عظمته مثل....

....

...............ونصرياش وصيهلياض.. احضر يا ناصور.(*)

ثم يتوقف فجأة، يحل صمت تام يبث في قلب فراج رعبًا فوق رعبه وهو يتابع كل كلمة وكل حركة تصدر عن ناصور. لم يتمالك نفسه من هول ما يشاهد فينزلق إلى الأرض، فقد عجزت قدماهُ عن حمله، وإن لم يكن خلفه الجدار لهوى دفعة واحدة، لقد شمر ناصور عن ساعده الأيسر واستل بيمينه مدية صغيرة حادة النصل من أحد جيوبه، يضغط بهذا النصل الحاد على ساعده الأيسر فيتأوه فراج، ينظر نحوه ناصور مبتسمًا وهو يضع المدية على المنضدة بجواره ثم يضغط ساعده لتسيل قطرات الدم القاتمة، يميل بجسده ليسحب طبقًا من أحد الجوانب ليترك الدماء تسقط فيه، يتأمل فراج على هدى ضوء الشمعة المهتز من أثر أنفاس ناصور المبهورة بعد الصراخ الشديد، يلحظ وجود مادة من مسحوق أسود به كرات صغيرة لونها أحمر قاتم لتضيع معالمها في ذلك الخليط الشيطاني. يعاود ناصور صراخه ورفع يديه إلى أعلى ولا تزال الدماء تقطر من ساعده.

(*) لقد تم الاستعاضة عن الكلمات الحقيقية لتعويذة التحضير بالنقاط حتى لا يتم استخدامها.





يتابع فراج ما يحدث مشدوهًا، لم يتخيل أبدًا أن يأتي يوم يمر فيه بأحداث كتلك التي يمر بها الآن، أقصى درجات خياله لم تكن لتفلح في توقع الخطوة المنتظرة من ناصور، لذا جلس صامتًا فاغرًا فاهه، لكنه ارتعد وغاص في الجدار من خلفه حينما أطلق ناصور صرخة جنونية أتبعها بكلمة «أهلًا حبيبي». ينظر فراج مفزوعًا ناحية باب الغرفة ثم في كل مكان ليشاهد مَن يخاطبه ناصور، لكن لا أحد غيرهم، يرقب ناصور فيجده لا تزال نظراته مثبتة في نقطة ما بسقف الحجرة، وفجأة وكأن ريحًا عاتية هبت في الحجرة فقد أطلقت صفيرها وأثارت ذرات الرمال المتناثرة في كل مكان.

عجيب ما يحدث، لقد حركت الريح ثوب فراج من مكانه وغمرت عينيه الرمال فأغمضها رغمًا عنه، وعندما فتحهما مرة أخرى كاد يفارق الوعي إلى عالم لا يعلم عنه شيئًا، لكن رغبة أخيرة في المعرفة جعلته يتشبث بمعالم المكان، أمام ناصور خلق من العدم جسد عملاق يحتل معظم المساحة، جسد أسود كثيف الشعر تنبعث منه حرارة تكاد تحرق كل شيء حولها، لحظات الصمت طالت حتى أشار ناصور ناحية فراج متسائلًا:

- عندنا ضيف وله مطالب يا ناصور الأكبر.

يلتفت رأس ذلك الجسد الضخم بهدوء شديد إلى تلك الناحية التي أشار إليها الرجل، ناحية فراج، ويا لهول ما شاهد فراج.. وجه أسود.. عينان تنزفان دمًا بلا قطرات، أسنان سوداء بينهما لسان مشقوق و.. ويفقد فراج وعيه تمامًا.

***



(8)

ليلى

لقد حدثت أمور ما في صعيد مصر، بالتحديد في مقر عمل والدى في أثناء تلك المأمورية المشئومة، كان من آثرها أن عاد والدى منها على دفعات، فقد وصلنا الرأس أولًا ثم عثروا على جسده ملقى في عمق الصحراء، عثروا عليه متعفنًا بعد أيام من البحث. استمرت التحقيقات عدة أيام في مقر الشركة في القاهرة وفي موقع العمل في الصعيد، يتم حفظ التحقيق وتوجيه الاتهام إلى ذلك المجهول الذي من المفترض أن تصل مدة عقوبته إلى آلاف السنين لكنه لم ينفذ منها يومًا واحدًا.

علمت ليلى ذلك بعد عودتها من المستشفي، أيام قليلة تسترجع فيها قوتها التي كادت تفقدها تمامًا لتلحق بوالديها، لكن يوم مغادرتها لهذا العالم الكئيب لم يأتي بعد، عليها أن تتقبل الحياة وتسايرها حتى تغادرها إلى عالم لا رجعة منه.



هناك في حياتنا أمور من الممكن معالجتها وإن كانت صعبة، وهناك أمور أخرى لا يجدى معها أي عقار، إنها تطبع في الذاكرة مثل نقوش على قطع صخرية من الجرانيت الأسود، من ذلك ما مرت به ليلى، فلن تنساه ما عاشت ولن تغفر لهذا العالم مهما قدم لها من تنازلات مستقبلًا، تغير لون الصفاء الأبيض الذي كان يملأ داخل ليلى إلى لون أسود، إلى ظلام دائم، إلى كآبة، تشعر بنقمة نحو الجميع، ومَن لا علاقة له بما حدث لها أصبحت تنظر نحوه بريبة، قد يكون مشاركًا بأي شكل فيما حدث، وإن شارك بصمته فقد شارك.

كيف ستعيش.. وكيف ستتعامل مع البشر؟!

تنتهي مراسم المواساة وينفض جمع الأصدقاء والأقارب من الدرجة الثالثة أو الرابعة، لا إرث تركه والدها حتى يتقرب إليها أحد بسببه، شقة تعيش فيها ومعاش شهري يُصرف باسمها من الشركة مع مكافأة مادية تتقبلها ليلى على مضض بعد إصرار رئيس مجلس الإدارة محاولًا إقناعها بأنها حقها على الشركة وسوف تحتاج إليها خلال الأيام القادمة في دراستها وحتى تخرجها وحصولها على الوظيفة المناسبة، وخيرًا فعلت بقبولها تلك المكافأة، فسوف تحتاج إليها خلال الأيام القادمة، خاصة عندما تشتعل الأحداث.

أيقنت مايسة أن ليلى تغيرت وأن الحديث معها لم يعد لذيذًا كما كان، لكن واجبها الحتمى المفروض عبر صداقة دامت سنين يوجب عليها التواجد معها ومواساتها حتى الخروج بها من أزمتها، لكن هذا يتوقف على مدى رغبة ليلى نفسها في ذلك، الحقيقة أن ليلى كانت



تعامل مع المقربين منها جدا أمثال مايسه وماهر بحياد تام، لا تطلب منهما أي طلب وتتقبل أفعالهما وأحاديثهما بشرود دائم.

مايسة استمرت قرابة الشهر بعد خروج ليلى من المستشفى، تحافظ على زيارتها، تقوم لها ببعض الأعمال المنزلية، تتحدث إليها في موضوعات مختلفة، تقرأ مواد الدراسة بصوت مرتفع وتشرح لها بعض النقاط، تذهب بها إلى الحمام للاستحمام ومن ثم الخروج، كانت ليلى تطيعها بذهن شارد، جثة تتحرك فقط، تسير بها في الشوارع، في المطاعم، في المقهى المفضل لديهما.. إنها جسد بلا روح. لولا الامتحانات لتركتها في عزلتها، لكنها قاومت شعورها الفظيع بالضجر مع بقايا شفقة بداخلها جعلاها تبقى بجوارها حتى تنتهي الامتحانات، في البداية رفضت ليلى دخول الامتحان هذا العام، لكنها رضخت في النهاية أمام رغبات الأصدقاء وعلى رأسهم ماهر.

ما تعرضت له ليلى هز مشاعر الجميع في الكلية من زملاء دراسة حتى أعضاء هيئة التدريس، وهذا ما سيضمن لها النجاح هذا العام، هي ليست في احتياج مطلقًا لمصائب أخرى.

ماهر كان أكثر أصدقاء ليلى تأثرًا بما حدث، منذ ما يزيد على العام وماهر، المعيد بالكلية، يحاول التقرب منها، لقد شعر في داخله بأنها إنسانة مختلفة، وجهها البشوش، رقتها غير المحدودة، صوتها الذي يتكون من ألحان عِذاب، حتى أصابع كفيها الرقيقة تكاد تتوارى خجلًا لحظة المصافحة.

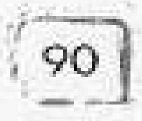


ماهر شاب مجتهد دراسيًا، يمتلك قدرات رهيبة في الحفظ، استطاع من خلال تلك المهارة أن يحتل الصدارة بشكل ضمن له التعيين كمعيد في الكلية، الدراسة تحتل مرتبة أولى في تفكيره لم ينازعها تلك المنزلة غير ليلى، بعد أن شاهدها أكثر من مرة في الـ section بدأ يتقرب لها، بداية بالنظرات ثم بتوجيه الأسئلة، بعد ذلك كان يتحين الفرص لمحادثتها في الطرقات أو في المعامل.

تشعر ليلى بميله نحوها، في البداية تنفر منه شأن أي جديد على الإنسان، لكنها بعد مضي أيام وكثير من المحادثات ترى فيه الشاب الطيب الذي تتوافر فيه العديد من الصفات التي تحلم بها، أولها حبه لها، نعم.. إنه يحبها وإن لم يفصح، تؤكد لها مايسه ذلك وتشرح لها أفعاله تجاهها، إنها أفعال المحبين. لا تقرر ليلى بشأنه قرارًا نهائيًا، فقط تترك مشاعرها الصامتة تقرر مستقبل العلاقة بينهما، حتى حدث ما حدث وتوارت ليلى عن الحياة وتمزق ماهر شاعرًا بألم عظيم من أجلها، إنه يود لو يقدم أي شيء، لو يحطم لها مَن أشقاها، لو يتفانى أو يذوب كي تعود إليها ابتسامتها وصفائها.

كانت الفترة المنقضية والامتحانات وظهور النتيجة التي حملها إليها ماهر من الكنترول مبشرًا إياها بالنجاح، كانت كافية بأن تعود ليلى إلى الحياة مرة أخرى، وإن عادت أكثر صمتًا، وشرًا، وكراهية لكل شيء حولها.

أبقت على علاقتها بماهر، سوف تحتاج إليه في الأيام القادمة، يمكنها الاعتماد عليه فيما قررته وإن لم تكن حتى اللحظة قد حددت

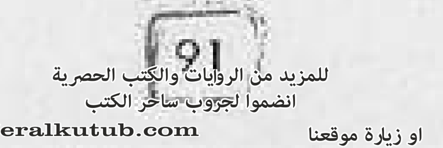




تفاصيل ومعالم ما انتوته، لكنها في حاجة إلى مَن تستند عليه، لهذا السبب وافقت على مقابلته عندما طلب اللقاء كي يعرض عليها أحد أهم الأمور في حياته.

في مكان قصي، على مركب عائم في النيل يتبع أحد نوادى القوات المسلحة، يجلس ماهر في انتظار ليلى، يتأرجح المركب مع حركة المياه أسفله، لكنها حركة انسيابية رقيقة، مظلة بيضاء تحجب عنه أشعة الشمس، يأتيه الجرسون بفنجان القهوة الدوبل، يتناولها على عجل، كان في أمس الحاجة لهذه الجرعة من مادة الكافيين لإشعال نسبة التركيز لديه، يود لو يكون مع ليلى بكل جوارحه،لقد أتى قبيل الموعد بنصف ساعة حتى يستطيع التركيز والهدوء وألفة المكان، ثم تأتى هي ويكون في أفضل حال يستطيع فيها أن يلقى بما في جعبته. يشرد قليلًا متابعًا جذع شجرة موز يطفو فوق سطح الماء متحركًا الهوينى، يهبط عليه طائر البلشون، ابن الماء، بلونه الأبيض ومنقاره الطويل، يضم جناحيه إلى جواره في رفق وينظر في خيلاء يمينًا ويسارًا، ثم يبدأ في هدوء البحث في قلب الأعشاب والرواسب المتراكمة خلف جذع شجرة الموز، لعله يبحث عن حشرة أو سمكة أو أي شيء يصلح طعامًا له، يبتعد ساق الموز حاملًا طائره ليكمل كل منهما مسيرته، يعود ماهر ليثبت عينيه على باب الدخول، فها هي المدة المفترضة قبل وصول ليلى قد انقضت وربما تدلف إلى المكان بين لحظة وأخرى.

لم تمر غير دقائق حتى تصل ليلى، ترتدى بنطلونًا من الجينز الرمادى مع بلوزة زرقاء ومن كتفها تتدلّى حقيبة بنية اللون، كبيرة الحجم، معلقة





بسيور جلدية، ارتباك ماهر لا يترك له فرصة ملاحظة التغير الذي طرا على ليلى، فلم يلحظ أنها فارقت اللون الأسود وترتدى الآن ملابس ملونة، ولم يلحظ أنها أطلقت شعرها على شكل ذيل حصان بعد أن كانت تتركه على كتفيها كيفما اتفق.

تلاحظ ليلى ارتباكه في يده المرتعشة لحظة المصافحة، تضع حقيبتها وهي تجلس، تركن ظهرها إلى مسند المقعد وتملأ عينيها بماء النهر المنساب منذ آلاف السنين ليشهد على ملايين البشر الذين عاشوا وماتوا على ضفتيه. تملأ رأتيها بدفقات من الهواء المشبع بروائح الماء والأشجار، تفيق على صوت ماهر وهو يشير نحو الجرسون يسألها عن مشروبها، تطلب نسكافيه بدون سكر، ينصرف الجرسون، تتابع ماهر الذي لاحظ نظراتها فأشاح ببصره يبحث عن ابن الماء، طائر البلشون، يشاهده بعيدًا نقطة بيضاء تنزلق فوق سطح الماء. تتنهد ليلى في محاولة لوأد سخطها قبل أن تخرجه حممًا في وجه ماهر، لقد أصبحت سريعة الغضب، فلتتحدث فيما أردت يا ماهر، حملت نظراتها هذا المعنى ثم عقبت بكلمة واحدة:

- خير؟

يرتبك أكثر في بداية حديثه الذي شرح فيه وضعه في أسرته ثم عرج على وضعه المالى حتى ينتهي قائلًا:

- أملى موافقتك على الارتباط بى، (مسرعًا يقول) أعلم أنكِ تمرين بظروف صعبه، لكنها لا تمنع من الاتفاق كبداية ثم يتم بعدها تحديد كافة التفاصيل وفي الوقت المناسب الذي يروق لكِ.





- لم أكن في حاجه لمثل هذه المقدمة الطويلة يا ماهر، أعلم ما تريد، قبل أن تتحدث بالكلمات تحدثت عيناك بما تريد.

- أتوافقين؟

شردت ليلى قليلًا، أطلقت نظرها نحو الضفة الأخرى من النهر ترقب أحدهم جلس ليصطاد في صبر وأناة، تعود بعينيها فتجد ماهر يتابعها صامتًا مترقبًا، تبتسم ليلى وهي تقول:

- أوافق يا ماهر.. شرط أن تمتد فترة الخطبة عامًا كاملًا، بعد هذا العام نجلس لنحدد موعد الزواج.

من فرط سعادته يقف ماهر محركًا يديه في الهواء ثم يجلس مرة أخرى، يلحظ أن الجرسون يتبعه من بعيد، فيسأله، ليوارى خجله، عن النسكافيه ولِمَ تأخر، يجيبه بأنه سيأتى به حالًا. تبتسم ليلى من رد فعله، تهز رأسها مستفهمة، فلم يعبر بالكلمات بعد، يهدأ قليلًا ثم يقول:

- بالطبع يا ليلى.. ثم إن كل ما تأمرينني به سوف أنفذه، أنتِ لا تعلمين قدرك في قلبى.

يستمر ماهر في حديثه وهي تستمع إليه أحيانًا وتشرد عنه كثيرًا، ترسم على ملامحها انعكاسات لصور تمر بداخلها، صور سوداء كما الظلال لرأس والدها ولأم تشتعل. يحاول ماهر الخروج بها من دائرة أفكارها الحزينة فيتحدث عن مواقف وطرائف من حياته الخاصة والعامة، ثم فجأة تقطع ليلى حديثه المسترسل وتطلب منه:

- ماهر.. أنا في حاجه للتغيير.. ما رأيك في رحلة خارج القاهرة؟





تتصارع بداخله دهشته مع سعادته، ثم يجيبها بتلقائية:

- يسعدني ذلك طبعًا.. نحن في أجازة الصيف..(يزوم لحظة) ما رأيك في رحلة إلى شرم الشيخ.. تقام رحلات عبارة عن أربعة أيام وأسعارهـ..

تقاطعه ليلى بكلمات حازمة وهي تنظر إلى النهر ناحية الجنوب:

- أسوان يا ماهر.. رحلتي إلى أسوان.

- أسوان؟!

يسألها مندهشًا، أسوان في الصيف؟! كيف ذلك؟! قبل أن يغرق أكثر في بحر دهشته تقف ليلى وتحمل حقيبة يدها وهي تقول:

- سوف أذهب الآن لحجز تذاكر القطار إلى أسوان.. هل ستأتي معي؟

***

(9)

فراج

يتذكر فراج تلك اللحظة جيدًا، وكأنها كانت بالأمس ولم يمر عليها عشر سنوات، تفاصيل منزل ناصور ما زالت محفورة في ذهنه، حتى رائحة المكان يتذكرها جيدًا.

لا يعلم كم غاب عن الوعي، لكنه عاد، يفتح عينيه فيشعر بثقل رهيب في جفنيه، مؤخرة رأسه تؤلمه وكأنه تلقى عليها ضربة نبوت، يتذكر فجأة ما حدث، يجول بنظره مشدوهًا، يبحث عن ذلك الجسد الهائل صاحب العيون الدموية، لا أحد.. الغرفة خالية إلا منه، يحاول الوقوف، يتألم وتصدر عنه أنات خفيفة، من باب الغرفة يظهر ناصور بجلبابه المتسخ ووجهه الأسود، بدا منحنيًا قليلًا عن ذي قبل، يبدو أن رؤيته للمرة الأولى قد شغلته عن التفرس في جسده، هو أقرب إلى مومياوات المساخيط التي شاهد بعضها من قبل، يبتسم ناصور ويتوجه بما في يده ناحية المنضدة المنخفضة، يجلس وهو يتحدث بهدوء:

- أفقت؟! لم أكن أحسبك ضعيفًا إلى هذه الدرجة!!



يبحث فراج عن كلمات يجيبه بها، لكن السؤال الذي يشغله قفز إلى طرف لسانه:

- مَن هذا الذي ظهر.. هنا.. فجأة..؟

أشار بإصبعه إلى نفس المكان الذي ظهر فيه ذلك الشيء مع خروج كلماته بحروف مبعثرة، يتناول ناصور كسرة خبز جافة ليغمسها في سائل أصفر يحويه الطبق الذي كان يحمله لحظة دخوله، يلقي بها إلى جوف فمه المظلم، يمضغ بهدوء مجيبًا:

- ناصور الكبير؟! لقد رحل.. أحضرته من أجلك.

- من أجلي أنا.

- نعم.. لقد أتيتني وبداخلك ألف رغبة انتقام، ولن يحقق لك المطلوب غير ناصور الكبير.

- ناصور الكبير؟! تقصد أن مَن حضر هنا، كانت روح جدك؟

يضحك ناصور حتى يختلط طعامه بهواءه فيشرق، يبتلع ما في فمه سريعًا قبل أن تتملكه نوبة سعال يسوّد على إثرها وجهه أكثر مما هو، بعد لحظات يتمالك نفسه ويحتسي سائلًا ما، من إبريق أسود مصنوع من الفخار، يهدأ ثم يقف ليواجه فراج الذي لا يزال جالسًا مرتكنًا بظهره إلى الحائط، يتحدث بقوة محملًا حروف كلماته سعادة وثقة بالذات:

- ناصور من أقوى الشياطين يا فراج، رغم قوته وبطشه بكل من يستحضره، وليس بمقدور أي ساحر مهما كانت قوته أن يستحضره، لكنني نجحتُ في هذا بقدراتي الخاصة.



- جني؟!

- نعم..

- كان هنا.. ورأيته..!!

كان فراج يتحدث وقد ارتعد وقاوم رغبة شديدة في الهروب من المكان، لكن الفضول ورغبه في الانتقام من والد حميده جعلاه يتماسك وينصت إلى ناصور وهو يقول:

- كان يود لو أن بك قوة لملاقاته، فقد أقنعته بأن تكون أحد أتباعه.

- أنا؟!

- نعم أنت..(بدهشة بدت مصطنعة) لماذا تكثر من الأسئلة!! لقد علمنا كل ما دار بينك بين والد تلك الفتاة التي تود الزواج بها.

يهدأ فراج قليلًا لكن تعلو علامات عدم الفهم وجهه وهو يتساءل:

- هل أخبرك الرجل بما دار بيننا؟

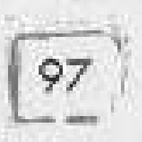
هنا يضحك ناصور بشدة ويتأرجح جسده النحيف في الهواء، يعود إلى مكانه، يصمت فجأة وبقسوة شديدة يتحشرج صوته على إثرها:

- يبدو أنك لا تعلم قدراتنا جيدًا.. لماذا أتيت إلى هنا إذن؟!

- أهانني الرجل وطردني من بيته شر طردة.. أتيت لأنتقم و.. والزوج بحميدة ابنته.

- لك هذا.. لكن (يصمت وهو يتفرس ملامحه) بشروط يا فراج..

- موافق على أي شيء.





يجيبه فراج مسرعًا، فقد سيطرت عليه رغبات الانتقام ثم رغبة قوية في الارتباط بتلك الفتاة الجميلة، هي خطوة كلها مكاسب بالنسبة له، إنه لن يخسر شيئًا بأي حال لأنه ببساطة لا يمتلك شيئًا يخسره.

يكمل ناصور حديثه بغريب الكلام والعبارات والأفعال، يتابع فراج بتركيز شديد، في البداية تظهر على وجهه علامات الاستغراب، فما يسمعه غريب جدًا، وبالرغم من كونه لم يكن متدينًا يومًا ما، أو حتى محافظًا على صلوات صورية، إلا أنه ارتبك بشدة، فما يطلبه منه الساحر يخرج به إلى الكفر.

ناصور يعلم جيدًا ما يفكر فيه فراج، فقد مرت عليه من قبل نوعيات أكثر طهارة ونقاء من فراج، تمتلك بداخلها فطرة تجعلها ترفض تمامًا ما يطلبه منهم، أما فراج فكان يختلف عنهم اختلافًا كبيرًا، إنه شاب جحود، ناقم، يحتاج إلى المال، لا يحب العمل ويود لو يأتيه المال من أيسر الأعمال، ويضاف إلى كل ذلك أنه يمتلك رغبة حقيقية في الانتقام والافتراس. إنه ذئب شرس لن يثنيه عن تحقيق رغباته أحد. يخبره ناصور بأن المتردد لا مكان له هنا وعليه الانصياع للأوامر بلا نقاش وإلا فعليه الخروج فورًا، إلى حيث الذل والهوان والفقر، فإن لم يستغل الفرصة الآن فلن تعود إليه أبدا، فهناك فرصًا لا تأتي غير مرة واحدة يا فراج، وهي الآن بين يديك. ثم يشيح عنه بوجهه إلى ركن في الغرفة ويبدأ بتلاوة كلمات هي أشبه بالتعاويذ.

كمن تسيل منه الدماء فيجف جسده ويدنو من فقد الحياة، يشعر فراج بخدر في أطرافه، إنه الآن يتعرض لحالة لم يعرفها من قبل، وكأن



بدأ الصرخيره يستقر بداخله، يتذكر فجأة ما مر به منذ أن أتى إلى هذا المكان، وكيف سار على الأرض بلا رغبة منه، كيف سقط مفزوعًا، ناصور الأكبر وعيناه الدمويتان، وهذا الكائن الذي يوليه ظهره الآن. يتذكر أيضًا إهانته ومعاملته كجرذ.

لو أنصت إلى ناصور ونفذ ما يطلبه منه لحقق كل ما يريد ولأتاه ذلك الرجل وابنته صاغرين يطلبان رضائه، يبتسم داخله بشدة.

الحقيقة التي سوف يدركها فراج مستقبلًا، أن ذلك الذي ابتسم داخله لم يكن هو، إنما كان شيطانًا يسكنه بأمر من ناصور الأصغر، إنه أحد أتباع ناصور الكبير، والحقيقة التي سيدركها مستقبلًا أيضا أنه كان سيوافق على كل ما هو مطلوب منه حتى ولو لم يسكنه شيطان آخر.

يتحرك فراج بخطى بطيئة، ينصاع تمامًا لكل طلبات ناصور، يمد ذراعه الأيسر كاشفًا عنه كم جلبابه، ساعد مفلطح يتناثر عليه قليل من الشعيرات سوداء وصفراء، وكما فعل ناصور بساعده منذ قليل، يأتي بالمدية ويصنع جرحًا في ساعد فراج حتى تسيل منه الدماء، بحركات بدت محفوظة لكثرة ما كررها، يهمهم بكلمات مبهمة بصوت ضعيف في البداية ثم يعلو تدريجيًا حتى يصل إلى الصراخ، كلما علا صراخه تثبتت نظراته بسقف الحجرة، يتفصد جسده عن عرق غزير، يتزايد ضغطه على ساعد فراج حتى إنه تألم وحاول جذب ذراعه، لكن تشبث ناصور به جعله يستسلم تمامًا.

استسلام فراج لم يكن نابعًا من رغبة قدر ما كان نابعًا من ضعف وانهيار تام، لقد تلاشت قدراته وأضحى دمية في يد ناصور يحركها



كيف يشاء، كان يشاهد ما يحدث وكأنه يجلس في مكان قصي أمام شاشة عملاقة تعرض أحداثًا لفيلم خيالي، كان يشاهد مستمتعًا متناسيًا خوفه، حتى ينتفض على صرخة مدوية أطلقها ناصور قبل أن يسقط أرضًا.

يقف فراج مذهولًا متأملًا جسد ناصور المسجى، ينتظر وقوفه، ما يحدث قد يكون تفصيلة من ضمن التفاصيل الكثيرة الجديدة عليه كليًا، يعم صمت رهيب، يطول.. ناصور لا يتحرك، يناديه فراج، لا يجيب، يميل نحوه يتفحصه، يقرب يده من أنفه، لا أنفاس، يرتعد متقفضًا إلى الخلف، لقد مات الرجل، يقترب مترددًا، بطرف قدمه يدفعه حتى يقلبه على جانبه، يطاوعه الجسد، لقد مات بالفعل، يشهق فراج وينظر في كل مكان مرعوبًا، يرتد بظهره نحو باب الغرفة، سوف يخرج بهدوء ثم يطلق ساقيه للريح، لن توجه إليه أصابع الاتهام، لا أحد يعلم بقدومه إلى هذا المكان، يقترب من الباب، يسد فتحته، يستدير ليفر هاربًا، تتعلق به يد قوية، تجذبه للخلف، يقاوم صارخًا، يسقط أرضًا، تصطدم رأسه بقطعة صخرية، تسيل دماؤه غزيرة، يلتفت ليشاهد جسدًا عريضًا يسد فتحة الباب، تغطي الدماء عينيه، تصنع غشاوة، تذوب قوته وتتلاشى، تهب عاصفة تثير الرمال، دوامة رملية تحتوي جسده، في قمتها نيران مشتعلة، يستمع إلى صراخ وعواء ذئب في مكان قريب.. يفقد الوعي

***



(10)

ليلى

يتوقف القطار السريع في محطته الأخيرة بمدينة أسوان، تفتح أبواب الدرجة الأولى بهدوء، من العربة الثانية وعبر الباب رقم (6) نشاهد ليلى تسد فتحته وقد توقفت لحظات تتأمل تفاصيل المكان، نظارتها الشمسية توارى جزءًا كبيرًا من وجهها، ترتدى الجينز وتحمل حقيبة صغيرة على ظهرها، تطأ الرصيف بقدميها فيظهر خلفها «ماهر» وقد بدا على وجهه الإرهاق بعد رحلة استغرقت أربعة عشر ساعة تقريبًا، كلما اقترب فيها القطار من أسوان كلما ارتفعت درجة الحرارة، حتى إنه غرق في عرقه بمجرد أن توقف القطار وحمل حقيبته على ظهره وجر حقيبة أخرى خلفه على عجل صغير، الحقيبة الثانية تخص ليلى وقد سألها في بداية الرحلة عما تحويه، بعدما حاول رفعها لكنه فشل لثقلها غير المتوقع، أجابته ممتعضة :

- أشياء تخصنى يا ماهر.. لا تكثر من الأسئلة أرجوك.





يتقبل ماهر حديثها الجامد وتعبيرات وجهها الصارمة، يخشى غضبها، ما مرت به من أحداث كان كفيلًا بأن يقضي عليها، إنها الآن مثل قطعة أنيقة من زجاج رقيق سهل الكسر، يتحدث ماهر بذلك إلى نفسه، يسير خلفها مطيعًا، يحبها ويتمنى أن تقرب بينهما تلك الرحلة في أسوان وإن كانت الحرارة مرتفعة.

بعد خطوات يستوقف ماهر ليلى كي يحتسيا مشروبًا باردًا في كافتريا المحطة قبل التوجه إلى الفندق، توافقه بإيماءه من رأسها، تتبعه بهدوء، كانت في حاجة لترتيب أفكارها، لم تخبر ماهر ولا أي مخلوق بما خططت له خلال الأيام القليلة الماضية.

ذهبت إلى مقر الشركة التي كان يعمل بها والدها، ذهبت لاستكمال بعض الإجراءات الخاصة باستلام المكافأة الخاصة، تقصت عن المأمورية الأخيرة التي كُلف بها والدها، مساكن شبابية على أطراف قرية "الكاجوج" بأسوان، موقع العمل في أحضان جبل "بريرو" امتداد سلسلة جبال البحر الأحمر شاهقة الارتفاع. لم تتمادى في الاستفسار كيلا تلفت الأنظار إليها.

بعد الانتهاء من تناول المشروب البارد ينتعش ماهر قليلًا وتظهر على وجهه ابتسامة رضا وهو يشير إلى ليلى بأن يرحلا لو أرادت، تقف تاركة المكان، تهبط درجات المحطة إلى الشارع العريض، تنتشر عربات الحنطور وإلى جوارها خليط من الرجال والأطفال تجمع بينهم البشرة السمراء والأسنان البيضاء اللامعة، طيبة لا تلحظها ليلى الشاردة، يلحظها ماهر ويبتسم وهو يصافح طفلًا ويسأله عن



اسم الفندق الذي سبق وأن حجزوا فيه من القاهـرة. يصافحه الفتى عادة مؤكدًا معرفتـه بالفندق وكل موظفيه، يتنـاول الحقيبة من ماهر ويرفعها إلى عربة الحنطـور، يفاجئ بثقلهـا فينظر نحو ماهر متسـائلًا، فيساعده ماهر على حملها متجاهلًا تساؤله، ثم يمد يده ليساعد ليلى في الصعود، لحظات ويتحرك الحصان على مهل متخذًا طريقه يمينًا ليقطع إلى الشارع الجانبي حتى يصل إلى شارع كورنيش النيل.

رغم شرود ليلى الدائم إلا أنها لا تستطيع متابعة صفحة الماء، يمتد النهر عريضًـا، تحفـه أشـجار النخيل وتزيـن صفحته بعـض المراكب الشراعية، أصـوات مختلفـة ما بين غنـاء وهتاف الباعـة مختلطة برنينِ حوافر الحصان.

بعد انتهاء اجراءات الاستقبال في الفنـدق، تتوجه ليلى إلى غرفتها خلف العامـل الذي يحمل حقيبتها، وخلفها يحمـل ماهر مفتاح غرفته المجاورة لها.

تدلف إلى حجرتها بدون أن تتحـدث إلى ماهر، تغلق الباب خلفها بينما يستدعي ماهر عامل الفندق، يجده مندهشًا من صمتها ومعاملتها الجافة، ينفحه بقشيشًـا يجعل ابتسـامته تعود إليه بسـرعة، ثم يسـر إليه بكلمات قليلة عن أن ليلـى قد تعرضت لفقد والديهـا في حادث أليم، يقابل الأمـر بعلامات أسـى يُظهرها على وجهه، بـدت مصنوعة، لكن ماهر لم يهتم.

في حجرتها تجلس ليلى على حافة السرير وقد شردت ببصرها عبر النافذة، لا يشغل تفكيرها سوى شيء واحد فقط، تعد له منذ أيام، تضع



تفاصيل خطتها وتناقشها مع ذاتها، تبحث عن الثغرات وتحاول إيجا
الحلول المناسبة لها، كانت تتخيل أن والدها قد تعرض لمكيدة ما، قتل
على إثرها، لـم تتخيل مهما كان خيالها جامحًا أن يكون والدها قد مر
بكل تلك الأهوال خلال هذه الأيام القليلة التي قضاها بعيدًا عنهما، لذا
كانت خطتها تعتمد على عدة محاور أولها هو زيارة موقع الشـركة التي
كان يعمل به والدها.

لـم يكـن اليـوم قد انتصـف بعـد وكان مقررًا أن يستريحا بقية هذا
النهـار، حتى يأتي الليل فيخرجا للتنزه على ضفاف النهر، يتناولا بعض
المسليات، ولا مانع من نزهة نيلية في قارب بصحبة طفل أسواني.

لكـن ما قررته ليلـى كان يختلف عن ذلك تمامًا، فقد أخبرت ماهر
بأنها في حاجة إلى الاسترخاء بقية هذا اليوم وسوف يبدآن رحلتهما من
صباح الغد، وافقهـا على مضض، ولزم غرفته ولم يعلم أي شـيء عما
فعلته ليلى في ذلك اليوم.

ترتـدى ليلـى ملابسـها وتخـرج مـن الفندق بـدون أن تتـرك مفتاح
حجرتها، كي لا يكتشـف ماهر خروجها حال نزوله لأي سـبب، تنطلق
عبـر شـوارع المدينة التي خلـت من المارة بسـبب الحـرارة المرتفعة،
استقلت سـيارة أجرة وطلبت منه التوجه إلى شارع السوق، وهو أشهر
شـوارع المدينـة مـن الناحيـة التجاريـة، ما أن تصـل إليه حتـى تترجل
لمشـاهدة المعروضـات، تدخـل محـل لبيـع العبـاءات والجلاليب
الأسـوانية والنوبيـة، تقابلهـا فتاة نوبية بابتسـامتها العريضـة مرحبة بها،





بلطف وأدب شديد تسألها عما ترغبه، تتأملها ليلى بنظرات طويلة وترسم على وجهها ابتسامة حنون قبل أن تقول:

- أريد أن أكون فتاة نوبية.

تضحك البائعة وهي تجيبها:

- لا يجوز.. الأصل النوبى غلاب يا أنستى.

- أقصد في المظهر..

- لكِ ما تريدين.. تفضلى.

بعد نصف ساعة تخرج ليلى من المحل كإحدى فتيات النوبة من حيث المظهر، عباءة مزركشة، غطاء الرأس الفضفاض، حتى الوشم على بعض مناطق الوجه لم تنساه فتاة المحل.

فتاة المحل كانت اجتماعيةً بشوشًا إلى أقصى درجة، استطاعت ليلى الغوص بداخلها والتعرف على الكثير من عادات وتقاليد أهالى المنطقة، ومنها علمت كيف الطريق إلى قرية الكاجوج لاقتناء بعض قطع الثياب المشغولة يدويًا، لأنها سمعت كثيرًا عن براعة أهلها في ذلك المجال، تضحك الفتاة بسعادة وهي تخبرها أن كثيرات من فتيات الكاجوج يتعاملن مع هذا المحل، حيث يقمن بالتطريز والشغل على معظم هذه الملابس، حتى إنها صادقت بعضهن، ولا داعى للذهاب إلى هناك ما دامت بضاعتهن موجودة لديها، لكن إصرار ليلى على الانطلاق إلى الكاجوج الآن، جعلها تخرج تليفونها وتجرى اتصالاً بفتاة تدعى «منيرة» وهي إحدى البارعات في الأشغال اليدوية على الطُرح



والعباءات، أخبرت منيرة بأن هناك ضيفة عزيزة تود لو تشاهد الأعمال اليدوية بنفسها، ولم تجد خيرًا منها لتكون رفيقتها في هذه الرحلة.

تنهي الاتصال وتعطي رقم تليفون منيرة إلى ليلى وتصف لها كيفية الوصول حتى منيرة التي ستجدها في انتظارها، تدفع ليلى أكثر من المبلغ الذي حددته فتاة المحل ثم تصافحها قبل أن تنصرف، وتطلب منها بنبرات تحمل قلقًا بأنها قد تعود إليها مرة أخرى إذا تطلب الأمر ذلك، وهي تشعر بأنها سوف تعود، ثم تركتها لتغرق في بحر قلقها وترحل.

لا تستقل سيارات النقل العامة كما نصحتها فتاة المحل، بل أشارت إلى أول تاكسي صادفها وطلبت منه التوجه مباشرة إلى قرية الكاجوج، لم تهتم بنظرة التساؤل البادية على وجهه وجلست على الكنبة الخلفية، تلقي بنظرها عبر النافذة، تتابع تفاصيل المكان، ينطلق السائق في طريقه محاولًا تَبادُلَ الحديث معها، لكنها لم تجبه أو تجاريه فيما قال، فآثر الصمت ومتابعة الطريق وركاب السيارات من حوله مخرجًا سخطه على كل مار وإن لم يخطئ.

لم تكن ليلى تحلم من قبل بأن يخدمها القدر بهذا الشكل، خاصة بعد سوء الطالع الذي رافقها مؤخرًا، ففي اللحظة الأولى التي شاهدت فيها "منيرة" وتبادلت معها أحاديث التعارف حتى علمت أنها إبنة شدوان، خفير موقع شركة مقاولات كبرى مقرها الرئيسي في القاهرة، حتى سقط قلبها من بين أضلعها.







(١١)

حميدة

غريب ما حدث لحميدة في تلك الأيام، فجأة وبعد منتصف الليل بقليل تستيقظ الفتاة، تتحرك بعيون مفتوحة لكنها شاردة وكأنها ما تزال في أعماق نومها، تخرج من حجرتها بهدوء، تسير مثل هرة بخطوات لا يصدر عنها أي صوت حتى تصل إلى تلك الحجرة التي ينام فيها والديها، تمسك مقبض الباب وقد ركزت نظراتها على شيء في أحد الجوانب، لو تأملنا ذلك الجانب لنشاهد ما تنظر إليه لوجدناه خاويًا تمامًا، لكن إن سألنا حميدة عما تنظر إليه؟ لأجابت بأنها من الأصل غير موجودة في هذا المكان الذي نتحدث عنه، إنها في غرفتها وتنام على سريرها.

تفتح باب الغرفة لتغرق مع ساكنيها في ظلامها، تتوجه مباشرة نحو حافة السرير التي تحوي جسد والدها الذي يغط في نوم عميق مصدرًا شخيرًا مزعجًا، تجلس حميدة ناظرة إلى وجهه في حنق شديد، تمد



يدها نحو وجهه تريد إيقاظه، لكنها فجأة وبمنتهى القوة تقبض على رقبته بكلتا يديها.

ينتفض الرجل مفزوعًا، ولولا قوته الجسدية وانتفاضته المفاجئة لما استطاع النجاة من قبضتها الحديدية، يعود إلى الخلف مفزوعًا حتى إنه لم يشعر بجزء كبير من زوجته أسفله، زوجته التي تصرخ وهي تسحب نفسها للخلف بسرعة شديدة.

في اللحظة الأولى، التالية للخطر، التي تستدعى فيها أذهاننا أخطاء الماضى، تخيل والد حميدة أن قاتله ليس إلا أحد رجال عائلة الطماني، فبين عائلتيهما ثأر طال أمده، لكنه ليس المعنى بهذا الثأر، المقصود أبناء عمه، يود لو يصرخ «لا ذنب لى إنهم أبناء عمى «ثم يستدعى ذهنه سببًا آخر لهذا الهجوم المباغت عليه، فقد تخيل أن منافسيه في التجارة يودون القضاء عليه بعد صفقته الأخيرة التي اقتنصها من بين أيديهم قبل أن يستقر ذهنه على تفسير لما يحدث كانت الزوجة قد استعاذت بالله ومدت يدها بسرعة وأضاءت الأباجورة بجوارها.

يرتدان فزعًا وهما يفاجئان بحميدة ابنتيهما تقف أمامهما بملابس نومها وشعرها المنكوش من أثر النوم وعينيها المفتوحتين بشكل مخيف، تصرخ الأم «حميدة «بينما يردد الرجل اسمها بصوت خفيض غير مصدق.

- ما بكِ يا حميدة؟!

صرخت الأم بهذا السؤال بينما استجمع الرجل قوته واقترب من حميدة ليمسك بيديها ويُهدئ من روعها، توصل بفكره المضطرب





المشوش إلى أن حميدة لا تزال في حلم أو كابوس رهيب. قبل أن يمسك بيديها ليهزهما لعلها تفيق، ترتد حميدة إلى الخلف خطوة مطلقة صيحة هزت أركان المكان، كانت صيحتها عبارة عن تساؤل واستفهام، لكن علامات الاستفهام على وجهي والديها كانت أقوى، فما يتمالك الرجل بعض قوته التي كادت أن تنزلق خارجة من جسده، ليجمعه رعب زوجته على الوقوف والاقتراب من حميده، إنه ربان سفينة هذا البيت وعليه التصرف السريع. يقف مواجهًا ابنته وقد أولى ضوء الأباجورة الشاحب ظهره، فبدا وجهه أسود يغوص في قلب الظلام، تواجهه حميدة بإصرار وتسأله مرة ثانية:

- لماذا رفضته.. بل وطردته شر طردة بدون أن تسألني عن رأيي؟

يفاجئ الرجل بسؤال ابنته، ينظر نحو زوجته لتقاسمه دهشته، يحرك يديه في الهواء بعنف ولا يجد ما يتفوه به، إن ما سيقوله من أسباب الرفض أمر واضح لا يحتاج إلى شرح، لكن سؤال حميدة وما يبدو عليها من غضب هو ما يحتاج إلى تفسير. لم يجبها، بل سألها بشدة:

- أجننتِ يا حميدة؟!

- أنت المجنون..

أجابته حميدة بذلك وهي تكشر عن أنيابها وتحرك قبضتيها إلى جوارها بتحفز شديد، لا يدري الرجل ما الذي دار في تفكيره ولا كيف قرر أن يفعل ذلك، لكنه شاهد نفسه تفعل كمن يشاهد مشهدًا تراجيديًا على خشبة المسرح، فقد ارتفعت يده العريضه إلى أعلى نقطة يمكنها الوصول إليها، ثم هوت، بقوة صخرة تسقط من أعلى جبل البريرو،



على خد حميدة الأيسر، صفعة قوية كان لها صوت يصم الآذان لكنه لم يكن الصوت الوحيد في تلك اللحظة، لقد صاحبه صرختان الأولى من الأم التي أطلقت صرختها وهي ترفع كفيها لتحتوى وجهها أو بالأحرى تواري، أما الصرخة الثانية فكانت أكثر دويًا وهي تخرج من حميدة لتهز أرجاء المنزل والمنازل المجاورة التي استيقظ بعض أهلها مفزوعين يتساءلون عن ميت هذه الليلة.

توقع الجميع أن تتكور حميدة بعد تلك الصفعة في أحد الجوانب وتعود إليها طبيعتها، توقعوا أن تفيق من ذلك الكابوس وتقدم اعتذارًا وتفسيرًا سريعًا لما حدث، لكن أيا من هذا لم يحدث، فقد قفزت حميدة، بخفة لاعب سيرك وبشراسة مصارع، لتقبض بذراعيها على رقبة والدها، تعلقت في رقبته ودفعته بجسدها بقوة جعلته يترنح لحظات قبل أن يسقط على حافة السرير، بحركة لا إراديه تجذبه زوجته إلى الخلف وهي تدفع بيديها حميدة وتصرخ بعبارات:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله.. بسم الله..

لقد أيقنت الأم بفطرتها أن ما يحدث الآن ليس سوى أفعال شيطانية، يدفع الرجل يد زوجته وقد استفاق من ذهوله ووقف مقاتلًا هذه المرة، في لحظة واحدة يقبض على حميدة من يديها ويلفهما خلفها ثم يحتويها بجسده، كانت تقاومه بحركات عنيفة من كل جزء في جسدها، يشير نحو زوجته بأن تعطيه أي شيء ليقيدها به، تفزع الأم من هول الفكرة، لكنها لم تجد بُدًا من الانصياع لرغبته أمام نظراته النيرانية.





بعد أقل من دقيقة كانت حميدة مقيدة القدمين واليدين وملقاة على السرير بينما تقف الأم مشدوهة في جانب ولسانها يلهج بآيات من القرآن الكريم، أما الأب فقد جلس على حافة السرير يلهث وهو يتابع ابنته التي تتلوى تحت قيدها العنيف، كانت حميدة تتمتم بكلمات مبهمة، تزوم، تصرخ، يتناثر من فمها لعابها، دموعها لم تتوقف عن الانهمار، لكنها ليست دموع بكاء أو ألم، حميدة نفسها لا تدرى أي دموع تلك ولا أي حالة انتابتها الآن.

بهدوء يسأل الرجل:

- ما بكِ يا حميدة؟

من بين لهاثها ودموعها تخبرهم بنبرات شرسة، بأنه كان على والدها أن يعرض عليها الأمر وهي صاحبة القرار فيه، ثم أنهت كلماتها، التي تخرج من داخلها وكأنها تنزعها بسكين عن جدار التصقت به، برغبتها في الزواج بـ «فراج».

يثور الوالد وتنتابه نوبة هياج وانفعال، لا يصدق شيئًا مما يسمعه، يكذب أذنيه، إنه ولا شك ما يزال يغوص في كابوس فظيع، ينظر نحو زوجته طالبًا منها العون، يجب عليها أن توجهه إلى ما يجب أن يفعله الآن.

في أحيان كثير نصاب بحالة من الشلل الفكرى، يعجز معها العقل فلا يتحرك خطوة واحدة، تلك كانت حال الرجل، حتى اقتربت منه زوجته، تمسك بيده وتنتحى به جانبًا:



- ابنتنا بها مس شيطانى يا راضي.. لنأتيها بأحد المشايخ الآن.

قبيل اقتراب الفجر بقليل، بينما كانت قرية الكاجوج تغط في ثبات عميق، لا صوت غير مواء قطط تتصارع أو كلب يقلد عواء الذئب يستعيذ الرجل الوحيد الذي يسير مسرعًا من الشيطان الرجيم، عواء الكلب في الأرياف نذير شؤم، يطلقون عليه «عِواص». فعندما «يعوّص» «الكلب يتنظر أهالى القرية حادث بشع أو حتى حالة وفاة عادية.

يُسرع والد حميدة خطاه آملًا أن يلحق بالشيخ منصور في منزله قبل أن يخرج لصلاة الفجر، يصم أذنيه عن أي صوت متذكرًا حال ابنته الغريب وكيف تركها مقيدة في حجرة نومه وزوجته بجوارها تقرأ ما تحفظه من آيات القرآن، نظرات ابنته الدموية لن ينساها ما طال له العمر، لقد انفطر قلبه وهو يراها تتداعى أمامه. مس شيطانى يكون نتيجته موافقتها على الزواج بهذا الصعلوك المسمى فراجًا؟! مؤكد أنه السبب خلف ما يحدث لابنته، وإن ثبت ذلك بالفعل فلا سبيل أمامه غير قتله وتمزيقة قطعًا وتركها على قارعة الطريق كى تنهشها الكلاب الضالة.

يصل إلى منزل الشيخ منصور، يطرق نافذة غرفته التي تطل على الشارع والتي يعرفها جميع أهالى القرية، طرقات خفيفة يستمع بعدها إلى صوت هادئ يأتى من الداخل، ثم يقترب الصوت من النافذة متسائلًا عن الطارق؟! يتلقى الاجابة فيفزع الرجل، إنها زيارة ولا ريب مهمة، لا يفتح النافذة إنما يتغيب لحظات بعدها يظهر في ثوب



الخروج مصافحًا السيد راضى، يسأله عن سبب تلك الزيارة في مثل هذا التوقيت؟!

يجذبه الرجل من يده وينطلق به عبر الطرقات الضيقة للقرية، يهمس له بكل ما حدث، يتابعه الشيخ منصور منفعلًا، إنه يُقدر حميدة منذ أن كانت طفلة تتردد على كُتابه لحفظ القرآن مع أقرانها، لاحظ فيها نبوغًا مبكرًا، لم يتعجب مثل باقى أهالى القرية عندما تركت الصعيد وسافرت إلى القاهرة لتلتحق بالجامعة بعد تفوقها في الثانوية العامة. منذ عدة سنوات وهي فتاة القرية الجميلة المثقفة المؤدبة، الآن تتعرض لمس شيطانى وتطلب الزواج بصعلوك مثل هذا؟! لقد تمكن منه الغضب حتى قارب غضب والدها، فسار متعجلًا معه حتى وصلا المنزل.

بعد لحظات كان يجلس الشيخ فوق مقعد يجاور سرير حميدة التي كانت تبكى وتزوم وتهمهم بكلمات مبهمة يستشف منها المنصت كلمات " فراج.. الزواج.. أنتحر.. "، يقرأ الشيخ منصور آيات من القرآن الكريم كان يستخدمها كثيرًا في حالات طرد الجن، من قبل وبعد وقت قليل كانت قراءته تأتى بنتائج ملحوظة، أما الآن فها هو يقرأ ويقرأ، حتى يعلو صوت قرآن الفجر، وحميدة على نفس حالها، لا توجد استجابة ما أو أي رد فعل آخر يدل على تأثرها بقراءة القرآن، لكن اليأس لم يدب دبة واحدة في قلب الشيخ منصور، يزداد إصراره ويأتى من عمق بئر إيمانه بطبقة صوت نورانية ليقرأ بها الآيات، يتأمل السماء عبر خياله طالبًا العون.

الله أكبر، الله أكبر..





الله أكبر، الله أكبر..

أشهد أن لا إله إلا الله..

أشهد أن لا إله إلا الله..

أشهد أن محمدًا رسولُ الله....

يتردد صوت المؤذن في المسجد القريب بآذان الفجر، يصاحبه ترددات المؤذن في المسجد الشرقى، يجيبهما ثالث من المسجد الجنوبى.. يقرأ الشيخ منصور بصوت أعلى، فجأة تنتفض حميدة، تعتدل جالسة، وكأنها مخلوق أسطورى تمزق قيودها، يقاوم الشيخ منصور رعشة خفيفة تسرى في جسده، بينما يتراجع الأب، مذهولاً، خطوتان إلى الخلف، تضيع صرخة الأم مع تلك الصيحة الهائلة التي خرجت من حميدة، صرخة أصابتهم جميعًا بالخرس والذهول، لقد كانت صرخة غريبة، لم يكن صوت حميدة، صوت أجش أشبه بصوت رجل أدمن شرب الدخان، نزعت حميدة قيودها ثم وقفت مواجهة الشيخ منصور، تحرك يديها بقوة في الهواء كمن يقاتل أشباحًا، لكنها لم تقترب منه، لم يتراجع الشيخ منصور، إنما يقف متصديًا للهجوم المتوقع، بأن رفع صوته وقد اختار آيات يعلم عنها أنها أكثر قوة في طرد الشياطين، تصرخ حميدة وبدلاً من أن ترتد إلى الخلف أو تنكمش أمام الشيخ منصور، تقفز بقوة أسد ورشاقة غزالة وفي غمضة عين تكون قد قبضت على رقبة والدها لتخنقه.

يذهل الرجل حتى ينسى أنه يمتلك يدان يدفع بهما الأذى، لا يبدى أية مقاومة، تحاول الأم الابتعاد خطوة، تتعثر قدماها في بعضهما



الحوض، تسقط أرضًا فاقدة الوعي، فقد ارتطم مؤخرة رأسها بحافة الدولاب المصنوعة من خشب الزان القوي، بعدما تفيق ستشعر بألام رهيبة وستجد دماءًا غزيرة قد سالت منها وتخثر بعضها في شعرها فصنع منه تلافيف زادتها بؤسًا.

يلتفت الشيخ منصور بعد قفزة حميدة، يشاهدها وهي تقبض بيديها على رقبة والدها، يشاهد الأم تسقط فاقدة الوعي، يزداد الأمر تعقيدًا واشتعالًا، لم يكن أمامه غير تصرف واحد وهو يرى الرجل أمامه يتداعى من فرط ذهوله ولا يبدى أية مقاومة تذكر، يمد يديه ليمسك بحميدة من كتفيها من الخلف ليجذبها بكل ما أوتى من قوة، وكأن يديه قد صنعتا من نار حقيقة، تصرخ حميدة وتقفز مرة ثانية تاركة والدها ليسقط أرضًا بينما تقف هي في مواجهة الشيخ منصور في تحدٍ رهيب، يعاود قراءة القرآن، تتزايد نظراتها اشتعالًا، لكنها لم تجرؤ على الاقتراب منه، بنفس الصوت الأجش تقول:

- إنها نهايتكم جميعًا.. كيف تجرأون على مواجهة ناصور الكبير.

يفزع الشيخ منصور فزعًا شديدًا عند سماعه اسم ناصور الكبير، لكنه لا يجد أمامه غير قراءة آيات أخرى وأدعية كان يحفظها، في اللحظة التالية تقترب منه حميدة بعينيها الدمويتين وقد مدت يديها أمامها، يعود الشيخ منصور إلى الخلف خطوة تُماثل تلك الخطوة التي اقتربتها هي بينما يرفع صوته بآيات القرآن وقد مد ذراعيه في الهواء مثل ممسك بمرسلات أشعة حارقة، فجأة تدوى صرخة رهيبة تهز المكان، قبل أن تسقط حميدة أرضًا فاقدة الوعي.





بنظرات مملوءة برعب حقيقي يقف والد حميدة مواجهًا الشيخ منصور، فقد بدا له بعد سقوطها أرضًا واقفًا وفي يده قطعة حجرية على شكل تمثال فرعوني، كان قد جذبه من فتحة خفية أسفل منضدة جانبية، يرفعه في اللحظة التي هاجمت فيها الشيخ منصور ثم يهوى به على مؤخرة رأسها فتسقط فاقدة الوعي.

سريعًا يقيدها قبل أن تفيق مرة أخرى ويحدث ما لا يحمد عقباه، يساعده بحماس الشيخ منصور حتى إنهما يلهثان. يوثقانها بقوة وبداخلهم رعب لم يفصحا عنه وهو الخوف الشديد من خلاصها هذه المرة من القيد.

يقف الشيخ منصور صامتًا، لا يجد ما يقوله إجابة على تساؤل بدا من نظرات والد حميدة. لما وجد راضي الصمت مخيمًا على المكان يتحرك نحو زوجته التي ما زالت مسجاة على الأرض، ينحني عليها ليُجلسها محاولًا إفاقتها بكلمات وحركات قليلة، لو لم تكن صاحبة مرض لاستجابت لدعوته وحركاته، لكنها قد اقتربت إلى الوفاة منها عن الحياة.

بخطوات مترددة يقترب منه الشيخ منصور، يربت على كتفه بهدوء وقد بدا على وجهه الفزع، ما يزال مأخوذًا بالاسم الذي نطقت به حميدة قبل سقوطها، يقول:

- لنستدعى طبيبًا يا حاج راضي.

يستجيب الرجل مباشرة، هو شخص عنيد، لكن ما يحدث الآن أعاده إلى طفل مطيع، لقد شاهد اليوم ما لم يحلم بجزء منه من قبل. بيد





برعشة يحمل تليفونه من أعلى منضدة جانبية، يبحث عن رقم ويتصل به، بعد عدة محاولات يأتيه صوت ناعس متثاءب، لا يترك له مجالًا للنقاش أو الاستفسار، وكأنه يود أن يُفرغ ما بداخله من شحنات، يقول:

- دكتور وليد.. أنا راضي المرازيقي وفي انتظارك حالًا.. بسرعة يا وليد يا ابني.

ثم يُنهي الاتصال استكمالًا لنقل حالة التوتر إلى الطبيب كي يأتي مسرعًا. بالفعل لم تمر سوى دقائق حتى أتاهم صوت رنين جرس الباب، يذهب راضي ليأتي بالطارق الذي لم يكن سوى الدكتور وليد، بمجرد أن يفتح الباب حتى تأتيه الأشعة الأولى للنهار، أمر آخر لفت انتباهه لكنه لم يوليه أية عناية، إنها تلك النظرات المتلصصة من شرفات ونوافذ الجيران، مؤكد أنهم استيقظوا على صراخ ابنته، فليستيقظ مَن يستيقظ وليذهبوا جميعًا إلى الجحيم. يجذب الطبيب من يده بسرعة، يدخل به إلى الغرفة مشيرًا إلى زوجته فاقدة الوعي، يقف الطبيب مذهولًا مما يشاهده، سيدة مسنة ملقاة على أرضية الحجرة، فتاة مقيدة بقيود رهيبة ملقاة على السرير وأطرافها مربوطة بأركان السرير، والشيخ منصور شيخ القرية يقف شاردًا مأخوذًا وقد شحب لونه شحوبًا شديدًا يحاكي الموتى. قبل أن يسأل الطبيب، يعيد الرجل رفع يده في إشاره منه إلى الزوجة وهو يقول:

- رأسها اصطدمت بحافة الدولاب، فقدت الوعي.

ينظر الطبيب نحو حميدة متسائلًا، يقتله فضوله، يكمل الأب حديثه:

- سوف نخبرك بكل التفاصيل.. لكن عليك إنقاذها الآن.





يسحب الطبيب مقعدًا من أحد الجوانب وبمعاونة الحاج راضي يرفعان الزوجة ويجلسانها، يبدأ الطبيب عمله، يفتح حقيبته ويستخرج منها جهاز قياس الضغط، بعد اِستعماله وبعد تمريره السماعة على أكثر من مكان يضعهما جانبًا، يستخرج عقارًا من حقيبته ويسحبه على عجل ليحقنه في وريدها، ثم ينظر في أكثر من اتجاه حتى يجد بغيته، زجاجة عطر على التسريحة، يلتقطها ويرش منها زخات على وجه السيدة، لحظات وتفيق متألمة، ترفع يدها إلى رأسها تتحسسه، يشاهد الطبيب الدماء المتخثرة، يستمر في عمله منظفًا مكان الجرح ثم يضمده، تعتدل السيدة لتفحص المكان، يبدو أن ذاكرتها قد عادت لها دفعة واحدة، تنظر نحو ابنتها وهي تشهق:

- ابنتي..

يطمئنها الوالد مربتًا على كتفها:

- لا تخافي يا حاجه.. سيكون كل شيء طيبًا بإذن الله. لو سمحت يا دكتور وليد.. حقنة مهدئة أو منومة لابنتي حميدة قبل أن تفيق من غيبوبتها.

يندهش وليد، كيف يطلب منه تخدير ابنته بدلًا من أن يطلب منه علاجها..؟! يود لو يسأل هذا السؤال، يتوقع منه الأب ذلك فيكمل:

- افعل ما أطلبه منك وسوف نشرح لك كل التفاصيل يا وليد.

قال جملته الأخيرة بقوة جعلت وليد يتحرك منفذًا أوامره، إنه يرى توترًا رهيبًا ولا مجال للاعتراض. تعود للأم طاقتها وتغرق حميدة





في بئر سحيقة. يتوضأ الشيخ منصور وخلفه الحاج راضي والطبيب، يصلون صلاة الصبح، فقد أشرقت شمس هذا اليوم أخيرًا.

تعد لهم الزوجة طعامًا خفيفًا مع أكواب الشاي، بذلوا مجهودًا ولم يناموا بما يكفي، فهم يحتاجون إلى شيء يسندهم. يمضغون اللقيمات بلا شهية في صالة المنزل والحاج راضي يسرد لهم كل ما حدث منذ أتاه هذا الصعلوك المسمى فراج وحتى اللحظة.

يتأثر الدكتور وليد حتى إنه يقبض بشدة على كوب الشاي في يده، بعد لحظات يؤكد أن هناك سببًا علميًا لحالة حميدة، ينظر ناحية الشيخ منصور يستمد منه العون، يجد الشيخ شاردًا مضطربًا، لا يزال شاحب الوجه، لمّا يطول صمت الشيخ يسأله:

- ما بك يا مولانا؟!

- الأمر خطير..

يرتعد راضي، يجد داخله خاويًا، يُخرج زفرة طويلة يشعر بسخونتها، يتمنى لو يستمع إلى كلمة تبث فيه الأمل، لكن ها هما رجلا العلم والدين إلى جواره لا يحركان ساكنا، بل يصدران إليه انهزامًا رهيبًا، يتأمل الشيخ منصور بنظرات مستجدية، يتمنى لو أن أذنه قد خانته وأن الشيخ لم يتفوه بجملته الأخيرة، لعل وجهه يعبر عن شيء آخر، لكنه صُدم لحظة رؤيته وجه الرجل الذي بدا أكبر سنًا، الساعات القليلة الماضية أضافت إلى عمره عشرات السنين. أي خطر يا مولانا؟ يسأل الطبيب بدلًا من الأب الذي بدا أن خطبًا ما قد أصاب جهاز النطق لديه،



يبتسم الشيخ منصور ويحوقل، يرفع كوب ماء يزدرد بعض ما فيه بعد أن شعر بجفاف شديد في حلقه، يقول هامسًا:

- قالت ابنتنا حميدة بصوت غريب : إنها نهايتكم جميعًا.. كيف تجرأون على مواجهة ناصور الكبير.

يهز الوالد رأسه مؤكدًا صحة ذلك بينما تحمل علامات وجهه استفسارًا من أيهما، يمط الطبيب شفتيه ويتساءل هو الآخر بكلمة واحدة:

- يعنى؟!

بنفس الهمس يكمل الشيخ منصور:

- في البداية دعونى أشرح لكم معنى صوت حميدة الأجش، إنه لم يكن صوتها على الإطلاق.

- صوت مَن إذن يا مولانا؟ يسأله الطبيب.

- صوت "ناصور" الجنى الذي صرح باسمه وهو أمر لم يحدث أمامى من قبل.

- و ماذا يعني ذلك؟ يسأله الأب.

- يعنى قوة التحدى يا حاج راضى، ناصور هذا من أقذر الشياطين وأقواهم ولا يقوم بتحضيره واستخدامه إلا رجل قد كفر بكل شيء وتلك هي المصيبة الكبرى.

يسقط قلب راضى ولا يقدر على التنفس، تتشنج يداه وتفلت منه آهة تمنى لو كانت صرخات تُفرغ ما بداخله، تمنى لو يبكى وتنهمر



دموعه فيضًا، لكن الصرخات أبت والدموع جفت، يحرك يديه بعصبية يتزيد الشيخ الذي يمد يديه ليمسك به، قبل أن يكمل قائلًا:

- أن يتم التحدى بهذا الشكل، يعنى أن لا تفاوض معهم، هناك أوقات لا نستجيب فيها لطلباتهم ويتم التفاوض، ما رأيته اليوم يعنى أن لا تفاوض، لا سبيل غير تحقيق هدفهم.

- و ما هدفهم؟ يسأل الأب.

- أن يتزوج فراج بحميدة.

تنطلق صرخة مدوية، ينتفض الثلاثة في مقاعدهم وقد توجهت أنظارهم ناحية باب الحجرة التي تقطن فيها حميدة بالرغم من أن الصرخة المدوية كانت آتية من مكان آخر، بدا ذلك من قوتها، فلم يحجبها عنهم حاجب.

تظهر من خلف ستارة جانبية مفزوعة تمامًا وعلى ملامحها رعب حقيقى، إنها الأم.. زوجة السيد راضى، شَحب وجهها وغارت عيناها، تتحرك مثل مومياء تملكها جنى، تمد يديها أمامها فظهرت عروقها خضراء، أعاد الثلاثة نظراتهم ناحيتها، تكاد تسقط أرضًا، يتلقفها الزوج قبل أن تسقط، يعود بها إلى داخل الغرفة، تُمسك بصدر جلبابه المصنوع من الصوف الداكن، ترفع عينيها نحوه متوسلة، تقول:

- لا.. لا يا راضى..





يحتضنها كأنه يحميها من السقوط، الحقيقة أنه كان في حاجة ماسة لمن يتوكأ عليه، يتحرك بها الهُوَيْنَى ناحية غرفة جانبية، يهمس لها بكلمات مطمئنة، لن يترك ابنته فريسة لصعلوك ودجال.

للمرة الأولى في حياة راضي التي عبرت العقد الخامس بقليل يتعرض لأمر صعب مثل ما يمر به اليوم، يُجلس زوجته على مقعد ويعطيها قليلًا من الماء، ترفضه بدفعة حزينة من يدها اليسرى بينما تجفف دمعها بيمناها، يساعدها راضي بمحرمته، يشرد في همه الجديد، تخور قواه فينزلق إلى جوار مقعدها، تلتقط يديه، يبثان همومهما بلا كلمات، يركن رأسه إلى خصرها، لم يصل إلى تلك الحال من الهوان والضعف من قبل، هل تنقلب حياة الأفراد فجأة هكذا؟! كيف نعيش في دعة ونأمن غدر الغد؟! لو كان المتعدى على ابنته رجلًا لقاتله وما تركه إلا صريعًا، لكنه الآن يواجه شبحًا، يركز نظره على تلك المساحة الفارغة عبر باب الحجرة، يتأمل.. كأنه يرى ذلك الـ "ناصور" متجسدًا أمامه، كيف يكون؟ يسأل نفسه، مؤكد يكون على صورة دموية قبيحة.

من قبل، ومن خلال أحاديث عابرة، يعلم أن هناك دجالًا يسكن أطراف الجبل يسمى "ناصورًا".. لم يولى الأمر أية عناية، حتى إنه لم يسأل عن معنى الاسم، تلك أحاديث الرعاع، هكذا يراها، ولا يجب أن يخوض فيها، رجل قوى وثرى، يأمر فيطاع. الدجل سبيل الضعفاء والفقراء. تضغط زوجته يديه لعله يفيق من شردته، تهمس بعد قليل:

- راضي.. أخرج للرجال.





يتذكر الشيخ منصور والدكتور وليد، يتحامل الرجل متشبثًا بزوجته، يقف وقد تهدل كتفاه، تُكمل زوجته:

- لا تضيع ابنتنا يا راضي.

قرب الباب يتوقف، يستدير نحوها متأملًا، لن يضيع ابنته أبدًا، لكن كيف السبيل إلى ذلك، يتحمل قادة القافلة عبء إنقاذها، عليه التحرك لإنقاذ فلذة كبده بدون أية خسائر تذكر. حميدة تمثل زهرة العائلة، هي ريحانتها التي تلقى بعبقها على الجميع، تذهب إلى الجامعة متأنقة في ثيابها، تختال بجمالها، دائما ما يُشار نحوها بكلمات الإعجاب، فيعلم المتحدث مَن تكون، يُبدى إعجابًا صامتًا، يختزنه في سويداء قلبه ثم يغلق عليه.

لن يتركها تضيع أبدًا مهما تحمل من خسائر، سوف يساوم المتعدى ويدفع له كل ما يريد مقابل حرية ابنته وإن لم يفعل قتله. هذا قراره الأخير وسوف يخرج الآن ليتحدث به إلى الشيخ منصور والدكتور وليد.

بعد لحظات من الحديث بين الرجل وضيفيه، يوافقه الشيخ منصور على خطوة المساومة، فقد تأتى بنتيجة ما، هي محاولة على أية حال في قلب ذلك الانهيار. يرفض الدكتور وليد ذلك مؤكدًا أنهم يجب عليهم أولًا إخضاع "حميدة" للفحص الطبى، لابد أن يأخذ العلم سبيله أولًا، لم يقف وقد أشاح بوجهه بعيدًا وهو يتأمل الفراغ عبر نافذة جانبية، يقول:

- العالم ينطلق بسرعة الصاروخ ونحن نتحدث عن الجان.





ينهره الشيخ منصور، يؤكد أنه يعلم جيدًا الفارق بين الخزعبلات والخرافات وبين الحقائق، وليس في حاجة لشبل مثله لتعليمه كيف يفكر وكيف يسير، يتراجع الدكتور وليد قليلًا، يعلم جيدًا قدر الشيخ منصور، يضاف إلى ذلك فارق السن، مهما وصل إليه من علم لا يجب ألا يسخر من رأي رجل أكبر منه سنًا، يعتذر الدكتور وليد قائلًا:

- أعتذر يا مولانا.. حضرتك والد.. لكن العلم يقضي..

يشير نحوه الشيخ منصور بعلامة التوقف مقاطعًا استرساله، ثم يتوجه بحديثه إلى السيد راضي:

- لا مانع يا سيد راضي من الذهاب بحميدة إلى المستشفى كي يجري الدكتور وليد ما يريده من فحص.. وفي الوقت نفسه نتحرك في طريقنا بحثًا عن ذلك الدجال.

- حاضر يا مولانا..

يقول ذلك بقوة ثم يقف ساحبًا مقعده خلفًا، يجمع قناع البؤس الذي اعتلاه خلال تلك الليلة الدامية، يكور قبضة يده ويضرب بها على مسند المقعد، يصيح بكلمات قوية مصوغة من نار:

- يوم واحد.. وإن لم تعد حميدة إلى طبيعتها.. سوف ترى الكاجوج ما لم تشاهده من قبل.

❋❋❋



(12)

ليلى

لاحظت ليلى أن منيرة تشرد قليلًا، ليست فتاة منطلقة في الحديث كما حدثتها فتاة المحل بذلك، أحاديثها كانت مقتضبة، تحولها باستمرار إلى تفاصيل العمل، لم يكن الأمر في حاجة إلى مهارة حاذق كي يستنتج أن منيرة قد تعرضت لشئ جلل، تقربت منها ليلى بأحاديث شيقة حاولت قدر الإمكان نسيان كل ما مرت به من مآسي، حكت لها حكايا من وحي الخيال عن جذورها النوبية وعن انتقال أهلها إلى مدينة الأسكندرية، كيف قابلت الحبيب الأول، ماذا كان يعمل والدها قبل وفاته، كيف تحبها أمها بعد أن تفرغت لرعايتها، قصص كثيرة وهمية ساعدت في إزالة ذلك الجدار الذي شيدته منيرة حول نفسها.

تحدثت منيرة عن فقدها لأمها من سنوات طويلة، تمنت لو كانت معها خلال تلك الأيام الماضية، فقد تعرضت لما لا يتحمله بشر، قالت ذلك ثم انفجرت باكية، احتضنتها ليلى طويلًا، بصعوبة بالغة استطاعت تهدأتها والتقرب منها أكثر، تجفف منيرة دموعها معتذرة عما بدر منها،





ما كان يجب أن تظهر جانبًا مأساويًا في حياتها مع ضيفة مثلها في لقائهم الأول.

تحتويها ليلى بحنان حقيقي، لقد اضطربت، عاودتها الذكريات والآلام، لا تعلم شيئًا مما مرت به منيرة، لكنها تعاطفت معها، يبدو ثمة رابط بين ما مرت به ليلى وما مرت به منيرة، لكن منيرة حتى اللحظة لم تفقد أحدًا كما فقدت ليلى، ترى ماذا يبكيها؟! لِمَ تمنت لو أن والدتها كانت بجوارها في تلك الأيام؟! ثم لماذا لم تذكر والدها في الحوار الأخير المصحوب بالدموع ولو مرة واحدة؟

تسألها ليلى عن والدها، تجيبها بهدوء:

- في مقر عمله بموقع الشركة، يعود صباحًا.. يستيقظ وفقًا لحالته ثم يتوجه إلى موقع العمل ليظل مستيقظًا طوال الليل. لقد رحل قبيل مجيئك بقليل.

- ليتني أسرعتُ.. والآن.. أشعر بالجوع..

طلبت ذلك كي تُمضي معها أطول فترة ممكنة، ابتسمت منيرة وهي تشهق، ثم تقول قبل أن تقف مثل دجاجة مفزوعة وعلى وجهها سعادة ممزوجة بخجل كبير:

- معقولة.. يا خبر !!.. يسعدني ذلك جدًا.

ثم تقف مسرعة معتذرة عن عدم عرضها ذلك منذ البداية، أوقفتها ليلى محاولة التغلب على توترها وقلقها، راسمة إبتسامة حنون على وجنتيها، تقول:



- سوف أساعدك في إعداد الطعام.. لو لم يضايقك ذلك.

قالت جملتها الأخيرة بطريقة تمثيلية بها شيء من خجل، كما توقعت تمامًا، تجذبها منيرة من يديها لترافقها مبدية سعادة حقيقية، فقد انفرت نحوها براحة، شاهدت فيها صديقة تعرفها من سنوات.

تعرض منيرة عدة أكلات على ليلى، تحمل بيدها حبيبات كبيرة على شكل كرات صغيرة بها مسام، تأملتها ليلى وكأنها تشاهد قمم شعاب مرجانية صغيرة، تسأل منيرة عنها، تعطيها بعضها وهي تعلق مبتسمة:

- كِشك صعيدى.. أكلتنا المفضلة.

- كشك صعيدى؟ أشبه بالقطع الصخرية..!!

- نصنعه من القمح البلدى واللبن الرائب والكمون والشطة والملح ثم نقوم بتكويره وتجفيفه تحت لهيب الشمس ونحتفظ به طوال العام.

- كيف يتم طهيه؟

- تعرفين ذلك لو طهوناه معًا..

أمضيتا وقتًا ممتعًا في المطبخ، أعدوا طعامًا شهيًا، حيث شاركت ليلى في صنع أطباق الكشك بصدور الفراخ البلدى، ثم أعدت أطباق الحلو لما بعد تناول طعام الغداء، زينتا المائدة معًا بالأطباق وأصناف المشهيات المختلفة من مقبلات الطعام، فقد صعدت ليلى، بعد إلحاح منها، مع منيرة إلى سطوح المنزل ومدت يدها في «جرة المش» تلتقط قطعة من الجبن القديم وأطاعت منيرة في البحث عن ثمرة خيار أو فلفل، فسوف تستمتع بمذاقها كثيرًا. لم تستطع منيرة إخفاء سعادتها





بليلى وبكل ما تفعله، تابعت بعين خجلى عيون الجيران وهي تتابعهن فوق سطوح المنزل لكنها لم تعلق حتى لا تثير حفيظة ليلى.

على المائدة أكلتا بنهم، تذوق ليلى أصناف الطعام بحذر في البداية ثم تُقبل عليها سعيدة، أظهرت إعجابها الشديد بثمرة الخيار المنقوعة في المِش حتى إنها التهمتها عن آخرها رغم أنها كانت حريفة بعض الشيء، ثم أظهرت رضائها عن الكشك الصعيدى، كان مميزًا بالفعل، أكدت أن صدور الفراخ لها مذاقًا خاصًا مع الكشك.

لم تكفا عن الحديث لحظة، تفاصيل كثيرة سردتها ليلى واستمتعت بها منيرة، بعدها بدأت منيرة في الحديث عن تفاصيل كثيرة من حياتها حتى اقتربت من المنطقة التي يبدو أنها شائكة جدًا، بدأت الحديث عن مهندس يدعى "عمر على" قاهرى أتى للموقع الذي يقوم والدها بحراسته. ارتبكت ليلى كثيرًا لحظة سماعها اسم والدها، استغلت شرود منيرة لحظة وكفكفت دمعاتها وهي تترك المائدة لتجلس على كنبة في جانب الصالة. تفيض منيرة في وصف الرجل، كانت مضطربة جدًا، تتنازعها الأفكار، تذكره تارة بهدوء ومحبة تطغى على صوتها، وتارة أخرى بنقمة شديدة.

فجأة وكأنها تذكرت شيئًا كان غائبًا عنها، قالت منيرة:

- سوف أعد طعام الغذاء لأبى.

ثم توجهت إلى المطبخ وجذبت صينية صغيرة وعددًا من الأطباق، أكملت حديثها وهي في المطبخ، لكنها غيرت موضوع المهندس عمر الذي كانت قد بدأته، حاولت ليلى جرها لنفس الموضوع مرة أخرى



لكنها امتنعت بشكل ملحوظ، تماسكت ليلى في اللحظة الأخيرة وقررت تركها للقاء آخر تفيض فيه بحرية أكثر، ثم استأذنت في العودة إلى المدينة على وعد بلقاء آخر، تخبرها منيرة بأنها سوف تذهب بعد أيام إلى المحل في المدينة لتسليم بعض المشغولات اليدوية، تتفقان على موعد اللقاء.

في طريق عودتها، شاردة الذهن، إلى الفندق، تُخرج تليفونها المحمول من حقيبتها، كانت قد ضبطته على وضع الصامت منذ أن خرجت من الفندق، تجد أكثر من عشرين اتصالاً من ماهر، لابد أنه قلق عليها قلقًا شديدًا، تتصل به، يقابلها بثورة عارمة، تتركه يُخرج كل ما بداخله حتى يهدأ ويتركها لتبرر له عدم ردها على اتصالاته، قالت بهدوء:

- خرجت في جوله فضلتُ أن أكون فيها بمفردى، نسيتُ التليفون على الوضع الصامت منذ أن كنت في الفندق وأرغب في النوم. هذا كل شيء يا ماهر.

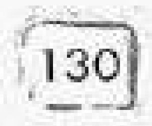
يبرر لها انفعاله، يعتذر ويخبرها بأنه سوف ينتظرها في بهو الفندق، سوف يطلب طعام الغذاء ليتناولاه معًا، ينتظرها هو وعصافير بطنه على شوق، بنفس الهدوء تخبره بأنها تناولت طعامها، ليأكل هو حتى تصل، وليتناولا معًا الشاى، تغلق الهاتف ثم تشرد فيما ذكرته منيرة، لقد ذكرت اسم والدها متأثرة حينًا ونافرة حينًا آخر، لابد أن هناك أسرار كبيرة تخفيها منيرة، غدًا لن تتركها قبل أن تسرد لها بقية الحكاية، سوف تطلق عليها كلمة «الحكاية» كى تحكى لها كل التفاصيل. ترتبك ليلى،



تـرددت لـحظات، ماذا لو حملت حكاية منيرة أخبارًا جعلتها تخرج من صمتهـا؟ تفكـر لحظات ثم تقـول في داخلهـا: ليكن ما يكون. سوف تمسـك بأطراف مشـاعرها قدر الإمكان كي لا تنزلق رغمًا عنها، أما إن انفجرت مشـاعرها، فلا حرج ولا مانع، فليس هناك أفظع مما تعرضت لـه من قبل، ما سـوف يحدث لهـا، مهما كان، لن يكون أحد أعشار ما قاسته.

تقتـرب من الفندق، تتذكـر أنها ما تزال بمظهر الفتاة النوبية، تبتسم وهـي تتوقع رد فعـل ماهر لحظة رؤيتها على هذا الوضع، تعبر الشـارع فـي اتجـاه باب الفـنـدق، تحاول تدبير تبريـر تقدمه له، رغمًـا عنها تجد نفسـها تفكر في منيرة وما سـتخبرها به في الغد، كيف سـتمضي يومها حتـى تلتقـى بها، لابـد أن النوم سـيجافيها كما جافتها الراحـة من قبل. تذكـرت نفسـها وهـي تسـمع اسـم أبيهـا وتحبس بداخلها مشـاعرها الصارخـة، والدهـا.. يمر الآن عليهـا مثل طيف.. ابتسـامته العذبة، يده الحانيـة حينمـا تربت علـى كتفها وتمسـح شـعرها، أحضانـه الحانية، يتمـزق داخلها وهي تتذكر كم أنصتت إلى دقات قلبه وهي ترتمي على صـدره، كم كانت تعشـق نظراتـه الحنون التي تحمل ألـف معنى، الآن تتذكر بعضها، كانت نظرات تحمل خشـية مـن الغد، تحمل خوفًا على وحيدته إن رحل وتركها.

مـاذا الآن يـا أبي.. يا أحب أهل الأرض إلـى قلبي؟! تركتني وحيدة بالفعـل.. حتى إن أمي رحلت خلفك وكأنها تأبى العيش بدونك.. آه.. تبكـي بـلا صوت.. تسـيل دمعاتها علـى وجنتيها، ترى صـورة والديها





...ل طلال، تراهم على صورتهم الأخيرة، الأب رأس بلا جسد والأم ...لة مشتعلة.. فجأة تسمع صراخًا وأصوات عدد من المارة مختلطة ...أصوات احتكاك كاوتشوك سيارة بأسفلت الطريق، مذهولة تقف ...ان، تشاهد سيارة ربع نقل يقودها فيما يبدو طفل في الثالثة عشرة ...ريبًا تقترب منها بسرعة جنونية، الموت يقترب منها، يعلو الصراخ ...على إن بعض السيارات قد توقفت فجأة والتفتت كل رءوس المارة ...نحو تلك السيارة التي تحمل الموت ثم تنتقل أعينهم نحو تلك الفتاة ...التي تقف جسدًا بلا روح مذهولة في منتصف الطريق.

***



(13)

ناصور

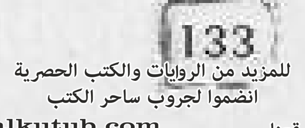
- لا «ناصوريًا» غيرك في قبلى ثمة !!

ينفعل الشيخ منصور وهو يلقى بتلك الجملة في وجه ناصور الدجال، يتلقاها الرجل بوجه جامد مثل وجه كلب ميت منذ أيام ملقى على جانب الطريق، لم يرفع عينيه لمواجهة ضيفيه مذ أن دلفا إلى منزله الخرب المقام على أطراف جبل الشيطان كما يحب أن يطلق عليه، فعليه قابل شيطانه للمرة الأولى، وإليه يأوى وقت مناجاته وسحره الأسود.

لقد ابتسم ناصور وهو يستمع لصوت الشيخ منصور يناديه، فأجابه من الداخل:

- تفضل يا شيخ منصور.. تفضل يا حاج راضى.

قال ذلك بطريقة تمثيلية كي يخبرهم بأنه يعلمهم حتى قبل أن يراهم، يتعمد ذلك كي يلقى بالرعب في قلوب زائريه، بعدها يسهل التعامل معهم، يستجيبون لمطالبه مهما كانت.





لـم يتحدث السـيد راضى بكلمـة واحدة منـذ دخوله إلـى المكان
لـم يكـن يتخيل أن علـى الأرض أماكن مثل هـذه، لا من حيث
المـكان، لكـن مـن حيث ما يلقيـه في النفس، يشـعر بانقبـاض
اختنـاق وكأن مـا يتنفسـونه مـن هـواء يذهـب ولا يحل محله
الحوائط مزركشـة بقطـرات دماء ناشـفة وبقايا أكواب الشـاى
غريبة تملأ المكان كان أظهرها رائحة روث ماشية.

كنبة صغيرة من خشـب الكافـور لا يزيد طولها عـن المتر وعر
خمسة وعشرون سنتيمترًا، يجلس عليها الشيخ منصور والسيد راضي
أمامهمـا على الأرض الرملية المخلوطة بأحجار صغيرة يجلس ناصور
منصتًا لكلمات الشـيخ منصور، متابعًا بأذنيه كل حركة تصدر عن السيد
راضـي حتى إنـه كان ينصت إلى صوت دقات قلبـه المتزايد دلالة على
انفعاله الشديد وتوتره، كان يتوقع منه أي فعل متهور، طبيعى أن يحدث
ذلك من أب يفقد إبنته بهذه الطريقة، لذا استعان ناصور بتعاويذ تجلب
لـه الحماية السـفلية وقتما يريد وظل يرددها فـي أعماقه بدون أن تنطق
بها شفتاه.

ينتهي الشـيخ منصور من سـرد ما حدث مشـيرًا بأصابع الاتهام إلى
ذلـك القابع علـى الأرض أمامه، بابتسـامته الجامدة التي لـم تخلو من
تشـفٍ، فها هـم كبار قريـة الكاجـوج يتضرعان إليـه، يؤكـد ناصور أنه
لا دخـل لـه بهذا الأمر، فهو لم ولن يفعل شـرًا أبدًا مـن خلال تحضيره
للجان، إنما يسـتخدمه فـي أعمال الخير فقط، هنا ينفعل السـيد راضي
ويضم قبضته بقوة مطلقًا زفرة يستشـعر الشيخ منصور حرارتها، فيربت





ناصر على ركبته طالبًا منه أن يتماسك قليلًا ثم يلقى بجملته بانفعال
لا ناصوريًا غيرك في قبلى تمة !! "

يرحف الرجل إلى الخلف مقدار خطوة حتى تقترب يداه من منضدة
خشبية خلفه بها درج واحد، يسحبه إلى الأمام ثم يلتقط منه كتابًا،
يناولونه فيجدونه كتاب الله "المصحف" يمسك به ناصور ليقسم
عليه بأنه لم يفعل ذلك، هنا ينتفض الشيخ منصور في قفزة، لا تتناسب
إطلاقًا مع سنه ولا هيئته، ليلتقط المصحف من يد ناصور، ثم يقول وهو
يعاود ليجلس مكانه:

- لسنا في حاجه إلى قسم على كتاب الله.

الحقيقة أنه تعجب لحظة أن رأي كتاب الله في مثل هذا المكان،
صرخت بداخله أشياء لا يعلم طبيعتها، وكأن كل آية، بل كل كلمة،
في كتاب الله تناديه بأن ينقذها من بين يد هذا الشيطان المصنوع من
طين، لذا قفز والتقط الكتاب، لكنه لم يفصح بذلك فقال ما قال، أما
ناصور لم يندهش مما فعله الشيخ منصور، إنه يعلم حقًا تلك الرابطة
التي تربط الشيخ منصور بكتاب الله، يعلم ذلك لا عن إيمان مماثل إنما
يعلم لأنها نفس الرابطة التي تربطه بالكتاب لكن على النقيض تمامًا،
في الاتجاه الآخر، اتجاه تقديس وآخر تدنيس. يدرك أن الشيخ منصور
يعلم ذلك جيدًا ولن يصدقه إن أقسم، إنهم يعلمون بكفره التام بكل
كلمة في هذا الكتاب، لا يهتم، ينظر نحوهما في بلادة، يُكمل الشيخ
منصور:

- لم نأتي للاتهام.. إنما أتينا للتصالح.





- تصالح مع مَن؟

- تعلم يا ناصور ولا داعي للمماطلة.. أنا على استعداد لدفع ما تريد.. أنت والمدعو فراج الذي استأجرك.

يتحدث السيد راضي للمرة الأولى بتلك الكلمات، حاول بقدر الإمكان التماسك وعدم الإفصاح عما يعتمل بداخله، قرر أن يبدأ بزيادة المال، مثل هؤلاء لن يجدي معهم حديثًا عن الأخلاق. يعم الصمت لحظات قبل أن يتحدث ناصور بصوته الفحيحي المشروخ، تخرج حروف كلماته مبعثرة عبر لسان ألدغ تعاونه الأيدي في الشرح لتوصيل المعنى، يقول:

- الأمر لا يتعلق بالمال يا حاج راضي.. لقد أصبح فراج أحد أهم أتباع ناصور الكبير.

و كأن المكان يهتز مع كلماته،فقد قالها بشكل تمثيلي اهتز جسده على إثرها، يرفع ذراعيه في الهواء وكأنه سوف يتلقى سقف الحجرة عليهما إن سقط، يعلق نظره بفضاء الحجرة لحظات كي يلقي في قلبيهما شيئًا من الرعب، لو كان أحد غيرهما لاحترما، خشية، صمته وتأمله، لكن السيد راضي لم يعد يحتمل ما يدور في هذه المقبرة العفنة، نعم لقد شبهها منذ أن دخل بالمقبرة العفنة، يضاف إلى ذلك كذب الرجل الذي أعلن أنه لا يعلم شيئًا عما حدث لابنته ولا يد له في ذلك، بل وأخرج كتاب الله ليقسم عليه مؤكدًا ذلك، وها هو بعد لحظات يعلن أنه من صنع ذلك ويؤكد أن فراج أضحى أحد أتباعه هو وشيطانه، من هؤلاء وكيف يعيشون بيننا على الأرض؟! يسأل السيد راضي نفسه،





إنه لا ينتظر إجابة، الوقت ليس وقت تأمل وبحث عن إجابات جدلية، لأن عليه وضع النقاط فوق الحروف، لذا ينفعل ويهب واقفًا، يفلت يديه من يد الشيخ منصور الذي يحاول تهدئته، يرتفع حاجباه وتنفر عيناه ويتلون وجهه باللون الأحمر متأثر تصاعد دماء الانفعال، يصرخ:

- أقسم بخالق الكون إن لم ينتهي هذا الأمر الآن لأقتلنك يا هذا.

ينكمش ناصور مكانه ليتقى أكبر جزء من شحنات الغضب الصادرة من السيد راضي، يضطرب داخله، يقرر استدعاء شيطانه ليحول بينه وبين الرجل، سوف يطلب منه أن يخرسه ويشل حركته، وقتها سوف يقف على أطلال جسده بشموخ طالبًا منه أن يتضرع إليه طالبًا عفوه، عليه أن يماطلهم لحظات حتى يُنهي تعاويذه، يقول:

- صدقونى الأمر كله الآن لدى فراج، بيده الحل والربط، وإن لم تصدقونى فلتنتظروا قليلًا حتى استدعى ناصور الكبير ليخبركم بنفسه أن اتفاقه مع فراج وليس معي.

ينتهي من جملته ثم يمد يده إلى نفس الدرج ليحمل منه كتابًا آخر، كتاب قديم صفراء أوراقه، بالية حوافه، يتعامل معه بحرص شديد، يقلب صفحاته على دفعات كمن يعى موقع الصفحة التي يريدها، صور ورسومات وطلاسم تظهر تباعًا، حتى يصل فيضع الكتاب على ركبتيه، تبدو الصفحة من بعيد للشيخ منصور تحتوى على رسوم شيطانية وطلاسم سوداء، بقع حمراء جافة وكأنها دماء تساقطت ذات يوم، يبدأ ناصور في تحريك شفتيه بشكل غريب وقد أغمض عينيه.





لا يستطيع الشيخ منصور تحمل ما يحدث، أقصى ما كان يتخيله قبيل المجيء هو أن يكون هناك حوار هادئ، يطلب الدجال بعده بعض المال، يدفعه السيد راضي ويرحلون، يعودون إلى المنزل فإذا بحميدة قد عادت إلى طبيعتها وينتهي هذا الكابوس، أما الآن فقد خرجت الأمور عما توقعه تمامًا وها هو الدجال يقرر استدعاء شيطانًا ليستشهد به !! أي إفك وضلال يتبعون، يتوجه خارجًا ملقيًا بكلمات تنم عن غضبه الشديد:

- لقد طفح الكيل.. لا يمكن أن أتواجد في مثل هذا المكان.

لم يستمع أحدهم لكلماته ولم يلحظ أحدهم خروجه من الغرفة إلى الصالة غير المسقوفة ومنها إلى الفضاء أمام المنزل، كان يتوقع أن يتبعه السيد راضي، لكن ذلك لم يحدث، استغرقت خطواته تلك حوالي خمس ثوانٍ فقط لا غير، بعدها يلتفت مفزوعًا على صوت صرخة مدوية تهز المكان حتى إنه تخيل أن صاعقة من السماء قد ضربت أطراف الجبل القريب فاهتز مكانه، يتسمر الرجل في الأرض كمن قُيد بسلاسل تزن أطنانًا. ماذا حدث خلال الثوانى القليلة التي أدار فيها ظهره؟!

لقد ابيضت عينا ناصور تمامًا فور قراءة تعاويذه، بحركة خاطفة يمد يده بمدية صغيرة إلى ذراعه المكشوف ليصنع جرحًا تنفجر منه الدماء على الفور، يفزع السيد راضي لحظة رؤيته الدماء السوداء تنفر من ذراع ناصور، لكنه لا يتبع الشيخ منصور، فقد ذهب عقله تمامًا،





تجسدت أمام عينيه حميدة ابنته تتألم وتتقلب جاحظة العينين، حتى زوجته شاهدها تسقط مغشيًا عليها من فرط فزعها على ابنتها.

أما ما حدث خلال الثواني التاليه لم يتخيله أحد على الإطلاق، لقد اقترب السيد راضي من ناصور وقد تمكن منه الحنق ودفعته رغبة شديدة في الانتقام وتطهير القرية من هذا الشيطان وأمثاله، لكنه لم يكد يتحرك نصف خطوة حتى يقف ناصور مفزوعًا ويرتد إلى الخلف حتى يلتصق بالجدار وكأنه مطبوع عليه، ينظر نحو الفضاء وقد فغر فاهه وظهرت عظام صدره بارزة سهلة الرصد، يرفع يديه في الهواء ليدفع بهما شيءًا غير مرئي، يتوقف السيد راضي مكانه متسمرًا وهو ينظر إلى نفس النقطة التي ينظر نحوها ناصور فلا يجد شيئًا، هنا تنطلق تلك الصرخة المدوية من ناصور، يهتز السيد راضي مكانه ويعود بعينيه إلى ناصور فيشاهد ما يلقي الرعب في قلبه ويرتعد مكانه.

لقد أطلق ناصور صيحته المدوية، ثم رفع يمناه التي تُمسك بالمدية ذات النصل الحاد إلى رقبته، وفي لحظة واحدة وبقوة (لا تتناسب مطلقًا مع جسده الهزيل وكأن هناك قوى خفية تمسك بيده) يسحب المدية ليذبح بها نفسه لتنطلق نافورة من الدم الأحمر القاتم لدرجة السواد، يسقط جسدًا على الأرض يتلوى مصدرًا حشرجات وتأوهات مثل ذبيحة، وعواءًا مثل كلب.

تمر الثواني ثقيلة، يعم المكان صمت رهيب، بهدوء مضطرب يعود الشيخ منصور إلى الغرفة هامسًا باسم السيد راضي، لما لم يتلق أي استجابة يقترب أكثر، مجرد أن يخطو عبر فتحة الباب حتى يقف





مذهـولًا، يرى ناصـور ملقى على الأرض مذبوحًا غارقا فـي بركة من الدماء، السـيد راضـى مثبتًا في الأرض كأحد تماثيل المسـاخيط، ذبابة واحـدة تدخل عبر كـوة جانبية في الحجرة، تحوم فـي المكان لحظات مصـدرة طنينهـا المزعـج الـذي يعـادل طنين قطـار درجة ثالثة يستعد للإقلاع من المحطة، تدور الذبابة أمام أعينهم حتى إنها تقف في الهواء فـي مواجهتهم تمامًا وكأنها تتفرس ملامحهـم باحثة عن أحد بعينه، ثم تدور نصف دورة قبل أن تهبط على بركة الدماء لترتشف منها ما تشاء.

- قتلته يا راضى؟!

كمن يعود من غيبوبة فجأة، ينتفض السيد راضى، يلتفت نحو الشيخ منصور مندهشًا، يشير بيديه نحو الجثة الهامدة، يتحدث بحروف مبعثرة وكلمـات غيـر مفهومة، وكأنه يتذكر فجـأة أن وجودهم في هذا المكان خطأ كبير منذ البداية، يُمسك بيد الشيخ منصور ويجذبه خلفه ليخرجا، يقول له:

- تعالى يا شيخ منصور.. لنخرج من هنا أولًا.

فـي طريـق عودتهمـا إلـى منـزل السـيد راضى يشـرح له مـا حدث بالتفصيـل، يندهش الشـيخ منصور ويتوقـف أكثر من مرة مسـتفهمًا أو معبرًا عن دهشـته، لكنه لا يجد ما يكذب به السـيد راضي، أيضا لا يجد مـا يجعله يصـدق روايته، يصمت حائـرًا، لولا رغبـة بداخله على فعل الخير لترك الرجل ورحل، إن ما يحدث الآن لم يتعرض له من قبل على الإطـلاق ولم يجمح به خياله ذات يوم ليتخيل أنه سـوف يمر بأحداث مثل تلك.



وصلا المنزل وقد غلبهما الإرهاق وخيم عليهما الصمت، علما أن الدكتور وليد أتى بسيارة الإسعاف وحمل حميدة إلى المستشفى وقد رافقتها أمها، لا يستطيعان التحرك للحاق بهما، يجلسان في حجرة الاستقبال، من بين آيات القرآن، التي يتلوها الشيخ منصور همسًا لتعود عليهما بالطمأنينة، يطلب فنجانًا من القهوة لعل مادة الكافيين تعود إليه بعض تركيزه، يوافقه السيد راضى ويطلب لنفسه أيضًا.

لم يتحدثا طوال ارتشاف القهوة، لم يشعرا بطعمها، كانا يرغبان في استيعاب ما يحدث، بعد مدة يتحدث السيد راضى:

- وكأن يدًا خفية أمسكت بيده وحركتها بتلك الآلة الحادة بقوة على رقبته يا شيخ منصور!!

- تلك نهاية عادلة، الموت انتحارًا.. والآن.. ما العمل؟

- نبحث عن المدعو فراج.. و..

- قبل أن تكمل يا حاج راضى.. الأمر أضحى غاية في الصعوبة..

- كيف؟!

يعتدل الشيخ منصور في جلسته ويفرد صدره وكأنه يتيح مجالًا أوسع للهواء، يؤكد في البداية على خطورة الوضع، يبدو أن الدجال ناصور قد أخل بأحد شروط الخضوع التام للجان، لأن طريقة قتله توحى بوجود يد خفية، معلوماتى عن ذلك المارد المسمى ناصور، وهو الجنى الذي أخضعه الدجال، تؤكد بأنه ليس من السهل إخضاعه، بل إن شروط تحضيرة تتطلب خضوعًا بشريًا مع تقديم الكثير من الوعود





التي تجعل منه ملكًا يأمر فيطاع، ذلك مقابل القليل جدًا من الأمور التي يقدمها، وهي أمور قليلة العدد بالنسبة له، لكنها بالنسبة لبنى البشر أشياء عظيمة، لكن.. يأتي يوم ينفر فيه ذلك المارد، يتمرد.. ذاك طبعه يتمرد على الإنسى فيدمره، يبدأ في ذلك سريعًا إن ظهر البديل، وفراج يبدو أنه ذلك البديل الذي ساعد في وضع نهاية ذلك الدجال ناصور.

يضطرب السيد راضى عند سماعه ذلك التحليل من الشيخ منصور، الأمور تبدو معقدة تمامًا، فلو أن فراجًا هو الإنسى الخاضع لناصور، فذاك يعنى صعوبة التفاوض معه، بل استحالة ذلك، الآن فهم سبب تلك الجرأة التي جعلت فراج يتقدم للزواج بحميدة، تبًا لكم ولشياطينكم، ينفعل السيد راضى ويقف صارخًا:

- سوف أقتله يا شيخ منصور.. سوف أقتل فراج لأريح الأرض منه.

يقف الشيخ منصور محاولًا احتواء السيد راضى، يربت على ظهره ويضغط بخفة كى يجلس ثانية، ثم يقول:

- إهدأ يا حاج راضى.. الأمر جد رهيب ولا يتحمل أي تهور.. فإن قتلته ولا تزال حميدة ممسوسة بذلك الجنى الشرس.. مع من نتفاوض؟ وكيف نحل الأمر؟!

يتأمل السيد راضى كلمات الشيخ منصور، يرفع حاجبيه ذهولًا، يشعر بعجز رهيب، ألهذا الحد يتمكن منه أحد الجرابيع الذين لم يحلموا يومًا بمجرد التحدث معه، لولا أنها حميدة، لكان هناك تعامل آخر لم تشهده الكاجوج من قبل، لو كان التعامل معه هو شخصيًا





لاستطاع تدمير خصومه. يتماسك وهو يفرك يديه ببعضهما ويسأل الشيخ منصور:

- ماذا ترى يا مولانا؟

- نبحث عنه ونناقشه.. نتفاوض يا حاج راضي لنصل إلى أقل الخسائر.

- الآن..

يقول السيد راضي ذلك بقوة وحسم وهو يفرد جسده واقفًا مرة واحدة، يخطو في قفزتين نحو غرفة جانبية، وهو يقول بدون أن يلتفت:

- دقيقة يا شيخ منصور.

كان الشيخ منصور قد وقف بالفعل مع وقوفه، ينتظره وقد داخله الشك في اختفاءه المفاجئ، فلن يدخل تلك الغرفة مثلًا لاستبدال ثيابه، أو كي يحمل حافظة نقوده التي نسيها في غمرة الأحداث، فلا هو أو غيره يمتلك رفاهية التفكير في مثل هذه الأمور في خضم تلك الأحداث الرهيبة التي يمر به. لكن تُرى.. لِمَ تركه فجأة هكذا وقفز بخفة أرنب بري وهو المجهد بعد ليلة ليلاء»؟!!

لم يتركه السيد راضي في حيرته كثيرًا، سرعان ما عاد، يتحرك ناحية باب الخروج مشيرًا إلى الشيخ منصور بأن هيا، يتفرسه الشيخ منصور جيدًا علّه يقرأ ما كان يفكر فيه، لكن ملامح الرجل الصارمة لم تدع له فرصة التخمين، يلاحظ راضي توقف الشيخ منصور لحظة وهو يتأمله، بحركة لا إرادية ترتفع يده اليمنى لتتحسس جنبه الأيمن، تهبط عينا



الشيخ منصور إلى ذلك الجزء الذي يتحسسه السيد راضي، يراه بارزًا عن باقي الأجزاء، جلبابه نافرًا في هذا الموضع، يرى يده تتحسس شيئًا صلبًا، لقد صدق حدسه تمامًا، داخل السيد راضي لن يرضى بالهزيمة أمام فراج، إن لم يصل معه إلى حل مباشر وسريع سوف يقتله.

يقترب الشيخ منصور من السيد راضي الذي يفسح له المجال للخروج، لكن الرجل لا يخرج إنما يمد يده داخل تلك الفتحة اليمنى في جلباب راضي الذي ينفر لحظة مرتدًا إلى الخلف، لكن يد الشيخ منصور كانت تحمل صرامة شديدة وهو يقول:

- نذهب لنجد حلًا يا سيد راضي.. لا لنخلق كارثة أخرى.

- لكن..

ينزع الشيخ منصور من جراب جلدي علّقه الرجل في كتفه الأيمن مسدسًا أسودًا عيار تسعة مللي، يتأملان المسدس الجاف الثقيل الصامت الذي يحمل رائحة الموت الأسود مثل لونه القاتم، يُفرغ خزنته من طلقاتها إلى راحته اليسرى بشكل ينم عن خبرة حقيقية بهذا السلاح، يضع حفنة الطلقات في أحد جيوبه الداخلية ثم يضع المسدس في أحد أدراج منضدة جانبية، بعدها يشير إلى السيد راضي بالخروج، صامتًا يتبعه راضي، لم يكن في حالة تسمح له بالاعتراض أو حتى اتخاذ القرارات العشوائية التي قد ينتج عنها كوارث حقيقية كما أخبره الشيخ، وكثيرًا ما نترك زمام الأمور وقت الأزمات في يد آخرين، كي نجد مَن نعلق عليهم النتائج إن كانت سلبية.





بعد نصف ساعة تقريبًا يصلان إلى ذلك المنزل القديم الذي يسكنه فراج، جدران عريضة من الطوب الأحمر تحمل آثار عشرات السنين، باب خشبى كان من سنوات طويلة يحمل اللون الأخضر، عندما يُفتح تجد نفسك مضطرًا للهبوط ما يعادل درجة كاملة، لقد ارتفع الشارع عبر مرور الأيام طبقات كثيرة، قديمًا كان يُصعد إلى هذا المنزل عبر درجتين، يطرق الشيخ منصور الباب عدة طرقات وينتظران لحظات، يأتيهما صوت يسأل عن الطارق عبر نافذة تقع على يمين الباب، النافذة خشبية أيضًا، مرتفعة ومقسمة إلى نصفين، يبدو أن الأعلى لم يفتح من سنين مضت، فقد بدت بيوت العناكب عليه غير آبهة بذلك الفاصل بين الدرفتين، كان الصوت الآتى من الداخل صوتًا أنثويًا باليًا، تُفتح إحدى درفات الجزء السفلى من الشباك وتبدو عبر الفتحة الضيقة سيدة عجوز على وجهها بقايا وشم أخضر قاتم، سمراء مجعدة البشرة ولا تزال يدها تمسك بالدرفة المفتوحة، بأعين مريضة يبدو أنها دائمة الدمع تتفحص الطارق.

يقترب منها الشيخ منصور يسألها عن فراج، بعد لحظة صمت تعبر فيها عن دهشتها، لِمَ يسألان عن ابنها، تعرف هيئة أقرانه، يقرأ السيد راضى صفحة وجهها الدهشة، بينما ينازع انفعالًا رهيبًا لا يحتمل التأجيل أو المماطلة، يخطو حتى يكاد نصفه العلوى يعبر النافذة المفتوحة، يقاوم رغبة يمناه في أن تقبض بقوة على رقبتها، ومقاومًا رغبة لسانه في الانطلاق بالتهديد بالقتل إن هي لم تفصح عن مكان ابنها الآن.





عبر خبرة سنين طويلة، وعبر بقايا عاطفة أمومة، لا تزال داخل جوانبها وزواياها، تستشعر العجوز خطرًا خلف الرجلين، أمرًا كارثيًا قد يحدث الآن، إن هي دلتهم على مكان ابنها، وإن هي أنكرته أيضًا، ماذا تفعل الآن؟!

***

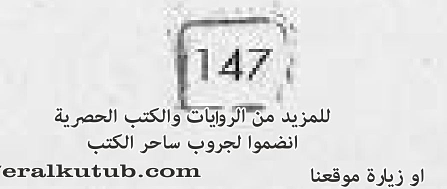


(14)

منيرة

في اليوم التالى تلتقى ليلى منيرة في محل المشغولات وبعد دقائق الخرجان معًا للجلوس على كورنيش النهر تغمرهما شجرة ضخمة بظلها، بينما تغرد عشرات العصافير بداخلها صاخبة وكأنها تعانى خطبًا ما وتبحث له عن حل عبر نقاش جماعى غير منظم.

يبدو أن منيرة كانت تحمل في أعماقها آلامًا مبرحة، داخلها يغلى ولابد له من أن يفور ويطرد جزءًا كبيرًا من محتواه لئلا ينفجر، لكنها كانت تحبسه لأنها لم تجد ذلك المتلقى الذي تتحدث إليه بما يحتمل داخلها، أما وقد قابلت ليلى، تلك الفتاة الاسكندرانية من أصل نوبى، وما هي إلا أيام قليلة وترحل عن أسوان، إلا ووجدت فيها ذلك المتلقى الآمن، فسوف تفرغ محتواها وترحل، لابد أنها سوف تشعر براحة ما، خاصة أن لا أحد في الكاجوج ثمة يرغب في أن يتذكر ما حدث مؤخرًا، فقد صُبت لعنات لا يعلمون مصدرها على القرية كلها،





وما إن انتهي الأمر بتلك الدماء حتى قرروا جميعًا تخطى تلك الصفحة وطيها بل ودفنها في أعماق الزمن.

تتماسك ليلى لئلا تفصح عن داخلها المشتعل وهي ترى ظلال والديها يحومان حولها، تود لو تسأل منيرة عن كل التفاصيل، كبتت بداخلها آهة وأنّة، ترسم على وجهها بسمة سوف يعرف المتأمل مدى زيفها مباشرة، لكن منيرة المشغولة بداخلها المحترق لم تكن في حالة تمكنها من ملاحظة تلك الابتسامة والبحث عن مصدرها.

- ما بكِ يا منيرة.. يبدو علي وجهكِ هم وألم؟

تصمت منيرة قليلًا وكأنها تأتى بكتاب الذكريات لتفتحه وتقرأ منه، تقول بصوت خفيض مخلوط بأنفاسها الحارة النابعة من داخلها الملتهب:

- أتى إلينا المهندس عمر، الذي حدثتك عنه بالأمس، من القاهرة ليعمل في فرع الشركة، والدى يعمل خفيرًا في الموقع، كان رجلًا مهذبًا هادئًا يتحدث همسًا..

أفاضت في وصف الرجل بشكل أشعل قلب ليلى، إنها تعلم.. بل تحفظ والدها جيدًا، كل تلك الصفات تقف شامخة في جانب ورأسه المقطوع الملقى في مدخل العمارة تراه في جانب آخر، تئن أنينًا مكتومًا وهي تناشدها أن تستمر في حديثها، بالفعل تكمل منيرة قائلة:

- بعد عدة أيام من وصوله إلى هنا علمتُ من والدى أن خلافًا حادًا قد وقع بينه وبين فراج كبير العمال، لكن مثل هذه الخلافات في العمل





أمر وارد باستمرار والأيام قادرة على طيه خاصة إذا تم تعديل الأخطاء والمخالفات في العمل، وهذا ما أصر عليه المهندس عمر ولم يتسلم أي جزء من العملية إلا وفقًا للمواصفات الهندسية بشكل أذهل والدي، وما أذهلنا أكثر أننا كنا نتوقع ثورة عارمة من فراج وعماله، لكن حدث العكس تمامًا، فقد ظهر فراج هادئًا مطيعًا لكل أوامر المهندس عمر، حتى نسينا جميعًا ذلك الخلاف.. بعد أيام قليلة حدثت الكارثة.

لم تتمالك منيرة نفسها فانفجرت باكية، تهدئها ليلى التي لا تزال تقاوم داخلها راغبة في المعرفة، تخرج منديلها لتجفف دموع رفيقتها، تذهب إلى بائع في كشك صغير بالجوار وتأتي بعلبتين عصير تفتح إحداهما لتضعها بين يدي منيرة علها تطفئ نيران داخلها قليلًا بينما تمسك الثانية، لا تجد بداخلها رغبة في تذوقها.

تعود منيرة بالذاكرة إلى يوم الحادث، تروي وكأنها تعيش الحدث لحظة بلحظة، كانت قد ذهبت في ذلك اليوم إلى والدها في الموقع تحمل طعام الغذاء كعادتها، جالست والدها قليلًا حتى ينتهي من تناول طعامه، تتأمل المكان حولها، كانت فسحتها اليومية، بالاضافة إلى ذلك اليوم الذي تذهب فيه إلى محل المشغولات في المدينة، من بعيد تشاهد المهندس عمر آتيًا مسرعًا، ما إن يقترب حتى يبدو وجهه عابثًا على غير عادته، دائمًا كان بشوشًا في وجه منيرة، يلقي عليهم تحية مقتضبة ويدخل إلى الاستراحة ويغلق بابها خلفه بشدة.

أسراب الطير تعود مسرعة إلى أوكارها مع انسحاب شمس اليوم، تلملم منيرة بقايا مائدة والدها وتحملها لترحل، فقد توارت الشمس





تمامًا خلف نتوءات الجبل وسوف يصدح المؤذن مناديًا لصلاة المغرب حالًا، يعتدل الخفير شدوان من جلسته ليرافق منيرة حتى مشارف القرية كعادته، يمر بها عبر زراعات القصب ثم يعود إلى مقر عمله، لكنه في تلك اللحظة يسمع صوت المهندس عمر يستدعيه بلهجة آمرة، لا يجد الرجل ما يقوله فيتحرك نحوه، تقف منيرة حائرة لا تجد ما تفعله.

من داخل الاستراحة يتناهي إلى سمعها صوت المهندس عمر يطلب من والدها الذهاب حالًا إلى البناية التي يتم فيها العمل على أطراف الموقع، يظل إلى جوارها حتى تأتي سيارات الخرسانة وعمالها، لقد تسلمها من العمال ويشك في أن فراج ورجاله سوف يسرقون الحديد كعادتهم. سيارات الخرسانة قد تأتي بعد ساعة أو أكثر وفقًا لظروف الشركة.

يخرج شدوان حائرًا، ألن ينصلح فراج أبدًا، السرقة في دمه، تنتقل إليه عدوى الغيظ والحنق، يقترب من منيرة، يخبرها بأن المهندس عمر قد كلفه بعمل مهم الآن وعليها أن تعود وحدها، تبتسم لتبث في قلبه الطمأنينة وترحل عن المكان، كثيرًا ما كانت تطلب منه أن يظل مرتاحًا ولا يجهد نفسه في السير معها، تعرف طريقها جيدًا ثم إن الطريق آمنة والجزء المجاور لزراعات القصب لا يخلو من المارة والفلاحين العائدين إلى منازلهم في هذا التوقيت.

لم تكن منيرة ولا شدوان والدها ولا المهندس عمر في الاستراحة يعلمون أن هناك عينًا شيطانية تراقبهم، عيون غائرة ترقبهم من بعيد،



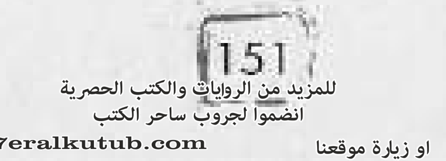


عيون فوق جسد أسود لا يتحرك في الظلام بينما يقف إلى جواره كلب ضخم أسود يسيل لعابه اللزج من بين أنيابه الحادة.

تتحرك منيرة بشكل طبيعي في طريق عودتها بينما يتحرك شدوان ليختفي بين المبانى غير المكتملة، يقف المهندس عمر في شرفة الاستراحة يتابع، قبل أن تختفي منيرة تلتفت بنظرة لا إرادية لمسح المكان بعينيها، تشاهد المهندس عمر في الشرفة وقد ركز عينيه عليها، تبتسم ثم تسير في طريقها، تحمل حقيبة الطعام الصغيرة في يدها وتسرع الخطى، تقرر أن تشغل تفكيرها بالأشغال اليدوية المطلوبة منها وكيف تنجزها سريعًا.

رائحة غريبة تهب على المكان، يبدو أننا نمتلك حواس لم نتعرف على طبيعتها بعد، منها مثلا حاسة الشعور بالخطر القادم، ينقبض القلب ويشتعل الفكر وتسيطر علينا حالة من التوتر والقلق، وبالفعل تحدث أمور فظيعة، تلك كانت حال منيرة وهي تقترب أكثر وأكثر من حقول القصب، لقد اختفت الشمس تمامًا وانهمر ظلام الليل مثل وحش أسطورى يفرد جناحيه على المكان، مسافة صغيرة في الطريق فيها زراعات القصب على الجانبين، سوف تسرع منيرة خطاها في تلك المسافة بعدها تشرف على القرية.

لم تخطو غير خطوات قليلة حتى تسمع نباح كلب خلفها، ترتعد وتطلق صيحة تحاول كتمها بسرعة، تلتفت فلا تجد هذا الكلب، يبدو أنه مختفيًا في قلب الزرع، تبحث عنه في كل مكان فلا تجده فتسرع الخطى، ينبح مرة ثانية، تلتفت خلفًا.





ما حدث في اللحظات التالية كان سريعًا ورهيبًا في آن واحد، فجأة يعلو نباح الكلب يتردد في الأفق، من الخلف تحتوى منيرة يد قوية عنيفة من أعلى صدرها ويد أخرى تضع على فمها وأنفها قطعة قماش مبللة، تصرخ وتصرخ وهي تنتفض لتنزع جسدها، لكن صوتها لا يخرج بسبب تلك القماشة التي تكتم فمها ولا تستطيع الانفلات من تلك اليد الحديدية التي تقبض عليها من الخلف، تشعر بخدر رهيب في جسدها، قبل أن تغيب عن الوعى تمامًا تدرك أمرين لن تنساهما ما تبقى لها من حياة على تلك الأرض، الأمر الأول رائحة المادة المخدرة التي غُمست فيها قطعة القماش، ورائحة الأنفاس الساخنة التي تأتي من خلفها، أنفاس شخص أكل "بصل" ولم ينظف فمه بعد الطعام، ثم غابت عن الوعى.

بعد مرور ساعة على ذهاب الخفير شدوان إلى جوار البناية التي أمره المهندس عمر بالبقاء إلى جوارها، وقد جهز سلاحه واستعد لمواجهة أي تعدى وهو يجلس الآن بجوار نار أشعلها في قطع صغيرة من بقايا خشب المعمار، تنير له وتؤنس وحدته، يتذكر ابنته منيرة، يستخرج تليفونه المحمول ليطمئن عليها، وأيضًا كي يشغل تفكيره المشتعل بأمر آخر غير ذلك التحفز الذي يكاد يذهب بأعصابه.

جرس حتى ينتهي ولا تجيبه منيرة، مؤكد أنها مشغولة في أمر ما وقد تركت هاتفها بعيدًا عنها، دقائق ويعاود الاتصال، لكن نفس الوضع.. جرس حتى النهاية ولا مجيب.. يتسلل القلق إلى داخله ببطء كما تبدأ





مواصف الرمال عبر الصحراء. عشرات المرات يتصل بابنته ونفس الإجابة، يشتعل داخله ولا يستطيع السيطرة على ذاته.

يتذكر أن رقم تليفون أحد جيرانه معه فيتصل به، يجيبه الرجل، يستأذنه شدوان في أن يطرق باب بيته ويطلب من منيرة أن تجيب على التليفون. بعد دقائق يتصل به الجار ويخبره أنه قرع بابه كثيرًا ولم يجبه أحد، يبدو أن منيرة ليست في الداخل، الظلام ينتشر في أرجاء المنزل. يُنهي الاتصال وقد تحول إلى جمرة من القلق والغضب، مؤكد قد حدث لها مكروهًا، لو أن فراج أمامه لقتله الآن، فلو لم يكن حقيرًا ما جعل المهندس عمر يطلب منه هذه المهمة، نقم أيضاً على المهندس عمر، فلم يكن هناك داعى لغضبه الشديد ولو أنه تركه دقائق يرافق فيها منيرة ما أصابها مكروها. يزفر بشدة ويلعن الجميع في داخله، يتصل بالمهندس «عمر» ليخبره بأنه سوف يترك الموقع ليبحث عن ابنته، لكن المهندس عمر لا يجيبه، جرس حتى النهاية، ماذا يحدث؟!

ينتفض الرجل مهرولًا، يستشعر خطرًا حقيقيًا، رائحة غريبة تهب على المكان، أقدامه لا تقوى على حملة بسبب انفعاله الشديد، فكيف يستطيع العدو؟! لم يتحرك غير عدة أمتار، يأتيه صوت من الخلف، إنه صوت فراج، مثل شبح يتقدم من قلب الظلام، من داخل البنايات الجديدة، يقف شدوان مرتبكًا، يا لك من حقير يا فراج، تأتى الآن لتسرق !! لستُ في حالة تسمح بأي نقاش، مقدارك عندى رصاصة واحدة، يتحدث شدوان بتلك الكلمات في داخله بينما يقترب فراج أكثر، لا تزال ملامحه مطموسة، لا يستطيع المرء رؤية معالمه بوضوح



ولا يستطيع أن يحدد ماهية انفعالاته لا سيما أن بقايا النار التي أشعلها شدوان أصبحت الآن خلف فراج فزادت من جعل وجهه أكثر سوادًا.

- إلى أين يا عم شدوان؟

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا فراج؟

- فقدتُ تليفوني المحمول وعدت لأبحث عنه.. ما بك.. أراك متوترًا؟

- منيرة.. لم تصل الدار ولا تجيب على التليفون.

ينفعل فراج فجأة ويسأل:

- منيرة؟! هل تركتها تعود إلى الدار بمفردها يا عم شدوان؟!

- كنتُ في طريقي معها لكن المهندس عمر استدعاني فجأة.

- استدعاك لمراقبة المكان خوفًا من السرقة.. (بانفعال شديد) هذا الرجل ليس سهلًا أبدًا ولا أعلم لماذا تبلينا الشركة بهذه النوعية.

- ماذا تقصد يا فراج؟!

يقترب من شدوان وينظر يمينًا ويسارًا ثم يتحدث هامسًا مضفيًا على كلماته هيبة ما:

- طلب مني أن يتركني لأحمل ما أريد من مواد التسليح والبناء مقابل أن أتقاسم المال معه، ولما رفضت ذهب غاضبًا متوعدًا.

لم يكن شدوان في حال تسمح له بأي جدال، ما يقوله فراج لا يتطابق مع سلوك الرجل منذ أن وطئت قدماه أرض الموقع منذ عدة أسابيع، منيرة ابنته كانت تسيطر على جل تفكيره في تلك اللحظات،





بالعلم طرف ثوبه ليشمر عن حذائه ذي الرقبة الطويلة، يلتفت تاركًا فراج، يخطو مسرعًا وقد رفع يده التي تحمل تليفونه المحمول، يبحث عن اسم ما ليتصل به.

يتبعه فراج مسرعًا، يقول وهو يشخص ببصره إلى الأمام:

- عندك حق يا عم شدوان، منيرة هي الأهم.. نجد منيرة ثم نتفرغ لذلك الرجل.

يتوقف شدوان لحظة ليصعده بنظراته، يود لو يفهم فيما يفكر فراج أو إلى ما يرمى، لكن انفعاله يغلبه فيتحرك، في هذه اللحظة يكون قد وجد الاسم الذي يبحث عنه، يتصل به، إنه أكبر أبنائه، في عجالة يخبره بما حدث، ينفعل الابن، سوف يخبر باقى رجال العائلة ويتقابلون جميعًا للبحث عن منيرة عند زراعات القصب.

كانا قد اقتربا من استراحة المهندس عمر، يشير فراج خفية نحوها، يقول:

- لتخبره يا عم شدوان، يجب أن يعرف نتيجة أوامره.

- اتصلتُ به ولم يرد..

يجيبه شدوان وهو يتوجه ناحية الاستراحة، يود لو يكون عنده أي معلومة عن ابنته. يطرق باب الاستراحة عدة مرات حتى يأتيه صوت المهندس عمر ناعسًا، لحظات تمر ثقيلة حتى يفتح الباب، يخبره شدوان سريعًا بما حدث، يعتذر الرجل بأنه ترك تليفونه على الوضع الصامت بعدما ثقلت جفونه.





يعـم الصمـت، عمر مكانـه يقـف لا يتحـرك.. لا يعلم مـاذا يفعل بأسلوب ساخر يلومه فراج على أن ما حدث كان نتيجة قراره المتهور وقبل أن يجيبه عمر الذي عقدت الدهشة لسانه، كيف يجرؤ هذا العامل أن يتحـدث إليـه بهـذه الطريقة، ثم إنه مـا كان يعلم أن شـدوان كان في طريقـه لتوصيل منيرة إلى أطراف القرية ولو علم بذلك لوافق بدون أي نقـاش، فالأمر لن يتعدى نصف السـاعة وكانت في توقيـت بداية الليل وهـو توقيت لا يغرى اللصوص على البدء في السـرقة، يود لو يتحدث بكل ذلك لكن شـدوان ترك المكان بسـرعة متخـذًا طريقه نحو القرية بنفس السخرية يقول فراج مخاطبًا المهندس عمر:

- ألن تأتى معنا.. أم ستنتظر في الدار مثل الحريم؟!

يتحـرك فـراج، قبـل أن يصـرخ المهندس عمـر في وجهـه، ليلحق بشـدوان الـذي ابتعد عدة خطـوات كانت كافية بألا يسـمع جملة فراج الساخرة، يقترب فراج ليسير حذو الرجل، يهمس مغمغمًا بكلمات:

- يقف في مكانه متصنعًا النوم، لا يريد حتى أن يتحرك معنا ليبحث عن ابنتك يا عم شدوان.

يقف المهندس عمر مشدوهًا بعد سماعه تلك الكلمات الأخيرة من فـراج، لا يجد ما يتحدث به، لكنه يجب أن يتخذ موقفًا ما، عليه بالفعل أن يتحـرك مع الرجل باحثًا عن منيرة، يتذكـر ابنته ليلى، طبيعى جدًا أن ينفعـل رجل فقـد ابنته لتوه وأن يلقـى باللائمة على شـخص آخر حتى تتضح الأمور وتكشف الخبايا، وقتها سوف يلقن فراجًا درسًا لن ينساه،





أما الآن فعليه أن يلحق بشـدوان ويخفف عنه حتى يجدوا منيرة. ينادي شدوان ويطلب منه الانتظار لحظات حتى يستبدل ثيابه.

يقف شـدوان وإلـى جواره فـراج الذي ما يـزال يلقـي بكلماته عن المهنـدس عمر وكيف سـينتقم منه إن حدث أي مكـروه لمنيرة، يُكمل قائلاً:

- طبعًا يا عم شـدوان.. منيرة مثل أختي، شرفها من شرفي. الشرف غالي يا خال.

يرتعد شـدوان لحظة سـماعه لكلمة «الشـرف» حتى إنه يشعر بثقل رهيب في لسانه، يرتعد داخله، يتضرع في صمت بأن تكون ابنته بخير. يأتيه اتصال من أكبر أولاده بأنهم على حافة القرية بالقرب من زراعات القصب وأنه يتصل بتليفون منيرة منذ أن أخبره وجرس حتى النهاية ولا تجيب، يسـأله والده عن الإضاءة، يجيبه بأنهم حملوا البطاريات وعدد من المشاعل، يُنهي المكالمة، سوف يلتقيان بعد دقائق.

يقتـرب المهنـدس عمـر ولا يـزال يعـدل من ثيابـه، يتحـرك الثلاثة بسـرعة، تثـار خلفهـم سـحابة من تـراب ناعـم لا تظهر بسـبب الظلام الكثيف لكن رائحتها تعم المكان. يصمت فراج وإن كان يتأفف مظهرًا ضيقـه، لا يوليه المهندس عمر أي اهتمام، فقد أجل أمره إلى حين، كل ما يقوله الآن هي عبارات مطمئنة لتهدئة شدوان.

دقائـق قليلة يلتقي الجمعان على الطريق المحاذية لحقول القصب، طريق ضيقة لا يزيد عرضها عن المترين يحوطها القصب على الجانبين، النبات مرتفع بدرجة تحجب حتى النجوم اللامعة في السماء، من بعيد





يأتي عواء ذئاب الجبل ونعيق البوم، طقطقة نيران المشاعل مخلوطة بهمهمات الرجال تعم المكان، يسألون شدوان عما حدث فيخبرهم بسرعة بكل التفاصيل، حينما يأتي على الجزء الخاص باستدعاء المهندس عمر له وتكليفه بمراقبة البناية الجديدة، يصرخ فراج:

- هنا الكارثة يا رجاله، واضح إن المهندس عمر كان يريد أن ترحل منيرة وحدها.

يصرخ المهندس عمر ناهرًا فراج بشدة حتى إنه بشكل لا إرادي يهجم عليه فيمنعه أحد الرجال بشدة تجعل الرجل يرتبك مكانه، لا يعلم كيف يفكر هؤلاء في مثل هذه المواقف، مؤكد لديهم معتقدات ما، حمية تجعل منهم قوة لا عقل لها، يقف صامتًا أمام نظرات الجمع التي صُوبت نحوه. يصرخ فيهم شدوان:

- لنتحرك.. مجموعة من هنا ومجموعة هناك.

يقول ذلك ويتوجه إلى الحقول التي تقع على يسار الطريق، يتبعه فراج والمهندس عمر وعدد من الرجال بينما تنطلق المجموعة الثانية لتقتحم الحقول التي تقع على يمين الطريق.

لو شاهدنا المنطقة عبر مكان مرتفع أو حتى عبر كاميرا معلقة في منطاد لشاهدنا كتل النار والضوء تتحرك في كل مكان ولاستمعنا إلى بعض أصوات تنادي «منيرة»، وعلى نحو غريب يظهر الكلب ناصور إلى جوار فراج، يكتم المهندس عمر سؤالًا عن وجوده المفاجئ وينشغل بعملية البحث، كانوا يستعملون العصي ويضربونها في الأرض برفق، فقد كانت أوراق القصب الجافة تتواجد في كومات





كومات، وقد ساور بعضهم الشك في وجود جثة منيرة أسفل كومة من تلك الكومات، طالت المدة حتى بدأ اليأس يدب في نفوس البعض وزاد التوتر والانفعال ليحتوى قلب شدوان حتى يكاد يعتصره تمامًا ثم يتركه مثل خرقة بالية.

- هــــنـــا..

صرخة انطلقت من أحدهم، يقف مذهولًا وقد قرّب بطاريته من ذلك الجسد الممدد أمامه، يهرولون جميعًا نحو مصدر الصرخة الأخيرة، تشلهم الصدمة لحظات وهم يتأملون غير مصدقين ما يرونه جميعًا، منيرة ملقاة على الأرض فوق أوراق القصب الجافة عارية تمامًا، ثيابها ممزقة وملقاة إلى جوارها، دماء متناثرة على فخذيها، شعرها مشعّث على رقبتها وصدرها، يصرخ شدوان صرخة مكتومة وتخونه قدماه فيسقط أرضًا، يخلع الابن الأكبر جلبابه بسرعة ويهوى إلى جوار أخته ليغطيها، ثم يفيق خلال نفس اللحظة ليُلبس منيرة الجلباب.

لقد غلبتهم الصدمة، شلت تفكيرهم تمامًا، ذهب كل منهم خلف دماء الشرف المتناثرة على فخذيها ولم يسأل أحدهم عن حياتها.. ألا تزال على قيد الحياة أم فارقتها؟

أخيرًا يلحظ الأخ أنفاس أخته بينما يحمل جسدها النحيف على كتفه، تسعل منيرة مرات متتالية وينتفض جسدها، يضعها أخوها مرة ثانية على الأرض، تفتح عينيها متألمة، تشعر بدوار رهيب، ترى أشباحًا كثيرة خلف بقع من الضوء واللهب، هناك في عمق الصورة أعواد نبات القصب شاهقة بأوراقها التي تصنع أقواسًا حادة.





قبل أن تفيق تمامًا، يصلها أنين مكتوم، همهمات واستهجان من أصوات متداخلة، كلب ينبح بصوت خفيض وكأنه يدرك تفاصيل الكارثة، يصرخ أحدهم فجأة، إنه فراج، يشير نحو ثياب منيرة الممزقة، يتطلع الجمع إلى النقطة التي تشير إليها سبابته، يخيم عليهم صمت الدهشة والجهل، يشاهدون جميعًا قلماً فضيًا ملقى على الأرض بجوار مزق الثياب، يتساءلون :

- قلم مَن؟

يجيب فراج قبل حتى أن ينصت إلى سؤالهم:

- قلم المهندس عمر.

لحظات رهيبة تعادل ألف عام تلك التي مرت على الجمع في تلك اللحظة، كل الأنظار تلاقت على جسد المهندس عمر الذي يقف مذهولًا مشلولًا شللًا تامًا لا يدرى ماذا يفعل، كل ما استطاع أن يفعله هو أن تحركت يده اليمنى أمامه علامة النفي، وعبث لسانه باحثًا في قاموسه عن كلمات مناسبه فلم يجد غير حروف مبعثرة كلها تؤكد علامة النفي التي ترسمها يده، أما قدماه فقد حَملتاهُ إلى الخلف خطوة واحدة، وكأن تلك الخطوة كانت إشارة البدء لأن ينقض عليه الجمع مثل قطيع ضباع عثر على غزال شارد.

***



(15)

فــــــراج

يجلس فراج في صالة منزله القديم الذي ورثه عن أمه، تخيل هو، وتخيل غيره الكثير، أنه سيمتلك يومًا ما قصرًا يماثل قصور أثرياء القرية، ذلك لأنه أصبح يمتلك قوة يخشاها الكثير، أصبح يمتلكها منذ مات ناصور تاركًا إرثه الشيطاني إلى ذلك الشاب الذي وهب نفسه كاملة إلى ذلك المارد الذي يدعى ناصور الكبير، لكن ها هي السنوات تمر وحال فراج ينحدر إلى الأدنى باستمرار.

لقد انطلقت الشائعات حول إنتقال إرث ناصور الإنسى إليه، وهذا يجافي الحقيقة تمامًا، لكن إن كان ذلك يترك تأثيرًا في الناس فيجعلهم يهابونه، فليكن.. ليتركهم يعتقدون ما يرغبون. وقد يأتى اليوم الذي يرغب فيه في تحقيق مكاسب ما، تكون خشيتهم تلك أرضًا خصبة يستغلها هو ليزرع فيها خططه، فينال ما يريده إن رغب في ذلك، وهو حاليًا لا يرغب، إنه يجد متعة كبيرة عندما يُعمل عقله ويدبر ويخطط





لاجتياز الصعاب، يا له من إنسان ماكر يوم أن كاد وحاك خطة الشيطانية.

تأتي زوجته حميدة من المطبخ وقد حملت على يديها صينية صغيرة عليها طبق أرز وآخر به قطعة دجاج محمرة، أما الطبق الثالث والأخير فهو طبق صغير عميق به مرق دجاج، تضع الصينية فوق منضدة صغيرة من خشب قد تشقق في أماكن كثيرة، ترحل بهدوء بدون كلمة واحدة.

كانت حميدة تتحرك بشكل آلي، تؤدي ما هو مطلوب منها شاردة الذهن وكأنها تشاهد نفسها من بعيد أو كأنها تسير في قلب حلم، يشرد فراج متذكرًا زواجه بحميدة، تذكر يوم أن نادته أمه مضطربة:

- هناك مَن يريدك بالخارج يا فراج، الشيخ منصور والسيد راضي

قبل أن يتحرك لملاقاتهم تعترض طريقه وقد غمرته بنظراتها، يقرؤها طولًا وعرضًا، لكن نظراتها كانت كما سحابة عظيمة تلف المكان، سألته بصوت مبحوح «خير يا وليدي؟!» أمسك براحتيها، جلد رقيق على عظام جافة، يخشى الضغط عليهما لئلا يتهشما في قبضته، يضع يده اليمنى على كتفها الأيسر، بإصرارِ المنكسر طريد الأثرياء، يجيبها بقوة:

- خير يا أمي.. من اليوم كبار البلد يتمنوا رضا وليدك.

يتركها تستقبل جملته على دفعات لتفهمها على مهلٍ، يتوجه نحو الباب، بهدوء متكبر، يحاول به كسر تلك الرجفة التي سرت بداخله، يسحب ترباس الباب مصدرًا صوتًا مثل أنين حيوان بري وقع في شرك،





يقفهما أمامه بجسديهما العريضين الطويلين في تلك اللحظات أكثر من ماضى، يقفان على عتبة الدار وهي أعلى من داخله، فأصبح فراج الطفل أمام عملاق، يرفع عينيه متأملًا، بينما ينظران إلى أسفل بحنق ورغبة في القتل تفوح رائحتها من السيد راضى، بينما يكبح الشيخ منصور حنقه محاولًا خلق ابتسامة بشوش على وجهه، ابتسامة تهدئ الأجواء وتخلق في قلب خصمهما رغبة في تبادل حوار تُحل به الأزمة.

- أنظل هكذا في الشارع يا فراج؟!

يسأله الشيخ منصور من بين ابتسامته الوليدة، يميل فراج إلى اليسار قليلًا، يشير بيمناه علامة الدخول إلى إحدى قاعات المنزل، قاعة صغيرة تحتوى على كنبة، مقعدان، منضدة صغيرة من الجريد تتوسط الحجرة، كُسيت جميعها بمفارش مصنوعة من صوف بنى مزركش برسوم لجمال وطيور ونخيل، على المنضدة منفضة سجائر عبارة عن صدفة ضخمة عليها بقع سوداء، حوافها سوداء في أكثر من مكان من أثر حروق أعقاب السجائر.

صورة وحيدة معلقة على الجدار القبلى، صورة بلا ألوان غير الأبيض والأسود، رجل مسن عارى الرأس، وجه مستطيل شاحب على رقبة طويلة تنبت من قلب دائرة جلبابه الفلاحى ذى الطوق الواسع الذي يميل من جانب ليظهر من أسفله حافة ثوبه الداخلى مغبرًا، إنه والد فراج، تلك آخر صورة له يوم اضطر لاستخراج بطاقة جديدة بدلًا من بطاقته التي سُرقت مع ما كانت تحويه حافظته، يتذكر فراج ذلك اليوم جيدًا، رغم حداثة سنه وقتها، يعود والده مسودًا منهارًا يزفر بشدة





لكنه لا ينطق بكلمة واحدة رغم إلحاح زوجته في معرفة سبب تأخره في كوم امبو وسبب ذهاب عقله بهذا الشكل، بعد ما يقرب من الساعة يتحدث الرجل مبديًا دهشة وتعجبًا، لم يكن يحكي ما حدث بقدر ما كان يتعجب كيف حدث:

- وضعت نقود المحصول كاملة في حافظتي، ذهبت إلى موقف السيارات ويدي لم تفارق جنبي ضاغطة الحافظة، وصلت إلى السيارة وركبت، لم يقترب مني مخلوق.. على مشارف الكاجوج مددتُ يدي لأخرج أجر السائق لم أجدها.

يسرد الرجل كيف اندهش في البداية وبحث في كل مكان.. في ثيابه.. السيارة.. تم تفتيش كافة الركاب حتى سئم منه الجميع ونهره السائق وهو يأمر الركاب بالصعود إلى السيارة ورحلوا جميعًا، يصل إلى مسامعه لعن السائق لتلك النوعية من الركاب الذين يفتعلون المصائب كيلا يدفعون الأجر. يعود الرجل إلى موقف سيارات الأجرة في كوم أمبو ويبحث ويسأل و.. لكنه ما نال غير عبارات سخرية ومواساة تختلف باختلاف صاحبها، بعدها يعود إلى منزله ليقبع به عدة أيام لا يفارقه، إنه لا يمتلك غير قوته البدنية، يخرج ليبيعها المستأجرين، يفلح لهم أرضهم ويرعى نبتها حتى يُثمر، يحصدون ويبيعون، ينال أجر يومه الذي لا يسد رمق أسرته على صغرها، يجازف يومًا ويستأجر فدانًا ليزرعه ويفلحه، ثم يحصده ويبيعه ليعود بالمال، لكنه زرع وفلح وحصد وباع ولم يعد بالمال، لماذا لا يسرق اللصوص الأغنياء؟! لماذا يسرقون الفقراء؟! يتساءل الرجل وتستقر





الكلمات تبحث عن إجابات في ذهن الصبي، فراج، الذي يزداد مع الأيام حنقًا وتنبت بداخله نبتة الكراهية، يرويها بماء غضبه المتنامي مع فقره، يود لو يأمر كل أغنياء العالم برعاية الفقراء. يسأله أحدهم ذات يوم في المقهي، وهل من الإنصاف أن يظل فقراء العالم فقراء، يجب أن يتحركوا ويجتهدوا ويعملوا، لا يوجد سبب على الإطلاق كي يظلوا عالة على الأغنياء. ينفعل فراج ويكاد يضربه لولا تدخل البعض، يصرخ من بين أيديهم التي تحتضنه «لم يترك الأغنياء للفقراء ما يعملون به غير السخرة لديهم، إن تجرأ فقيرٌ وبدأ منافستهم، طحنوه تحت نعال أحذيتهم الحديدية» يجلس لاهثًا بعد كلماته تلك وقد كور قبضته وظل يدق بها على ترابيزة المقهي الحديدية يود لو يحطمها، تسقط نظراته على موقد نيران المقهي يشتعل أكثر مع هفهفة الصبي على فحمه، النار فقط تذيب الحديد يا فراج.

يتذكر والده بعد تلك الحادثة وكيف اضطر لاستخراج بطاقة جديدة وكانت تلك الصورة هدية المصور له، يومها علّقتها أمه في قاعة الاستقبال رغم رفض زوجها، لكنه كان رفضًا منقوصًا، فلو أراد عدم تعليقها، لما استطاع أحد تعليقها ولو ضاعت فيها رقاب، لكنه ارتضى بذلك فكان ينظر إليها متذكرًا سبب الصورة، بالأدق متذكرًا سرقة حافظة نقودة التي لم يجد تفسيرًا واحدًا لاختفاءها غير ذلك الرجل الذي هبط من السيارة الأجرة لحظة صعوده إليها، إنه لم يحتك به، مجرد لمسة واحدة من بعيد، يكاد عقله يطير، كيف استطاع الرجل، إن كان هو اللص فعلًا، أن يمد يده عبر جلبابه ثم إلى جيب صدريته



ويسحب حافظة النقود في أقل من اللحظة وبأخف من لمسة نسمة الهواء الصيفية، بدون أن يشعر هو؟! يقرر الرجل أن يحترف خفة اليد فلن يترك الدنيا تقسو عليه بدون أن ينال منها حقه، لكن القدر لم يمهله لتحقيق جزء من أمنيته، وعلى فراش موته يهمس في أذن فراج بكلماته الأخيرة "لن يطرق بابك أحد ليعطيك يا فراج.. تعلم الخفة.. وخذ حقك من الدنيا بأي وسيلة" وها هو فراج يتحرك لينال حميدة، صاحبة العيون الساحرة والجسد الملفوف، ابنة العز والحسب، وهي أيضًا فتاة الجامعة التي يشار إليها في قرية الكاجوج بالبنان.

لن يطرق بابى أحد ليعطينى، يتحدث «فراج» بذلك وهو يتطلع إلى ضيفيه، بكلمات قليلة متوجسة يرحب بهما، يسألهما عما يشربانه وهو يقف لإحضاره، يجذبه الشيخ منصور من كمه ليجلسه ثانية:

- لم نأتى لنشرب يا فراج.

يرفع فراج كتفيه متصنعًا براءة الجهل متسائلًا عن سبب الزيارة، هنا يشتاط السيد راضى غضبًا، لم يكن يمتلك القدرة على مماطلة وخداع فراج أكثر من ذلك، يقف الرجل كمن تحركت أسفله أفعى فجأة وهو يرفع يده مشيرًا بسبابته في وجه فراج:

- إسمع يا ولد.. لقد علمنا كل شيء، والدجال ناصور.. قُتل.. وإما أن تُبعد دجلك عن حميدة إبنتي أو تلحق بشيطانك الذي علمك السحر.

يكتم فراج دهشته عند سماعه خبر مقتل ناصور، لقد تركه منذ ساعات بعد أن أسلم له ذاته وأطلق كل طاقاته لتحقيق هدف فراج



الأوحد وهو الزواج بحميدة وكسر شوكة هذا الرجل الذي يصرخ في وجهه، يعلم جيدًا أنه يهدد ليخفي ضعفه الشديد ولو كان يمتلك القدرة على أن يقوم بأي فعل لقام به ولم يأت إليه، لكن ضعفه ساقه إلى هذا المكان، فلا داعي للعجرفة والصراخ يا سيد راضى، أنت الآن أضعف من نملة أسحقها بكعب حذائى حتى من دون أن أراها.

بصرامة لا يدرى كيف أتته يشير فراج ناحية الرجل بأن يجلس مكانه ولا يتفوه بخزعبلاته تلك، ثم يرسم على وجهه نظرة ساخرة ممزوجة بكراهية شديدة ظهرت على زاوية فمه، ينظر ناحية الشيخ منصور وهو يعود إلى جلسته التي أضفي عليها قوة وشموخًا بأن وضع ساقًا فوق الأخرى وعاد بظهره إلى مسند الظهر المصنوع من القطن الأحمر الذي بدا من شقوق ضيقة في قماشه. يتحدث بهدوء:

- شيخ منصور.. إسمعنى جيدًا.. لقد ارتكبتم أكبر خطأ بقتلكم ناصور..

- لم نقتله يا فراج.. لقد انتحر.. مات كافرًا.

يتأملهم فراج بشك لكنه لا يجد ما يقوله ليكذب كيف مات ناصور، يزدرد لعابه وهو يحاول الهروب من فكرة خضوعه لناصور وما هو الموقف الآن بعد موت الرجل؟ ليؤجل مناقشة هذا الأمر إلى وقت لاحق، يكمل فيقول:

- أيا كان السبب، المهم أن ناصور قد مات..





يصمت لحظات تقع عينيه فيها على صورة والده يتأمله، يبتسم له ابتسامة خفيفة يظهر شبحها على وجهه، يود لو يخبر أباه أن أغنياء بلدتهم قد أتوه صاغرين يسألونه العطف. يعود من شروده على صوت كحة غاضبة من السيد راضي الذي لا يجد ما يتحدث به أو يفعله، يبدو على وجهه أنه يشعر بضعف رهيب حتى إن تأثيره يسرى في جسده كدبيب النمل، كخدر يسبق عملية جراحية، يكاد يفقد وعيه فيتنفس ويسعل بهذا الشكل، يكمل فراج كلامه:

- تاصور مات ومعه كل الأسرار..

- لابد من حل.

خرجت تلك الكلمات من السيد راضي ضعيفه مثل بخار أخير يصعد من إناء طَفِئَتْ النَّارُ أسفله، فقد نفد الوقود، بينما ينظر ناحية الشيخ منصور كأنه يتعلق به قبل أن يغرق في تلك الدوامة التي تحاصره، يؤيده الشيخ منصور متحدثًا إلى فراج:

- نعم.. لابد من حل يا فراج.. والآن.. حميدة بين الحياة والموت في المستشفي.. وعائلة السيد راضي كلها على وشك الانفجار.. وأول من يفتك به هذا الانفجار هو أنت يا فراج.

لم يكن فراج يمتلك القدرة أو القوة ذات يوم للتواجد في موقف مشتعل مثل هذا، لكن وقد ساقه قدره إليه، كما يسوق ضبع وحيد إلى قطيع ثيران بقرون حادة، فعليه أن يكون على قدر الموقف وألا يُبدي ضعفًا لئلا يلتهمه الأغنياء، لكنه حقًا مرتبك وبداخله خوف يكفي



لانهيار مبنى مـن ثلاث طوابق، سـوف يحاول أن يتماسـك مرة أخيرة ويلقي بجملته الوحيدة التي صاغها عقله:

- الحل الوحيد.. أن أتـــ ــزوج... حـــ مـــ ـــيدة.

تصدر آهة استفسار، استنكار، غضب، من السيد راضي، يعم بعدها صمت رهيـب، لا يتحـرك في الغرفة سـوى سـت عيـون تحمل آلاف الأسئلة تبحث لها عن إجابات.

كانت "الاستحالة".. (استحالة أن يتزوج فراج بحميدة) هي الكلمة الوحيدة المشتركة بين كل الإجابات التي يمكن أن يصوغها عقل السيد راضـي، لكنـه لم يمتلك القـدرة على الإفصاح عـن موقفه الصلب لأن ذلك قد يتطلب منه وضع حل آخر، وهو لا يملك أي حل. يرنو بطرف عينه ناحية الشيخ منصور، يعقد الرجل جبينه كمن يعصر فكره للوصول إلى فكرة ما، يعلم مسبقًا أنه لا يمتلك أية أفكار، يقبض شـفتيه بغضب ويسلط عينيه على فراج، الحل عند فراج، هكذا يعتقد الشيخ منصور، لكـن فراج ينظر نحوهم بما يعنى أنه يمتلـك نفس الكلمة التي يمتلكها السيد راضي وهي "الاستحالة".. (استحالة ألا يتزوج بحميدة) فهو لا يعلـم مـاذا حدث منذ أن قدم كل فروض الـولاء والطاعة إلى ناصور الكبير على يد الإنسى المكنى بناصور الأرضي.

صـرخ الرجـل وصاح بتعاويذ لم يفهم منها فراج شيئًا، حتى سـمع أصواتًـا مرعبة كادت تفقـده وعيه مرات أخرى، ثم فجـأة وعبر الباب، الذي أغلق وحده بشـدة مصدرًا صوتًا مزعجًا، تأتى ريح رهيبة يتشبث فراج علـى إثرها بنتوءات فـي الجدار الذي كان يلصق بـه ظهره، تمنى



لو أن تكون يداه خرتين كي يسد بهما أذنيه تفاديًا لتلك الأصوات المرعبة التي لا يعلم مصدرها، يعم ظلام حالك لحظات قبل أن تهدأ تلك الريح المفزعة، يرى بعدها أعين ناصور الأرضى مثل جمرتان تتحركان في كل اتجاه، يحاول أن يبحث عن أي معنى لا يجد، يود لو يسأل ماذا يحدث؟ لكن لسانه يخونه بعد أن توارى رعبًا باحثًا عن أقرب خندق ليختفي فيه إلى الأبد إن استطاع، تترك أطراف أصابعه نتوءات الجدار، يعتدل على رجليه برفق وكأنه يختبر هل ستتحملانه أم لا مثل كثير من أعضاء جسده، تتحملانه ويقف معتدلًا.. لحظة واحدة فقط بعدها ينتفض جسده وكأن روحه تنتزع منه بمخالب حديدية، يطلق صرخة مدوية تختلط مع ضحكة مرتبكة يطلقها ناصور الأرضى، ضحكة لو كان أحد يمتلك رفاهية الوقت للتفسير لقال عنها إنها سعادة ممزوجة برعب حقيقي، لم يفصح ناصور الأرضى يومًا لأحد أنه يخشى المارد العملاق المسمى "ناصور" وعلى النقيض من غالبية من يستحضر الجان، حيث تكون لهم الغلبة والسيطرة عليهم، كان هذا الرجل واسمه الحقيقي "سعفان" يخشى مارده، وإنما استحضره من قبيل سيادة دجالين المنطقة، يكون شيطانه أقوى ممن يستحضرونه فتكون له الغلبة، وقد نجح وساد تلك السنوات، لكنه لم ينجح في إزالة ذلك الخوف بداخله من شيطانه وقوته التي تفوق الوصف، فأراد أن يستعطفه ويستميل قلبه، فأعلن له الولاء الكامل ومحى اسمه " سعفان " من الوجود وأطلق على نفسه اسم " ناصور " تقربًا وطاعة.





لكن لماذا صرخ فراج تلك الصرخة المفزعة، ولماذا ضحك ناصور الأرضى تلك الضحكة الممزوجة برعب حقيقى؟!

لقد انشق الجدار، المجاور لناصور والمواجه لفراج، عن نيران عظيمة وكأنه كان يحجب خلفه جهنم الحقيقية التي طالما سمع عنها، ها هو اليوم أمام بابها، تكاد حرارتها تشوى الوجوه، يرفع يديه ليغطى وجهه تاركًا فرجة بين أصابعه ليشاهد عبرها تلك النيران، يراها فجأة تتجسد شكلًا لا يستطيع وصفه، هيكلًا ضخمًا، شعرًا متهدلًا من كافة الأنحاء مثل أسلاك نحاسية غليظة يبدو أنها ما تزال مشتعلة حيث تتقافز متنافرة، يتأمل أكثر، أو في الحقيقة يجد نفسه مأخوذًا بالرغم منه ناحية كتلتين من نار متأججة على شكل عينين واسعتين كأنهما فوهتا بركان يشاهدهما الناظر من أعلى جبل شاهق. لقد كان هذا هو ناصور الكبير، الشيطان الذي تم تسخيره عنوة من الإنسى سعفان، وقد سئم منه ومن ترهاته وقرر اليوم أن يتخذ منه موقفًا حاسمًا، لكن بعد أن يضمن ولاء ذلك الإنسى الشاب " فراج ".

يتذكر فراج كيف قام بكل الخطوات التي طلبها منه ناصور الإنسى حتى ينال حماية ذلك المارد العملاق، يضغط فراج جنبيه ويلملم ملامح وجهه إلى الداخل كى لا يفتضح أمره أمام الشيخ منصور الذي إن علم ما فعله في بيت ناصور الدجال لأخرجه من الملة ولقال عنه إنه " كافر ".

طالما ليس بعد الكفر ذنب، فكل مجونه مباح، لن يعود عن تحقيق رغبته في إذلال السيد راضى والزواج بحميدة. هذا هو العقد الذي





عقده مع ناصور الكبير مقابل كل فروض الولاء التي قدمها له، أما عن كيفية العودة عن ذلك أو حتى استدعاء ناصور الكبير فذاك أمر يخص ناصور الأرضى، العلاقة قائمة بينهما ولا يد لفراج فيها على الإطلاق، أما وقد قُتل ناصور وفقًا لما حكاه له الشيخ منصور والسيد راضى، فإن ذلك الخيط الواصل بينه وبين ناصور الكبير قد قُطع ولا سبيل إلى وصله، وبذا لا سبيل مطلقًا إلى تعديل المطلب وإزالة الأذى عن حميدة التي ترقد في المستشفي إلا بالزواج.

يقول فراج ذلك المعنى وهو يتفحص الرجلين بنظراته المتوجسة، ثم يعقب بهدوء يحمل تهديدًا أكثر منه تفسيرًا:

– و إن لم يكن الزواج.. فلا حل آخر غير الموت.

– إذن أنا قاتلك اليوم.

ينتفض السيد راضى وقد فرد ذراعيه على طولهما ليطبق بهما على رقبة فراج، ولا يزال يردد جملته «أنا قاتلك اليوم» وكأنه كان يستمد منها القوة التي يُطبق بها على رقبة فراج الذي يحاول دفع الرجل لكن باءت محاولته بالفشل إذ بدأ يشعر باختناق رهيب فرفع يديه لينزع قبضتى الرجل عن رقبته، في لحظة يقف فيها الشيخ منصور ليجذب السيد راضى إلى الخلف وهو يصرخ :

– لا تضيع نفسك يا سيد راضى.. ذلك الكلب لا يستحق.. سوف يحسبونه علينا إنسانًا.





لن تخرج تلك الكلمات، من عقل فراج، حتى وهم يستعطفونه يعاملونه باحتقار شديد، السبب الوحيد الذي يمنعهم من قتله خوفهم من عقاب القانون، لا كونه إنسانًا له آماله وأحلامه. عمومًا سوف يزداد، بعد هذا اليوم شراسة، سوف يبذل كل ما يملك وإن كانت نفسه لاستحضار ناصور الكبير مرة أخرى. يدور ذلك في ذهنه وهو يُبعد يدي السيد راضي باحثًا عن كلمة يقولها، بعد لحظة يقول:

- إن قتلتني أضعت ابنتك إلى الأبد.

هنا تخور قوى السيد راضي فجأة وتنحل قبضتاه عن رقبته، يتنفس فراج بشدة ليملأ جوفه بالهواء الذي مُنع عنه تلك المدة، للمرة الأولى في حياته يشعر بقيمة الهواء الذي يتنفسه.

يحتضن الشيخ منصور السيد راضي ويعود به إلى مجلسه، بينما الرجل في عالم آخر، لقد كبر عمره عشرات السنين في تلك الليلة، تهدلت وجنتاه وشحب لونه، برزت عروق يديه ورقبته، توارت نضارة وجهه وجحظت عيناه، لم يشعر بكل ما حل به، كل ما يفكر فيه الآن "حميدة" ابنته وزوجته التي سوف تموت حسرة عليها إن أصابها مكروه، لقد تغيرت حياته تمامًا بشكل لم يكن لخياله أن يصل إليه مهما كان جامحًا.

يستشعر فراج داخل الرجل، لا يهتم بنظرات النقمة التي يرمقه بها الشيخ منصور "ابتعد أنت يا شيخ منصور عن طريقي، لست خصمي" يود لو يقول له ذلك لكن الموقف لا يحتمل، يمد يده ليجرع كوب





الماء دفعة واحدة، ثم يضع الكوب على المنضدة بقوة محدثًا صوتًا مثل من يدق ناقوس بدء معركة، يقول:

- لا أستطيع دفع ما تصفونه بأنه أذى عن حميدة، ومن كان يمتلك الاتصال بفاعل هذا الأمر قد مات. وقتلي لن يحل الأمر، الحقيقة الوحيدة الموجودة يا سيد راضي هي أن حميدة سوف تشفي وتعود لطبيعتها إن تزوجتها. هذا ما لدي وافعل ما تراه.

موافقة السيد راضي على زواج حميدة بفراج، أمر قد يبدو أمام قرية الكاجوج هو الجنون بعينه، تاريخ كل منهما معروف، لا توجد أية أسباب طبيعية أو منطقية تؤيد ذلك، كيف تكون ردود أفعال أفراد العائلة، خاصة وقد رفض أكثر من شاب من أبناء عمومتها، وأقلهم يعد أفضل من فراج هذا ألف مرة؟!

مثل هذه الأفكار وغيرها كثير كان يدور في عقل السيد راضي في تلك اللحظات، يشرد ببصره عبر النافذة المغطاة بقضبان حديدية طولية من أعلى إلى أسفل، تتلاشى من أمام عينه لحظة تركيزه على امتداد الشارع، يتابع أشعة الشمس المنعكسة على بعض النوافذ المواجهة، الأشعة المنكسرة مع ظلال لأشجار أوقمم بيوت تصنع شبحًا غريبًا، يتأمله السيد راضي، ظلال تشكل جسد عملاق، وكأن أشعة الشمس المعكوسة تصدر من عينيه بشكل مخيف، تتملكه الدهشة لحظة وهو يتخيل تلك الظلال تتحول إلى كائن يتحرك ليهجم عليه، لم يكن يعي ما يدور في المكان، يبدو أن حديثًا ما يدور بين فراج والشيخ منصور،





يحاول الإفلات من دوامة أفكاره، عليه التعلق بأحبال وهمية تبقيه في المكان، بصعوبة بالغة يستمع إلى الشيخ منصور يقول:

- سنجد دجالًا آخرَ يمكنه أن يحل محل سعفان.. ناصور الإنسى هذا..

- لقد رأيت المارد بعيني.. وشاهدتُ مدى شراسته يا شيخ منصور، وقد أخبرني ناصور بأنه الوحيد الذي يتعامل معه.. وأنه.. أقصد المارد.. غاضب منه جدًّا.

- ماذا تقصد؟

يسأل السيد راضي بغضب واهن، نبرة صوته منكسرة تحمل أنينًا، نظراته مغلوبة مثل ضحية حية تنهش لحمها الضباع، بعدها يستجدي هواء الحجرة بأن ينفحه ما يملأ به صدره، كان يشعر باختناق حقيقي، في لحظة ما تخيل أن روحه آخذة في ترك جسده لو استمر على انفعاله الرهيب، لولا ما شاهده عبر النافذة وأخذه بعيدًا لفارق الحياة، أكان ذلك منحة لإبقاء الروح؟ قد يكون ذلك.. لا يعلم..

- أقصد.. أن ذلك المارد قد يكون السبب في قتل ناصور الإنسى.. كما ذكرتم أنتم بأنه انتحر.. وذلك يعني رغبة ذلك الجنى قطع علاقته بالبشر.

يقف السيد راضي بنفس حالة الوهن التي تملكته، بدون أي كلمة يترك الغرفة، يناديه الشيخ منصور مستفسرًا عن وجهته، لا يجيبه، يتحرك خلفه ولا يزال يوجه له الأسئلة، بعد لحظات، يكونوا فيها قد



عبروا باب المنزل القديم وصعدوا إلى الشارع، يتنفس السيد راضي بشدة، يبحث عن شبح الظلال، لا يجده، يربت على ظهره بخفة الشيخ منصور وهو يسرى عنه بالكثير من كلمات المواساة والتشجيع:

- تماسك يا سيد راضى، إبنتك حميدة في أشد الاحتياج إليك قويًا متماسكًا، انهيارك وسقوطك بهذا الشكل يعنى انهيارها وسقوطها، ليس هذا فقط، بل زوجتك وباقى أفراد أسرتك، أنت رجل قوى وأعرف عنك إيمانك بالله، وأنت عمود الأسرة الأوحد، إن سقط تداعى البناء.

كان لنسمات الهواء الخفيفة، وكلمات الشيخ منصور، والشمس التي تغمر المكان صانعة بظلال البيوت والأشجار لوحة ضخمة غير محدودة، مع أصوات عصافير تطوف في المكان، شديد الأثر في انتزاع الرجل من قبضة الموت.

يصل إلى سيارته السوداء موديل العام الماضى، يدلف إليها ثم يغلق بابها خلفه، بينما يركب الشيخ منصور من الناحية الأخرى ويغلق بابه خلفه برفق، يعلم أنها سيارة باهظة الثمن، ذاك حال أغنياء الصعيد، يتذكر فقراء الصعيد الذين يسألون الناس لقمة العيش، تمنى لو سأل السيد راضى التبرع بجزء كبير من ماله كقربان يتقرب به إلى الله كي يفك كرب ابنته، لكنه خشى أن يُفهم خطأ، خاصة في هذا التوقيت، فهل يستغل انكسار الرجل وضعفه؟ يؤجل ذلك إلى مرحلة الشفاء وعموم السعادة، وقتها تفيض الأيدى وتتقبل القلوب التوجيه غير عابئة بالتفسير.





لا يدير السيد راضي محرك السيارة، يركن ظهره إلى مسند المقعد ويفرد ساقيه على طولهما، يغمض عينيه، يحاول الإمساك بأطراف تركيزه، عليه اتخاذ خطوة ما، لم يقرر ماهيتها بعد، يبحث عن تفاصيلها، يحتاج إلى الكثير من التركيز لتحديد معالمها، لكن الآن عليه الاطمئنان على "حميدة"، ثم إن هناك احتمال بأن يكون الدكتور وليد قد وصل إلى علاج ناجع، صحيح لو كان وصل إلى أي نتيجة أو شعر بأي تحسن في حالتها لكان هاتفهم على الفور، أما ولم يحدث ذلك فتلك إشارة إلى بقاء حالة "حميدة" على ما هي عليه إن لم تتدهور، لكن ذلك لا ينفي أن يظل جزء، ولو قليل جدًا، من الأمل في بداية شفائها.

لما يتأكد الشيخ منصور أن كلماته الكثيرة تمر عبر النافذة بدون أن تُحدث أي تأثير يذكر في السيد راضي (يتخيل ذلك بسبب صمته وشروده وقبضة يده المتشنجة، لكنه لا يدرك أن لكلماته ولكل شيء في الكون من حولهم تأثيرًا كبيرًا على الرجل) يعود بظهره إلى مسند مقعده ويتوقف عن الكلام، بين لحظة وأخرى يرنو بطرف عينيه ناحية السيد راضي مترقبًا الخطوة التالية التي بدأ يتوتر من عدم اقترابها.

يراقبهم فراج عبر النافذة، لا يجيب على أسئلة أمه التي تغمره بها منذ أن خرجوا، ما علاقته بهؤلاء، لماذا ارتفعت أصواتهم كثيرًا، لماذا خرجوا فجأة؟؟ زاد حنقها بسبب تجاهل فراج لها ومتابعته عبر النافذة، كان يود لو يعلم هل سير حلون أم يتغير الموقف ويعود الرجل حاملًا سلاحًا أو ما شابه، أو أقله يظل في سيارته معطيًا إشارة ما لرجاله كي يهجموا عليه فيردوه وأمه قتيلان. ماذا عساه أن يفعل لو كان ذلك ما



سيحدث خلال اللحظات التالية؟! لا يمتلك أي وسيلة للدفاع عن النفس، لكن لحظات مرت ثقيلة حتى شاهد ذرات التراب تُثار أسفل مؤخرة السيارة، فلم يكن صوتها ليأتيه عبر تلك المسافة، معلنًا تحرك موتورها، ثم لم تلبث أن تحركت بشدة تاركة خلفها سحابة من الأتربة حجبت الرؤية لحظات.

هنا يعتدل فواج ليجد أمه خلفه وعلى وجهها ألف سؤال، لن يستطيع أن يفضي إليها بأي شيء عن حقيقة الأمر، لكنه مطالب بإجابة ما، يتأملها لحظة قبل أن يمسك بكتفيها محاولًا إظهار سعادة بدت مزيفة تمامًا وهو يقول:

- عمل جديد يا أمي مع أثرياء الكاجوج، يحتاجون ولدك فواج بالذات.

يعلم أن كلماته لا تحمل إجابة شافية، بل وتفتح الباب لعديد من الأسئلة، يخرج مسرعًا تاركًا إياها في حيرتها البالغة، لم يكن يعلم إلى أين يخرج، لكنه يود الهروب، بعد أن يسير عدة خطوات في الشارع يقرر أن يذهب إلى مقهى «الطويلة».

تعود حميدة حاملة صينية عليها كوب الشاى الأسود الثقيل لتخرجه من ذكرياته الطويلة، يتمتم:

- أوه ياه... ذكريات.

يمد يده نحوها، يتأملها، لقد امتلك جسدها منذ أن تزوجها لكنه لم يشعر بروحها قط، دائما يمتلك الجسد، يود لو يتذوق مرة واحدة طعم





الروح !! يجذبها نحوه بعنف حتى إن صينية الشاى اهتزت في يدها بشدة، فتمايل الكوب ليسكب بعض محتواه، يتهاون معها قليلًا ليتيح لها الفرصة كى تضع الصينية جانبًا، وما إن فعلت حتى يعاود جذبها نحوه ليجلسها على حجره، يحتضنها بعنف مقبلًا وجنتها وأذنها وجزءًا كبيرًا من رقبتها، كان يلهث مثل ذئب جائع يلتقم أجزاء فريسته.

***



(16)

ليلى

تستمع «ليلى» بقلب دام إلى تلك التفاصيل التي تسردها منيرة، لا تشعران بقسوة المقاعد الأسمنتية المقامة على ضفاف النهر أسفل الشجرة العظيمة، أوشك النهار على الانتهاء وتلونت الشمس بلون الدم وهي تلملم لهيبها لترحل عن المكان.

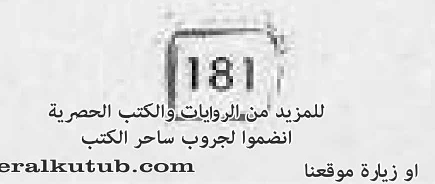
تصمتان قليلًا ذاهبتان خلف أفكارهما، ليلى تشعر بقلبها مثل طائر ينتفض يعاني سكرات الموت، كيف تحملت كلمات منيرة عن اتهام قومها والدها بسبب وجود قلمه بجوار الضحية فاقدة العذرية؟!

هل حاك خطته تلك ليغفل عن دليل يتركه بجوار ضحيته؟

وما شأن الذئب المفترس الماكر بحمل قلم؟!

يا لكم من قوم مُغيّبون، عمت الغشاوةُ عقولكم قبل أعينكم..

كيف تماسكت ليلى ولم تُفصح عن هُوِّيتها؟؟ الله وحده يعلم كيف تماسكت. تقرر أن تبتعد عن أرض الواقع، سوف تموت لو ظلت





على تلك الحال، تعلمت، من خلال مقال علمي قرأته ذات يوم، أن الابتعاد عن الأفكار القاتلة هو أفضل نظام مقاومة لئلا تتفاقم الحالة وتحدث مضاعفات لا يرتجى شفاؤها، جالت ببصرها تعبر حاجز المكان، تشاهد سيارة تحتضن الرصيف، تقرر أن تتابعها لعلها تنشغل بها لحظات، تحاول التقاط أرقامها للتعرف على هويتها، تفعل ذلك بشكل لا إرادي بالرغم من إدراكها التام بأنه يستحيل عليها التعرف على هوية سيارة من أرقامها، المسافة كانت غير كافية لرؤية الأرقام من مكان قريب - لعله مركب في النيل أو عشة على ضفته أو منزل ما- يأتيها صوت قارئ قرآن يحاول مطابقة صوت الشيخ عبدالباسط عبد الصمد، في عقلها تتساءل هل هذا الصوت حي أم أنه يصدر عن تلفزيون أو محطة إذاعية؟ لا يزال قائد السيارة يجلس في مكانه خلف عجلة القيادة ويعبث في تليفونه المحمول، على بعد خطوات، من أمام السيارة تأتي سيدة منتقبة وتمسك بيدها اليسرى طفلة في السابعة تقريبًا، تنظر نحو السيارة، هل وقفت هذه السيارة في انتظار تلك السيدة وطفلتها؟ تتساءل. لكن عينيها تتحول إلى ما خلف السيارة حيث ينظر سائقها، تأخذها اللحظة، لقد كانت أقرب لها بشكل جعلها تلاحظ تفاصيل أكثر، فتاة عشرينية صاحبة جسد ملفوف، شعرها الناعم طويل يتدلى حتى منتصف ظهرها، ترتدي تي شيرت أسود يُظهر تفاصيل كثيرة في منطقة الصدر والجانبين مع تنافر محبب بين اللونين الأسود والأبيض حيث بشرتها الناصعة، يضاف إلى ذلك بنطلون مطاطي لامع يلف باقي ذلك الجسد الرائع، تتساءل: أينتظرها أم ينتظر المنتقبة؟ تعبر





المنتقبة تجر طفلتها على الطريق، تتوجه ناحية السيارة، تقترب الفتاة رائعة الحسن نحو السيارة بنفس المقدار، تتساءل متعجبة من كثرة ما تساءلت: ماذا يحدث؟ لا يزال قارئ القرآن يشدو بآيات الذكر الحكيم وقد بدا على صوته سعادته باقترابه من تحقيق هدفه، لقد أوشك أن يأتي بنفس طبقة عبدالباسط عبدالصمد، من مكانها تشاهد نثرة تراب أسفل مؤخرة السيارة تعلن عن تشغيل محركها، من الجهة اليمنى تقترب صاحبة التي شيرت والشعر الطويل وتفتح الباب لتركب السيارة، من الجهة اليسرى تقترب المنتقبة وطفلتها لتتحدث مع راكب السيارة، لا يصل إليها الصوت بالطبع، لكن بدا أنها تسأله شيئًا، هل تستفسر من وجوده في هذا المكان، أم تسأله عن فتاته، أم ماذا؟ لا يتركانها في حيرتها كثيرًا، يمد قائد السيارة يده ناحية المنتقبة ليضع في يدها شيئًا ثم ينطلق بسيارته تاركًا غبارًا خفيفًا يغطي المكان، ترفع المنتقبة يدها مفرودة لتحصى ما نفحها إياه، جنيهات قليلة تقبلها بشفتيها ثم ترفعها إلى جبهتها ثم تقبلها مرة ثانية ثم ترفعها إلى جبهتها مرة أخيرة قبل أن تضعها في حقيبة صغيرة معلقة في كتفها، تجذب طفلتها وتبتعد في الاتجاه المعاكس لاتجاه السيارة التي بدت من بعيد مثل دمية صغيرة وهي تلف لتأتي عبر الطريق الذي يمر أمامهم. تبحث عن صوت قارئ القرآن لا تجده، لقد اختفى مع اختفاء باقي تفاصيل الصورة، هل ما شاهدته أو سمعته كان من نسج خيالها؟ تمنت لو تسأل منيرة هل سمعت صوت قارئ القرآن؟ قبل أن تتوجه ناحيتها لتحثها على استكمال الحديث، تمر السيارة مسرعة، لحظة واحدة غلبها فضولها



لتشاهد وجه الفتاة عن قرب، قبل أن تستقر نظراتها على الفتاة تصعق ليلى، تشهق واضعة كفها على فمها لتمنع صرخة تكاد تخرج بالرغم منها، «ماهر».. هو من يقود تلك السيارة..!! ماذا يحدث؟! لا.. لا.. مؤكد اختلط عليها الأمر، لقد تركت ماهر في الفندق، ثم.. ثم.. مثل هذا السلوك لا يتفق على الإطلاق مع ما تعرفه عن ماهر.. !!

رغم ما تمر به من أحداث وما سمعته من منيرة بشكل يطغى على أي شيء آخر إلا أنها ودت لو تطمئن وتنهي شكوكها بشأن ذلك الشخص الذي يقود السيارة وتجلس إلى جواره حسناء، تُخرج تليفونها المحمول، كان على وضع الصامت الذي تعودت عليه كلما خرجت لملاقاة منيرة، هناك أكثر من اتصال من صديقتها مايسة ومن ماهر نفسه، تؤجل الاتصال بمايسة حتى تعود إلى الفندق، تجرى اتصالاً بماهر، بعد فترة يأتيها صوته مضطربًا قليلاً، قبل أن تسأله تُنصت لصوت المكان الذي يتواجد فيه، في البداية هواء وأبواق سيارات، ثم تبتعد ليعم بعض الهدوء وماهر يتساءل بلهفة ملحوظة عن تأخر ليلى، تسأله بشكل مباشر أين هو الآن؟ يجيبها بأنه في حجرته بالفندق في انتظار عودتها، ترتاب في الأمر، تمط شفتيها، تسأل:

- سمعتُ أصوات سيارات وكأنك في الشارع يا ماهر؟!

- آه.. كنت بجوار النافذة ثم أغلقتها. ماذا يا ليلى؟

- لا شيء.. سأعود خلال ساعة.. مع السلامة.

تمط شفتيها مرة أخرى ثم تضمهما بقوة وكأنها تبتلع ريبتها، تعيد تليفونها المحمول إلى حقيبة يدها، تؤجل مثل تلك الأفكار حتى تتفرغ

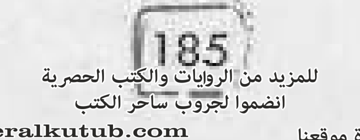




بشكل كامل إلى منيرة، تنظر نحوها وهي تمد يدها لتضغط كفها بحنان
تُزيل ما بينهما مسافات، تجد يدها باردة كلوح ثلج، تضمها أكثر وهي
تسألها:

- منيرة.. ما بك؟ لِمَ يدكِ باردة هكذا؟!

الحقيقة أن «منيرة» كانت توشك على الانهيار كمبنى متعدد الطوابق سوف يتم نسفه من قواعده فيتداعى مرة واحدة، فقد كانت لحظات تذكرها لتلك الحادثة، وهي لحظات كثيرة، كأنها عدد لا نهائي من الآلات الحادة التي تقبض على قلبها تعتصره فتسيل منه الدماء سيلًا. كيف لا وهي تتذكر نفسها تفيق على حركة، فتجد نفسها جسدًا عاريًا ملقى على أعشاب القصب الجافة، شقيقها يحوطها بثوب لا تعرف تفاصيله، عشرات الرجال ومئات العيون يلتفون حولها في دائرة يحملون المشاعل والبطاريات التي جعلت المكان أقرب إلى ساحة شيطانية، يبدو أنها تحلم، مؤكد هي تحلم.. تترك جسدها ليهتز مع حركة أخيها يلف جسدها في رداء حمل معه بعض أطراف العشب الجاف لتصبح مثل دبابيس تنخر جلدها، من بين كل العيون تشاهد والدها وقد اغرورقت عيناه بدموع تأبى الانزلاق، على يساره.. هناك على أطراف الدائرة خمسة رجال يقبضون بأيدى حديدية على رجل منهار على ركبتيه ورأسه منكس، رجل ينتفض رعبًا، لا يمتلك صوتًا واضحًا إنما همهمات وحشرجات مثل صريع يكافح ليظل على قيد الحياة أطول فترة ممكنة. يجلسها أخيها متلقيًا جسدها الرخو على صدره، تتأمل في الضحية التي تُمسك بها العصبة، إنه المهندس «عمر».





حقيقـة الأمر أن المهندس عمر لم يكـن يدرك مما يحدث الكثير، لقد ذُهل لحظة أن شـاهد قلمـه يحمله أحدهم بجوار جسـد منيرة، لا يصدق مـا يـراه، لكن صوت فـراج "قلم المهنـدس عمر" يؤكد ما يـراه، تتوجه كل العيـون نحـوه، تتحرك يداه ولسـانه مرة واحدة، ليـس قلمي، الأقلام تتشـابه، ثـم.. ثـم.. لا يعني وجود القلـم أنني مَن ارتكبت تلـك الجريمة البشـعة، يعود إلى الخلف خطوة تلـو الأخرى قبل أن تقبض عليه الأيدي الفولاذيـة، كيـف يتحدث إلى هـؤلاء، كيـف يسـتطيع إقناعهـم ببراءته؟! يبدو أنها النهاية، يستسـلم، يجثو على ركبتيه وينكس رأسه مثل ذبيحة يتم تجهيزها لقطع رأسـها، لا يزال يهمهـم بكلمات مبهمة تؤكد براءته، منيرة مثل ليلى، يعتبرها بمثابة ابنته منذ أن شاهدها، لا أحد ينصت إليه، قرارهم واضـح من نظراتهم، بل من قبضة أيديهم على مناطق متفرقة من جسـده، يود لو يقسـم لهـم بأنه لن يهـرب، فلا داعـي لتلك القبضـات الحديدية، تصلبت أجسـادهم كمـا عقولهم، لقد سـمع كثيرًا عن طريقـة تفكير أبناء الجنوب، لكنه ما إن تعامل مع بعضهم حتى كذب ما سمعه من قبل، إنهم قوم بسطاء، طيبة قلوبهم، لكنه لم يتعامل معهم وقت الشدائد ليختبر تلك القلوب، وها هي أولى الشدائد تحدث، تحدث معه وليس أمامه، لا وقت لاختبار تلك القلوب، إنه هالك لا محالة. يأتيه صوت أحدهم:

- إسألوها..

ينظر عمر ناحية منيرة بعيون تحمل من الدمع والاسـتغاثة ما يكفي، لـو تـم توزيعه، سـكان مدينـة هيروشـيما لحظة سـقوط القنبلـة الذرية الأمريكيـة عليهم، يتأملهـا.. منتظرًا قرارهـا ببراءتـه أو إعدامه، يمتلك



الجبن الكامل ببراءته، لكنه لا يمتلك قدرًا يسيرًا من عدالتها، في لحظة واحدة يتخيلها ابنته ليلى، يتمزق ألمًا وهو يراها هكذا.. عارية يواريها أحدهم بأسمال تضم معها أعشاب خشنة جافة ما تزال تقرقع مع حركتها، شعرها يحوطها في خصلات متجلدة، خطوط دموية على أسفل وجهها ورقبتها.

تنظر نحوه متأملة، تتفرس ملامحه، تنظر بعين باكية إلى أطراف أصابعه، تتذكر لحظة أن لفتها تلك الأيدي من الخلف قبل أن تغيب عن الوعي، تتذكر أنفاسه الساخنة المحملةبرائحة البصل، تنتحب.. ينتفض جسدها فيحتويها شقيقها أكثر بينما يسقط شدوان على ركبتيه فيقترب منه أحد أولاده كي يسنده، يصرخ شدوان لكن كلماته تخرج واهنة:

- انطقي يا منيرة..؟

بعد إلحاح رهيب بنبرات جافة من الجميع تنطق منيرة بكلمتين قبل أن تغيب عن الوعي مرة أخرى:

- لا أعلم.

يحملون المهندس عمر وقد قيده البعض، بينما كممه آخرون كي يخرسونه تمامًا، وقبل الرحيل عن المكان يغطي أحدهم عينيه بتلفيحة سوداء. هنا يستسلم تمامًا وقد أيقن أنها النهاية.

لا تستطيع ليلى التماسك فتنفجر باكية مثل بركان خمد سنوات طويلة، يعلو نحيبها بشكل أخرج منيرة من ذكرياتها لتنظر نحوها متعجبة، نعم هي تسرد أمرًا مأسويًا، لكنها لم تكن تعلم أنه قد يؤثر



فيهـا بهذا الشـكل حتى تجاريها في درجة الانفعـال، مدت يدها نحوها لتهـدء من روعها فترتمـى ليلى فِي أحضانها لا تقـوى على التحكم في أعصابها المنفلتة، فما سمعته كان رهيبًا، لقد تخيلته كاملًا، بل تعايشت معه وكأنها كانت موجودة معهم بين أعواد نبات القصب في تلك الليلة المظلمة. تتخيل مدى انكسار والدها وهم يحملونه كما الذبيحة، تتذكر رأسـه المقطوع الذي تعثـرت فيه أمام العمارة في تلك الليلة السـوداء انهيـار والدتها واشـتعال النار فيها.. أواه.. أي مأسـاة تلـك التي يجب علـى ليلى أن تتحملها ثم يُطلب منهـا أن تعيش بعدها مثل أي فتاة على وجـه الأرض؟! كادت تفقـد الوعـى مما ذهبـت إليه لكنهـا تنبهت في لحظة مهمة، لحظة آتتها مثل ومضة، إلى جملة منيرة التي كررتها مرتان أثناء سردها للأحداث وهي أن مَن تعدى عليها من خلفها كانت أنفاسه ساخنة تحمل رائحة البصل.

ليلـى تمتلـك اليقين التام ببـراءة والدها المهندس عمر وليسـت في حاجة إلى أدلة على ذلك، لكن هؤلاء القوم وجهات التحقيق في حاجة إلى تلك الأدلة، لقد كان قلم والدها دليلًا على جرمه.

رائحة البصل المنبعثة من أنفاس المجرم !!

والـدي.. المهندس عمر.. كان يبغض.. بل يمقت رائحة البصل، لا يتقبلهـا على الإطلاق وكثيرًا ما كانت تطهو أمي الطعـام بلا بصل وإن كان يحتاج لذلك استـخدمت القليل جدًا منه بعد أن تغسـله عدة مرات بالملـح والخل، فكيف به يأكل بصلا نيئًا؟! تلك عادة يفعلها الكثير من أهل الجنوب.





تعتدل ليلى في جلستها وهي تجفف دموعها معتذرة إلى منيرة ثأرها، فما سردته لها كان مؤثرًا بشكل كبير ولم تحتمله. بعدها ناقشت معها في عدة تفاصيل كان على رأسها سؤالها لمنيرة عن مدى قناعتها بأن المهندس عمر هو الفاعل الحقيقي؟

تصمت منيرة لحظات قبل أن تظهر دهشتها على وجهها المغلف بحزن شديد وهي تقول:

- لم أشك لحظة واحدة في المهندس عمر، لكني لم أمتلك إجابة تحمل براءته، بالفعل لم أكن أعلم وحتى اليوم لا أعلم على وجه اليقين مَن هو ذلك الذئب التي أتاني من خلفي في ليلتي السوداء وفعل ما فعل. لكن.. هنا.. في بلدتي.. يجب أن يكون هناك فاعل.. مجرم حقيقي.. مجرد إشارة ولو ضعيفة كافية لإدانة أي فرد. أتعلمين.. لو ذكرت جملة واحدة تحمل في طياتها تبرئة المهندس عمر، من قبيل: المهندس عمر رجل محترم لا يفعل ذلك.. لقتلوني ثم قتلوه.

- لكن واضح تمامًا يامنيرة أن تلك مكيدة نُصبت بعناية للإيقاع بالمهندس عمر!!

- مَن يستطيع إثبات ذلك حينها والأمور مشتعلة (تزفر بشدة) عندنا لا يطفئ النار غير الدم.

- وإن كانت دماء برئ.

قالت ليلى الجملة الأخيرة في داخلها، لم تفصح بها، تقف معتدلة مرة واحدة لتغادر المكان، تقف معها منيرة التي تبدى أسفها لأنها





أحزنتها بقصتها وما كان يجب عليها أن تفعل ذلك،لكن ليلى تربت على كتفيها بل وتحتضنها مؤكدة لها بأنها سعيدة لأنها اختصتها بذلك، قبل أن تتحرك ليلى تستوقفها منيرة، تسألها:

- ألا ترغبين في معرفة ما حدث للمهندس عمر؟

ليلى كانت تعلم ما حدث بالتفصيل، وتعلم أكثر مما تعلمه منيرة، وليست في حاجه إلى تكراره لئلا تضيف شيئًا إلى تفاصيل القصة فتفضح أمرها. فأشارت إلى منيرة بالجلوس مرة أخرى، تسألها:

- باقي التفاصيل واضح بلا شرح يا منيرة، لكن ما أود معرفته هو «فراج» كيف هو وكيف يعيش.. كل التفاصيل المتاحة عن هذا الرجل.

لقد استيقنت ليلى، مما سمعته، من أن رفض والدها لأفعال فراج الخارجة عن القانون كانت هي السبب المباشر لكل ما حدث، فقد أطاح فراج بفعلته تلك، اغتصاب منيرة وإلصاق التهمة بوالدها، بكل خصومه حتى الخفير شدوان كسر عينيه قبل كسره لقلبه كي يغض الطرف عن سرقاته.

تبدأ منيرة في سرد كل ما تعرفه عن فراج، كل ما قيل عنه في قرية الكاجوج،منذ أن تزوج بحميدة بالرغم من رفض والدها السيد راضي، فقد كان حادثًا ظل لعدة شهور مثل علكة تلوكها أفواه الكاجوج والقرى المجاورة، خاصة بعد تلك الأحداث الرهيبة التي صاحبت ذلك.

***





(17)

فـــراج

يسعل فراج وهو يعتدل عاريًا، منتشيًا، بعد أن قضى رغبته، ينظر بطرف عينيه ناحية حميدة التي تسحب الغطاء ثم تلتفت لتنام على جانبها الأيسر، توليه ظهرها. عشر سنوات مرت على حميدة وهي أسفل سطوة هذا الرجل، كانت تعلم جيدًا، أنها مسلوبة الإرادة، مسحورة كما يقال لها، تدرك ذلك في لحظات قليلة جدًا على مدار تلك السنوات، تمنت في تلك اللحظات لو تقتل ذلك الشيء القابع يلهث إلى جوارها، تشعر بابتسامته الباهتة الصفراء. تلك الابتسامة التي شاهدتها للمرة الأولى يوم أن شاهدته في تلك الليلة يجلس على أحد مقاعد مقهى «الطويلة» معتقدة إياه ابن عمها، وانتهى الأمر بالنسبة لها في لحظتها، لكن يبدو أنه لم ينتهي بالنسبة لفراج، فقد ألفت نفسها ليلًا تقوم بأشياء غريبة وتطلب من والديها أمور أعجب، تصرخ وتهذى وتزبد وترغى وتتشنج، تنقل إلى المستشفي لعدة أيام، تعود بعدها على حال أسوأ.





جسدها مثل المشلول، قواها خارت، لا تتحدث، فقط تنظر بعينيها يمنة ويسرة، تلحظ نظرات والديها، تتعجب إن رأت نفسها في المرآة فتصرخ وتصرخ حتى تغيب عن الوعي أو يحقنوها بمخدر. حتى أتى اليوم الذي تذكر تفاصيله جيدًا، يوم مثل حلم رهيب، لم تكن لتتخيل أنها ستنجو منه، كانت توقن أنها النهاية الحقيقية، لكن يبدو أن القدر يخبئ لها نهاية أخرى لا تعلمها.

تفيق على زغدة من كوع فراج وهو يطلب منها أن تتحرك لتعد له طعامه، يرغب في الخروج إلى المقهي. تعتدل جالسة، ترتدي قطع ثيابها المتناثرة في المكان، تتحرك إلى المطبخ لتعد له الطعام.

يشعل فراج سيجارة، ينفث دخانها في الهواء محاولًا أن يصل إلى سقف الحجرة، كثيرًا ما حاول فعل ذلك، لكنه يفشل في كل مرة، ورغم فشله المستمر إلا أنه لم ينتهي عن المحاولة، يكرر نفث الدخان لأعلى مرات قبل أن يشرد متذكرًا نفس جلسته قبل عشر سنوات تقريبًا.

وقتها كان قد مر على زيارة السيد راضي والشيخ منصور له عدة أيام، الأمور هادئة ولا معلومات لديه عن موقف السيد راضي من زواجه بحميدة، لقد عادت حميدة من المستشفي إلى بيتها، أغلقوا عليهم بابهم ليعم صمت رهيب. لا يمتلك الجرأة كي يذهب إليهم، في منزلهم، مرة ثانية. تعجب أشد العجب، هل انتهي التأثير الناصوري على حميدة؟! إن كان ذلك حقيقيًا وانتهي تأثيره فذاك يعني نهايته، سوف يُقتل لا محال، إنهم يتركونه حيًا فقط لأنهم يعتقدون أن سر نجاتها معه هو، إن نجت بدونه قتلوه، يرتعد داخله رعدة قوية لم يرتعد



ظلها منذ أن شاهد ناصور الكبير. يعصر ذهنه بحثًا عن حل لمشكلته، لو أن سعفان، ناصور الإنسي، حى الآن لذهب إليه وسجد تحت قدميه ليحقق له ما يريد، أما وقد مات ناصور، فماذا يفعل؟!

كان على يقين بأن هناك كتبًا أو حتى أوراقًا، في منزل ناصور، تحمل تعاويذ قد تمكنه من تحقيق مآربه، لكنه لم يكن يمتلك الجرأة على الذهاب إلى هناك خاصة بعدما حدث. بعد موت ناصور بعدة أيام، في منزله البعيد المقام على أطراف الجبل، ينشر أحدهم في القرية أنه كان يمر، عن طريق المصادفة، بالقرب من بيت ناصور، لم يناقشه أحد في أن بيت ناصور لا يمر به مار على الإطلاق إنما هو نهاية طريق، حينما وصلت أنفه رائحة عفنة شديدة القذارة، دفعه فضوله على أن يقترب مناديًا الرجل، ولما لم يتلقى إجابة يضع طرف تلفيحته على أنف، يقترب خطوة بعد خطوة حتى يشاهد جسد ناصور المنتفخ تفترسه الديدان مثل جيفة. يعود الرجل مسرعًا إلى القرية ليخبرهم بما شاهد، مثل انتشار النار في حطب جاف ينتشر الخبر في الكاجوج، تأخذ بعضهم الحمية، من قبيل الظهور أو من قبيل الفضول، يتحركون لحمل جثة الرجل ودفنها، تغلب الطبيعة السمحة للبعض على تاريخ ناصور، تعلو عبارات «حسابه عند ربه، ما علينا هو دفنه»، بعد مدة يقتربون منه مكممو الأفواه يكتمون أنفاسهم قدر الإمكان، يلفون جسده في قطعة قماش على وجه السرعة ثم يضعونه على محفة خشبية (الحقيقة أنها لم تكن محفة إنما كانت بابًا قديمًا أتى به أحدهم ليحملوه عليه بعد أن رفض خادم المسجد، بناء على تعليمات الشيخ منصور، أن يُخرج





النعش) يتحركون بـه ناحية الغرب في اتجاه المقابر لدفنه، أمام المقابر وقـد تجمع عـدد غفير مـن أبناء قريـة الكاجـوج يشـاهدون اللحظات الأخيرة لابن الجان، كما أطلق عليه بعض الصبية، يقف الجمع متذكرا وكأن تلك اللحظة لم تأت على بال أحدهم، أين يدفنون جسد ناصور؟! لا مدفـن له ولا عائلـة له يُدفن في مقبرتها، ينظرون إلى بعضهم البعض لعل أحدهم يقترح حلًا، لكن الصمت يشملهم، فلا يستطيع أحدهم أن يقـول «يُدفن عندنا» أو يطلب مـن آخر أن يتم دفنه عندهم في مقبرتهم، لـذا خيم الصمت على المكان، لكن الرائحة البشـعة المنبعثة عن جيفة ناصور جعلت أحدهم يصيح:

- و أخرتها يا رجال؟!

هنـا يعم هرج ومـرج وتعلو الأصوات ثم يتبادلـون الاتهامات حتى إن بعضهـم يدفـع مَـن أمامه بعنف فيدفعـه الآخر وتشـتعل الأرض من أسـفلهم لتلقى في أجسادهم بقدرات غير معروفة لهم من قبل، تجحظ عيونهـم وتتشـنج أطرافهم، لا أحد يدرى لِمَ تم ذلـك وكأن لعنة صُبت عليهـم، يسـتمر الوضع دقائق حتـى يخرج من بينهم صـوت حكيم، لا يتبينه معظمهم بسـبب الظلام الذي حل على المكان لكن المقربين منه يعلمون أنه الدكتور وليد، يقترح عليهم أن يحفروا له حفرة غرب المقابر ويُدفـن فيها، يهدأون فجأة وكأن زر تشـغيل الصـوت لديهم كان تحت يـد أحدهم ضغطه فجأة، ثم قام بتشـغيلة مرة ثانية حيث علت صيحات التأييد للفكرة، ذهب عنهم همهم وكربهم فجأة، عمت سعادة الاقتراب مـن الخلاص وجوههـم، يتحركون جميعًا إلى ما خلـف المقابر حيث





مسافة صغيرة بين المقابر وبين قاعدة الجبل، يتقدم حفار القبور ليصنع لحدًا لجسد ناصور، بعد دقائق معدودة يقلبون المحفة، الباب، ليسقط من أعلاها الجسد، يهيلون عليه التراب بسرعة ثم يتحركون إلى اتجاه القرية وكل في أموره مشغول.

صباح اليوم التالي كانت القرية عن بكرة أبيها، رجالًا ونساءً وأطفالًا، يتحلقون حول جسد ناصور الملقى أمام المقابر في اتجاه القرية، يتدافعون لرؤيته، لا يصدقون ما يشاهدونه، لقد دفنوه بأيديهم ليلة أمس، لابد أن أحدًا قد أتى ليلًا ونبش قبره وحمله إلى هذا المكان، يسألون: ولماذا؟ يجيب: يرغب في دفنه بإحدى مقابرنا. يتحدث ثالث: ومَن منا يرضى بدفنه بين أهله.

ماذا أنتم فاعلون يا أهل الكاجوج؟! لا يجدون غير حل واحد فقط، وهو إعادة دفنه في نفس حفرة أمس، ثم يهتف أحدهم:

- كل أهالى الكاجوج هنا.. والكل يعلم مَن هو هذا الرجل ولا أحد يقبل جثته في مقبرته بين أهله، وسوف ندفنه في نفس الحفرة، ولا يتقدم أحد لإخراجه منها مرة أخرى وإلا قسمًا عظمًا يكون هو قتيل الكاجوج ويدفن جسده إلى جوار جيفة ناصور.

يؤيد الجمع كلماته ثم يحملون جسد ناصور إلى حفرته مرة أخرى، يهيلون عليها التراب ويدقونه بأقدامهم، يأتى أحدهم بدلو ماء ليسكبه فوق التراب، يتطوع آخر ويأتى بقطع صخرية، على قدر حمله، ليضعها فوق الحفرة وكأنهم يؤكدون التخلص منه. يعودون بعدها إلى القرية وخلفهم سحابة من غبار، بينما قلوبهم تتساءل عمن فعل ذلك وأخرج





جسد ناصور؟! الشيخ منصور الوحيد الذي ارتاب في فراج، يبحث عنه بين الجموع، تتلاقى أعينهم، تحمل عين الشيخ منصور الاتهام بينما تقسم عينا فراج على ألا يد له فيما حدث.

صباح اليوم التالى يخرج البعض من باب الفضول للتأكد من استمرار جثة ناصور في لحدها، لكن لم يكد يقترب هؤلاء من المقابر حتى يشاهدون الجسد في نفس مكان الأمس، يعودون ويسبقهم صراخهم. لحظات وتتجمع القرية كما تجمعت بالأمس، لا يملكون تفسيرًا، تنطلق الاتهامات لتجيبها التبريرات، تعلو الأصوات حتى تكاد الشياطين تلهو بهم، فقد بدأت العصبيات والمشاكل العائلية تظهر على السطح، يقف الشيخ منصور على مكان مرتفع، يهتف في الجمع حتى يهدأوا وينصتوا إليه، بعد الحمد والشكر والثناء يطلب من الله أن تعم السكينة أهالى قرية الكاجوج، ثم يقول:

- اعلموا.. أثابكم الله.. بأن هذا الرجل عاش منبوذًا بسبب أفعاله الشيطانيه، لقد آخى الجان ويعلم الله وحده ماذا كان يفعل لاستحضارهم.. وإن كنا نعلم أنه ليس بالأمر اليسير على أي نفس إلا النفس الكافرة، لقد عاش منبوذًا.. ولا غرابة في أن تنبذه الأرض اليوم

تعلو الشهقات، وتحل علامات الاستحسان الوجوه، حتى إن بعضهم يبتسم ابتسامة إعجاب ويقول في داخله «زادك الله علمًا يا مولانا» بينما يُكمل الشيخ منصور:

- نعم.. إن الأرض والجبال والسماء والأشجار وكل ما في الكون يسبحون بحمد رب الكون، إلا مَن أبى، وهذا «يشير نحو جسد ناصور»





قد أبى أعاذنا الله وإياكم، أما وقد رفضنا دفنه في مقابرنا فقد رفضته أرض الله.. لا تريده في قلبها وتلك معجزة يريد الله عز وجل أن نتعظ بها ولا يسلك أحدنا مسلك هذا الرجل.

مع تلك الجملة بالذات يبحث الشيخ منصور عن فراج لينظر في عينيه، لكن فراج يتوارى خلف أحدهم وكأنه يدرك أن الشيخ منصور سوف يبحث عنه. يتفقون على حمل الجسد ليلقوه بعيدًا، خلف الجبل، ثم يعودوا عنه تاركين إياه طعامًا للسباع.

ينتهي الحال إلى ذلك، لا يجرؤ فراج على الاقتراب من المنطقة المقام عليها بيت ناصور كي يبحث عن أي وسيلة للاتصال بناصور الكبير، لكنه لم ييأس، إن كان سعفان، ناصور، قد مات وهو همزة الوصل، فهناك ألف ناصور كي يحلوا محله، نعم ليسوا في مستوى قوته، لكنهم يمتلكون الخبرة التي قد تفيده في تحقيق مأربه.

لقد توارى دجالو الكاجوج بعد تلك الأحداث الأخيرة، يعتزل بعضهم أعمال الدجل، أقاموا مشروعات بما يمتلكون من مال. يلجأ فراج إلى ساحرة في قرية بعيدة تجاه الجنوب، سيدة انتشر خبرها في المنطقة، تُقرب البعيد وتبعد القريب وتجلب العروس في دقائق معدودة.

يخترق مباني الأجداد، قليلة هي أفواج السيّاح مقارنة بالماضي، يشعر بضآلته وهو نقطة سوداء تتحرك بجوار الأعمدة والتماثيل الشاهقة، يتردد صدى خطواته في المكان حتى يصل إلى أرض فضاء على أعتاب الجبل، تثير رمالها رياح خفيفة، بيت الساحرة مقام هناك،



يفضلون عدم التواجد بين الناس، يطرق بابها، تتأمله لحظات، فتى بجسد ممشوق وعضلات قوية يحمل فورة وسر لم يفشى بعد، لو تنال قوته وسطوته، تبتسم في هدوء وقد ارتجف أسفلها، تدعوه للدخول.

يجزل العطاء وإن لم تكن في حاجه، سيدة أربعينية ذات ملامح بارزة، حتى إنك تجد نفسك في لقاءك الأول معها تود لو تنظر إلى كل جزء على حدة، تتفرس فيه لأنه يحتاج إلى تأمل حقيقي، وجنتاها بارزتان تكاد الدماء تتفجر منهما، عيناها واسعتان مثل طبقين من الخزف الأبيض تتوسطهما زتونتان سودوان، خطان أسودان على شكل هلال يشيران إلى مكان الحاجبين، حتى كفّاها كانا ممتلئين ليبرزان قِصرًا في أصابع كفيها، ناهيك عن تفاصيل باقي الجسد، لكن ما لفت نظر فراج كثيرًا ثدييها النافرين، يبدو أنها تدرك قيمة ما تمتلكه الأنثى من كنوز، يبدو أنها تمارس الجنس بحرفية عالية، يفكر في تلك الكلمات قبل أن تشير له بالجلوس، يجلس محاولًا أن يتفحص باقي تفاصيل المكان كي لا يبدو مأخوذًا بجسدها، الحقيقة أنه كان كذلك، فقد كان يتوقع أن يشاهد ناصورة، الجسد النحيل، البشرة السوداء، الجلد المجعد على الوجه والكفين، الصوت الفحيحي، الرائحة العفنة المختلطة برائحة أعواد البخور، لكنه الآن أمام نموذج آخر لم يتوقع مشاهدته.

تتأمله السيدة لحظات قبل أن تقول:

- تذهب بعقلك ولن تستطيع العيش إلا إن تزوجتها.

يومئ برأسه مؤكدًا وقد ظهرت على ملامحه علامات أسى لحظة تعجبت لها الساحرة، بخبرتها تعلم أن شابًا في مثل عمره لن يأتي إليها





إلا طلبًا في تقريب حبيبة، لذا تُلقي بجملتها المحفوظة تلك، الطبيعي أن يندهش ذلك الشاب ويثني على فراستها، أما هذا لم يندهش ولم يتفوه بكلمة واحدة، إما إنه مغرم بشكل يذهب بعقله، محب لدرجة كراهية قلبه الذي أذله بهذا الشكل، وإما أنه على علم بما تفعله الساحرات. كان عليها أن تطلق نفخة قوية لتزيل بها ذلك الغبار الذي يغطي الصورة حتى تتضح المعالم.

تنتفض فجأة مطلقة صرخة مدوية، بشكل ما يصاحب صرختها انقطاع التيار الكهربائي، لا تزال صرختها يتردد صداها في أرجاء المكان، حتى تتلاشى ويعم الظلام ممزوجًا بالصمت التام.

تمر لحظات قليلة يبدأ فيها فراج بالانصات لأي حركة، يتملكه الفضول، لقد شاهد أفظع من ذلك، كان يود لو تُملى عليه تلك المرأة ما يجب أن يفعله بدون الخوض في تلك المقدمات. فجأة ينتفض فراج بعد أن قبض عليه من الخلف يدان لا ينتهيان بأصابع بشرية، إنما كانتا تنتهيان بأظافر حادة رفيعة، لم يكن في حاجة إلى ضوء ليعلم ماهية ذلك الكائن، كان كلبًا ضخمًا. بحركة لا إرادية يدفعه إلى الخلف بكوعيه حتى يستمع إلى صوت ارتطامه بشيء ما في الخلف، بدا أنها منضدة من صوت ارتطامها بالأرض لحظة سقوطها وتهشم شيء كان عليها. يصرخ فراج:

- ماذا يحدث؟!

- مَن أرسلك؟





يأتيه صوت المرأة قويًا مخيفًا، لكن المتأمل في صوتها، لو كان يعلم طبيعتها من قبل، لأدرك أنها كانت تعانى انفعالًا شديدًا ناتج عن خوف واضطراب عظيمين.

- لم يرسلنى أحد..

- أنت أحد أتباع ناصور الكبير.

لقد أُخبرت الساحرة بتلك المعلومة، أخبروها مرعوبين بعدما اشتمُّوا رائحة ناصور الكبير في المكان، لقد كانت رائحته كافية لإثارة الرعب في قلوب الجان أنفسهم. لا يجد فراج إجابة يصوغها، يتلعثم لحظات، حتى إنه يختبر صوته لئلا يكون قد ذهب عنه خوفًا، ثم.. بعد لحظات بدت مثل دهر.. يقول:

- كنت كذلك ليلة واحدة حتى قتل ناصور الإنسى قبل أن أعرف أية تفاصيل عن الاستحضار، لذا أتيتك الآن.

ثوانى تمر وكأنها تراجع أحدًا لتتأكد من صدق حديثه، كان همه الآن في ذلك الكلب الذي يعلو صوت لهاثه خلفه مباشرة، يبدو أنه في انتظار إشارة أخرى كى ينقض عليه، تعجب.. هل يصل إدراك الكلاب إلى تلك الدرجة التي تقارب إدراك البشر؟!

في لحظة واحدة تعود الإضاءة إلى المكان، يجد السيدة جالسة في مقعدها كما هي، تحمل على وجهها نفس الملامح، يلتفت بحذر إلى الخلف ليتفحص ذلك الكلب الشرس الذي كاد ينهشه منذ لحظات، لكنه يصعق، لا وجود للكلب.. يجول بنظراته في كل الأرجاء.. لا أثر





له، حتى المنضدة التي وقعت على الأرض وسمع تحطم شيء كان عليها، كانت في مكانها بما عليها. تملكته دهشة حقيقية، يعود بنظراته إلى السيدة فيجدها تنازع ما بين الخوف ومحاولة استجلاب الهدوء، بنبرات متقطعة تتحدث:

- إسمع يا هذا.. علاجك ليس عندي.. لترحل بهدوء أفضل لي ولك.

- أخبرتك الحقيقة.. ناصور فعل...

يسرد فراج كل التفاصيل التي مر بها منذ أن شاهد حميدة وذهابه إلى منزل والدها طالبًا الزواج بها، طرده من المنزل مثل جيفة عفنة ثم ذهابه إلى ناصور، حتى ينتهي إلى حضوره إليها الآن علها تجد له حلًا بعد أن اختفى السيد راضي وعادت حميدة إلى منزلها لا يعلم عنها شيئًا، ولا يمتلك أية وسيلة للاتصال بناصور الكبير لتجديد الوعد.

يوافق بعضنا على الخوض في تجارب قد تكون مهلكة، لكن روح المغامرة الكامنة بداخل هذا البعض، وهي روح متأججة عكس تلك الخامدة لدى آخرين، تدفع هؤلاء باستمرار لامتحان الحياة عن طريق تلك التجارب، بعده يعود إما منتصرًا يشار نحوه بالبنان، وهؤلاء هم المشاهير في مختلف المجالات، وإما لا يعود إلا جثة هامدة أو حتى بقايا إنسان.

ذاك ما جعل الساحرة توافق على مساعدة فراج في تحقيق مبتغاه، شريطة أن يدفع لها مبلغًا عظيمًا من المال يوم زواجه بحميدة وإلا استعملت سحرها لقلب حياته إلى جحيم، فأقل ما ستفعله هو أن





تجعل حميدة، في نظره مجرد قردة شرسة يفزع من مجرد النظر إليها، يوافقها فراج في تحقيق كل ما تريده إن تحقق له مطلبه.

بداية تؤكد له أنها، ولا أي أحد غيرها، يستطيع أن يستدعى ناصور الكبير مرة أخرى خاصة بعدما حدث مع سعفان، ناصور الإنسي، ولكنها تمتلك من الوسائل ما يعطيها القوة اللازمة لتحقيق هذا الأمر ولا سيما أن حميدة مسحورة بالفعل، ووالداها قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

بإشارة من يديها يعم الظلام الحجرة، بعد لحظة تعتاد فيها عينا فراج الظلمة يشاهدها تحرك يديها في الهواء ثم تلقى شيئًا لا يراه في الهواء، لكنه يشتم رائحة نفاذة مثل رائحة الخل.. لا.. لا.. لقد زكمت الرائحة أنفه وأحرقت عينيه، إنها رائحة بصل، وكأنها نثرت في الهواء قطرات عصير البصل، حتى إن صدره ضاق بالرائحة وسعل عدة مرات متتالية، ينبعث ضوء أحمر دامى من زاوية ما خلف فراج لتستقر على وجه المرأة الذي بدا ملطخًا بالدماء. تعلو همهماتها حتى تتضح بعض الحروف ثم بعض الكلمات، إنها تستحضر أحدهم، تهبط بيديها المرفوعتان في الهواء إلى شيء موضوع على المنضدة القائمة أمامها، تحتوى ذلك الشيء بيديها، يتأمله فراج على أثر الضوء الأحمر الشاحب، يجده صندوقًا مصنوعًا من خشب الكافور، يعلو صوتها بكثير من التعاويذ غير واضحة الكلمات، لكنه بعد لحظات يفهمبعض كلماتها:





- احضــر يا ميمون.. يا أبــان وخ ....

....

احضروا يا خدم هذه الأسماء لسلب عقل حميدة وتهييج قلبها.(*)

تزوم بشـدة وهي تهز رأسـها بعنف حتى إن لعابها قد سال بعضه من زاويـة فمها، تعب من هـواء الحجرة لتملأ صدرها وقد أغمضت عينيها لحظات قبل أن تهدأ، تغمر ملامحها بسمة ظفر، تتأمل قلب الصندوق.

كان الصندوق صغيرًا لدرجة أنه لا يسع أحد، اللهم إلا إذا كان طفلًا في عامه الثالث على أكثر تقدير، بدافع خفي يمط فراج رأسه مثل قطعة مطاطيـة ليرى مـا في قلب الصـندوق، تصل عينيه إلى قلـب الصندوق بالفعل، لكنه يعود مكانه سريعًا قبل أن تلحظه الساحرة التي بُح صوتها من كثرة تعاويذها، لقد شاهد في قلب الصندوق قالب طوب أبيض.

ماذا تفعل هذه السـيدة؟! أتسخر منه وتوهمه بأن في الصندوق أحد !! قطعـة طوب !! يبدو أنه وقع في شـرك نصابة تسـتنزف ماله، سـوف يرحل عن المكان فورًا، يبحث عن غيرها، قد تكون ذائعة الصيت لسـر يكمن في ملامحها، أو في جسدها، لكنها لا تستطيع أن تنفعه في تحقيق مطلبـه، يهـم فعـلًا بالوقوف لكنـه في منتصف المسـافة بيـن الجلوس والوقـوف يصعق حتى إنه يتسـمر فـي مكانه بين الجلسـة والوقفة، لقد سمع صوت طفل يبكي، الصوت يخـرج من الصندوق الموضوع أمام المرأة. قبل أن يفيق من دهشته يستمع إلى صوت المرأة ترحب بالقادم، كانت سعيدة مثل زانية، تقول:

(*) لقد تم الاستعاضة عن الكلمات الحقيقية لتعويذة التحضير بالنقاط حتى لا يتم استخدامها.





- أخيرًا أتانى أحدكم.. خفتُ أن تكونوا غضبى.

لكن الطفل المحشور في الصندوق، الذي بدا بوضوح أمام فراج، لا يجيبها، إنما.. إنما يبكى.. يعود فراج إلى الخلف بجزعه، يتذكر في هذه اللحظة أنه لا هو واقف ولا هو جالس، وبعودة جزعه إلى الخلف دهشة، يجلس في مكانه مرة أخرى، إنه يشاهد طفل جان يبكى..!! هل جنت هذه المرأة..أتطلب المساعدة منه!!

تمزج الساحرة صوتها يبسمتها التي بدت زائفة جدًّا. تلاطف الطفل، مثل زوجة أب ساعدت في الخلاص من الزوجة لتحل محلها، حتى يهدأ قليلًا، يلاحظه فراج ينظر حوله يتبين المكان حتى تستقر نظراته على فراج المذعور، عيناه دمويتان غائرتان وكأنهما حفرتان مملوءتان بجمرات فحم حجرى مشتعل، يرتعد فراج وينكمش في بعضه حتى إن عظامه أصدرت صوت فرقعات متتالية، يود لو يهرب تاركًا المكان لكنه يشعر بخواء رهيب في نصفه السفلى الذي سيأبى بلا شك حمله.

يفيق على صوت الساحرة تقول:

- مَن أنت؟

بصوت فحيحى متقطع يجيبها طفل الجن:

- زعزوع.. اسمى زعزوع.

تسأله بينما عيناها ترقبان فراج لمعرفة رد فعله على ما تقوم به من أعمال خارقة، تغمر وجهها ابتسامة باردة:

- محمدى أم عيسوىّ؟





- موسوى..

- يهودى؟!

تسأله السيدة بدهشة ممزوجة بسعادة، لقد أطلقت تعاويذ الاستدعاء ولم تكن تعلم ماهية القادم، لم تفاجئ بكونه طفل، لكنه طفل يهودى، سيكون أقوى بلاشك في أعمال الشر، كثيرًا ما سمعت عن هذا الطفل وعن أسرته كاملة، تعلم قدراته الخبيثة ولكنه لم يصدف وأتاها مرة من قبل، تكشر عن أنيابها وتظهر قسوة غير عادية وهي تأمر طفل الجان، تطلب منه أن يفعل......... وأن يستخدم............... حتى يأتى بحميدة لزوجها الذي فرضه القدر، ثم تشير ناحية فراج، بعدها تقدم الوعد والقسم الغليظ بأنها سوف تترك زعزوع ليعود سالمًا إلى أمه «بنت الخناس» وإلى أبيه «أبو الزعازيع».. ثم تتغير نبرة صوتها إلى الشدة والغلظة وتكشر عن وجه أكثر قبحًا وهي تصرخ بأنه لو لم يحقق لها مطلبها سوف تنتقم منه أشد الانتقام، وكنوع من إظهار العقاب ترفع غطاء الصندوق المعلق في جانبه لتغلقه فجأة محدثة صدوتًا مزعجًا، فيعلو صراخ الطفل ملعنًا بأنه سوف يحقق مطلبها. ترفع غطاء الصندوق وقد زينت وجهها بابتسامة الأم العطوف، تعطيه الإذن في الانصراف، يئن بشدة وينبعث عنه دخان أحمر وأسود كثيف حتى يتلاشى الدخان، فلا يجد المتأمل الطفل وإنما قالب الطوب الأبيض يحتل قاع الصندوق الخشبي.

***





(18)

حميدة

يقضي وقت متعه مع جسدها، لم تشعر يومًا بلذة في اجتماعه بها، تتأمل جسدها في المرآة متعجبة، أين ذهبت حميدة فتاة الجامعة؟! تلك الفتاة التي كانت تشعر بأنها ملكة متوجة، قوة عظيمة تسرى في عروقها، لو أرادت أن تحلق في السماء لحلقت، تفاصيل الحياة من حولها طوع أمرها، ممتلئة بعبير الزهر، قوية مثل لبوة، رقيقة مثل فراشة بنفسجية تحلق بين ورود الربيع. لكن في يوم أسود انقلبت حياتها، حتى كادت تقضى على ذلك الجسد قبل زواج فراج بها، كثيرًا ما حاولت الانتحار، تؤذى نفسها وتؤذى مَن حولها لولا حيطة وحذر والدها السيد راضى، حتى جاء اليوم المشهود، يوم أن قامت حميدة بأمر رهيب، كان ذلك بعد عودتها من المستشفي بعدة أيام.

كانت الأمور قد استقرت بعض الشيء خاصة بعد الأحداث الأخيرة التي مرت بها القرية من مقتل سعفان ولفظ الأرض لجسده وإلقاء جيفته في قلب الصحراء خلف الجبل. يبدو أن إعلان عدد من السحرة توبتهم





وهجرة بعضهم، جعل الشياطين ترحل عن المكان أو بالأحرى ترحل عن جسد حميدة، هذا ما قاله الشيخ منصور للسيد راضي، أما ما أكده الدكتور وليد، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، أن حميدة تتماثل للشفاء بعد علاجه الناجع.

لكن الحقيقة التي أكّدتها الساحرة خلال جلستها الثانية مع فراج، أن ناصور الكبير أنف من استحضاره من بني البشر واتخذ قراره بسلك مكيدة من شأنها القضاء على سعفان ثم هجر المكان بلا عودة، وهذا ما جعل حميدة تهدأ مؤخرًا، وإن طال الوقت واستعانت حميدة بقراءة القرآن والهدوء النفسي، لعادت إلى طبيعتها بعد أيام معدودة، لكنها، الساحرة، تبذل قصارى جهدها لإشعال الأمور مرة أخرى.

في الليلة السابعة بعد عودة حميدة إلى المنزل، عادت الابتسامة إلى وجه والديها حينما خرجت حميدة من حجرتها بشكل طبيعي وقد بدا على وجهها نضارة فقدتها خلال الأيام الصعبة الماضية، بشرتها الصفراء وعيناها الغائرتان وكفاها المعروقان، جعلوا منها مومياء مخيفة، أما اليوم تورد وجهها، صدرها يعلو وينخفض بانتظام، كتفاها معتدلان ليختفي انحناء وتقوس بَدَوَا على ظهرها من قبل.

تطلب طعامًا كثيرًا، تشعر بجوع وكأنها لم تتناول الطعام منذ أسبوع، دُهشت الأم، فقد كانت تبذل الكثير لاقناعها بتناول كسرات خبز كانت ترفضها بشراسة، أحيانًا تقذف أطباق الطعام في وجه حاملها أيا كان.

تعود الابتسامة أكثر وأكثر إلى والديها كلما أكثرت من تناول الطعام، حتى أنهت معظم الأصناف على المائدة، لا تفضل العودة





إلى حجرتها، تجلس معهم في شرفة المنزل المطلة على حديقة غناء تحتوي على عشرات من النباتات والزهور المختلفة ألوانها، تلهو بينها وعلى أغصانها الطيور، بينما تترقرق أشعة الشمس على صفحات أوراقها.

يتبادلون، ثلاثتهم، أحاديث مختلفة، لا يتطرقون إلى ما ألم بحميدة مؤخرًا، يتذكرون الكثير من المواقف الطريفة التي مروا بها قديما، يتذكر السيد راضي أيام زواجه الأولى، تبتسم الزوجة بخجل وهي تتابع حكايا زوجها واندهاش حميدة الممزوج بضحكاتها، يتناول الرجل سكينًا صغيرًا وثمرة تفاح يقطع منها أجزاءًا صغيره يناولها إلى حميدة وهو مستمر في سرده، ضاحكًا كلما أوغل في تفاصيل دقيقة يتورد منها وجه زوجته، فتضم قبضة يدها لتضربه بخفة في كتفه، يميل راضي ضاحكًا ليتفادى ضربتها برشاقة طفل.

فجأة..

تتشنج يد حميدة، يغيب سواد عينيها ويحل بياضهما، تقف مثل لوح خشبي، رعشة رهيبة تتملكها، تطلق صرخة تشق صفاء الكون فتهرب طيور أشجار الحديقة مفزوعة. تفارق أرواح والديها جسديهما ليتحولا إلى تمثالين يشبهان تمثالا ممنون، تسقط بشدة على ظهرها، وكأن يدًا خفية مصنوعة من حديد قد قبضت على كتفيها ثم جذبتها بشدة لتلقى بها، تعود الروح لوالديها فيرتدا فزعًا إلى الخلف وقد تملكهم رعب لا حد له، قبل أن يستوعبا ما حدث، تكون حميدة قد وقفت مرة واحدة بشكل غريب، غارت عيناها وتشنجت أطرافها أكثر، نفرت الدماء

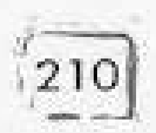




فشحب وجهها مثل لوح ثلج، تنظر نحو والديها وكأنها تشاهد كل شياطين الكون، تشهق فزِعَة عندما تتلاقى نظراتها بنظرات أمها، تمد يدها بخفة لتلتقط السكين من فوق المنضدة، قبل أن يستوعب أحد ما يحدث تكون حميدة قد قفزت، مثل قرد صغير متشرد، فوق أمها، فتسقط الأم بمقعدها أرضا، لتعتليها وترفع يدها بالسكين لتغمده في جسدها، تنحشر صرخات الأم في صدرها مشدوهة، بينما يصدر عواء غريب عن حميدة.

لحظة واحدة مرت مثل دهر، حملت الكثير، لحظة حملت فيها حميدة سكينها لتقتل، لحظة فقدت فيها الأم أنفاسها حتى كادت تفارق الحياة، قبل أن يهبط السكين نحوها، ألمًا وفزعًا، نفس اللحظة جعلت جسد السيد راضي ينتفض ليقف وهو يضرب المنضدة بقدمه بمنتهى القوة، تندفع المنضدة بقوتها لتصدم حميدة من الخلف، يختل توازنها وتسقط جانبًا، يرن سكينها لحظة وقوعه على الأرض بعيدًا.

يعم الصمت المكان، تلف وجوههم الدهشة، لحظات قبل أن تنتفض حميدة مرة ثانية متوجهة ناحية السكين على أطراف المكان، لكن السيد راضي، وقبل أن يدرك ما يحدث، يقذف جسده مثل ثعلب ليدفع السكين بقدمه بعيدًا، في نفس اللحظة التي يتلقى فيها حميده على صدره ممسكًا بذراعيها ثم يلفهما خلف ظهرها ليشل حركتها، للمرة الأولى يلحظ قوة فتاته، طفلته، زهرة الياسمين الرقيقة في شجرة أسرته، ماذا حل بكِ يا ابنتي؟! سؤال يدور في عقل الرجل بينما قلبه ينزف دمًا، حتى إن قواه قد خارت قليلًا، ترتخي يداه قليلًا شفقة على





عظام ابنته، ترفع حميدة عينيها لأعلى قليلًا، ترتجو والدها أن يرحمها، أن يفك قيودها.

لم تكن تعلم أنها، بنظراتها المنكسرة المهزومة، تغرس سكينًا حادًا لتمزق به قلب الرجل الذي يشعر بعجز رهيب، يفكر في لو أنه يدفع كل ما يملك من أجل أن تُشفي حميده. في لحظة ارتخاء جسده المتشنج تتحرك حميدة محاولة الخلاص من قيده، يفاجئ الرجل بحركتها، يُسرع في إحكام قبضته مرة أخرى، يحملها على صدره متحركًا إلى غرفتها، يمر بزوجته التي ما زالت ملقاة على الأرض تتابع ما يحدث في ذهول.

بعد لحظات يخرج الرجل، شاردًا، مذهولًا، لقد أحكم قيدها في السرير قبل أن يسكب في وريدها حقنة مهدئة تركها له الدكتور وليد لاستخدامها عند الحاجة.

يشرد الرجل ساعة، لا يعي فيها ما يحدث، لم يستمع إلى حديث زوجته ثم إلى بكاءها قبل أن تتركه متوجهة إلى حجرة ابنتها، تنحدر على وجنتي الرجل دمعتان ثقيلتان تشقان أخدودين كما مخرات سيول جبل بريرو، دمعتان مثل كرتين من نار تحرقان كل ما تمران به، يتسرب لهيبهما إلى قلبه فينزف، تأبى الآهات الخروج فيغلي داخله، لحظة انكسار اختزلت حياته كاملة فشاهدها في لحظات، جعلته يتذكر صولاته وجولاته ومهاراته في حياته حتى وصل إلى تلك اللحظة، كأنه رياضي في سباق عدو، يجرى بكل ما يملك من قوة حتى إذا وصل نهاية السباق سقط صريعًا.





أهي النهاية يا راضي؟ يسأل نفسه بغير كلمات، يجيب بهزة رأس هزيلة علامة الموافقة، يتمتم" يبدو أنها النهاية بالفعل يا راضي"، تمنى لو يصرخ.. لو يسب ويلعن.. تمنى لو يفعل أي شيء، لا يستطيع، حتى يداهُ لن تطيعه إن أراد تحريكهما، ينظر نحو كفيه بانكسار واستعطاف وكأنه يقول هل تخذلاني إن طلبت منكما الحركة؟ يشعر بخواء رهيب، ذلك الشيء الذي كان يشعر به يملأ جسده ينسحب منه رويدًا رويدًا، الخواء يبدأ من قمة رأسه، ينسحب فتغيب عنه الصورة كاملة، ينسحب أكثر فيعم صمت رهيب، يثقل لسانه، يفقد الشعور به تمامًا، تتهدل يداه، لا يقوى صدره على سحب الهواء، لصمم أصابه لا يستمع إلى حشرجته، ترتعد قدماه قبل أن تستقرا بلا حراك.

بعد مرور الساعة تخرج زوجته منكسرة تجر ساقيها حتى إن زحفهما على الأرض يصدر صوتًا،عيناها على الأرض وكأنها تحدد موقع قدميها على أرض مليئة بالحفر، قبل أن تصل ترفع عينيها نحو زوجها السيد راضي، تود لو تستقي منه لحظة صمود تستمد منها قوة تعيش بها ما تبقى لها على هذه الأرض، تشاهده منكسرًا، نعم.. لقد سقط رأسه على صدره، تقترب منه أكثر، تناديه هامسة.. ثم بصوت أعلى، تقترب أكثر، ترفع صوتها، تمد يدها لتحركه من أسفل ذقنه، يتدحرج رأس الرجل ليرتكن في اتجاه آخر.

راضي.. راااااااااضي

صرخة عالية من قلب كسير تغطي المكان.







(19)

ليلى

- مات الرجل وانهارت أسرته، حقق فراج ما أراده وتزوج بحميدة، تمر السنوات.. وكما يقال آفة أهلنا النسيان، نسى الجميع فراج وما فعله.. وانتهت قصة مأساة حميدة، وعاشت الكاجوج آلاف القصص الأخرى حتى وصلت إلى قصتى التي انتهت بحمل المهندس عمر مقيدًا مكممًا إلى مكان إقامة أسرته، ثم قتله على عتبة داره، علمتُ أنهم تركوا رأسه هناك ثم حملوا جسده وألقوا به في قلب الصحراء على جانب طريق أسيوط الغربى حال عودتهم.

بهذه الكلمات تنهي منيرة حديثها إلى ليلى التي كانت تستمع إلى التفاصيل الأخيرة بقلب دام لكنها تماسكت وأجبرت داخلها على الانتقال إلى المرحلة التالية، إلَى ما أتت من أجله، لقد عَلِمت الكثير، بل لقد حددت طريقة إثبات براءة والدها ثم القصاص.

لم تكن تملك الدليل المادى على إدانة فراج لكنها تمتلك اليقين بأنه هو مَن اعتدى على منيرة ليحقق غرضًا دنيئًا ويتخلص من والدها،





تقاوم رغبة تجبرها على الاعتراف لمنيرة بأنها ليلى ابنة المهندس عمر قتيل أسرتها. لكنها تتماسك فلم يحن الوقت بعد. تَشرد بعيدًا، تنسحب من الوجود، لا ترى غير ظل والديها، ظلال موتى باهتة لرأس تدمى وجسد يشتعل، أنّة ساخنة مشبعة بدموع تنهمر، تفيق على مس منيرة لها، ترتشف دمعها، تحبس أنّاتها، تعتدل راسمة على ملامحها بسمة بدت حزينة، سريعًا ما اختفت تاركة خلفها أشعة الشمس الذهبية على ذلك الوجه الذي زاده الحزن جمالًا، صَفَّاهُ الألم فجعله مثل ملك شفافًا بلا خطيئة.

تتسائل منها كلمات بلا ملامح، كان ياما كان.. هناك رجل تكمن قوته في مشاعره الفياضة وأم ملائكية، تعارفا في عمر الزهر الفواح، تعانقا فوق أَسِرَّةٍ مصنوعة من سعادة الأهل ومباركة السماء، عاشا معًا حبًا صافيًا، امتزجا.. انصهرا.. ذابا عشقًا، فأنجبا زهرة واحدة، زهرة جمعت رحيقيهما معًا، حتى إذا نضجت واكتمل بهاؤها ونضج عبقها، ذهبا عنها كأبشع ما يكون الذهاب، انقطع نبع حياتها، تحولت إلى كتلة غضب.

تندهش منيرة مما تسمعه، تهز ليلى متساءلة عَمّن تتحدث؟ تعود ليلى إلى المكان، تبتسم كما الباكية، تمد يدها لتصافحها فتجدها مثل لوح ثلج، تحتضنها بفتور فتجدها مثل قطعة خشب تُركت في الشمس سنوات لو ضُغِطت لَتهشمت. تغمر منيرة بنظرة تحمل ألف معنى قبل أن تتركها في حيرتها على وعد بلقاء قريب.





تشير إلى سيارة أجرة تتوجه بها ناحية الفندق، كانت شاردة تعيد تقليب أفكارها وفقًا للمعلومات الجديدة، عليها أن تهدأ حتى تستطيع التفكير، يجب أن تعود تاركة بحر اللهب الذي جذبها إلى أعماقه منذ لحظات،تنشغل بالطريق وعيون البشر من حولها، كل عين تُخفي ألف حكاية، البؤس مثل إزميل يشق جدران القلوب فتدمى، بينما الهناءة مثل ريشة تخط على صفحة ماء فتزول.

يقف قلقًا أمام الفندق في انتظارها، لم يعد يتحمَّلُ انتظارها بالداخل، تواجده بالقرب منها، وإن كانت جافة المشاعر، أكثر مما كان يتمناه، لكن تمر الأيام في أسوان وهي في انعزال تام عنه، رحلة اعتقدها بمثابة فترة تقارب وجذب، يتبادلان فيها الحديث، يبث إليها أشواقه، تبادله محبته بمحبة هي حلم له. اتصالها الأخير تسأله عن مكان تواجده، ولَّد بداخله قلقًا وقليل من الراحة، خشية عليها، وراحة لأنها المرة الأولى التي تسأل عنه، وإن كان سؤلًا يحمل ريبة، فهو بلا شك يحمل رغبة تخص علاقتهما معًا. عاود الاتصال بها أكثر من مرة كي يطمئن، لكنها لا تجيبه، يمط شفتية غضبًا، مؤكد تليفونها على الوضع الصامت يا ماهر، يقول لنفسه في صمت. غضبته تتلاشى بعد لحظة، لن يغضب منها، مهما قست عليه، وفي قلبه كل هذا الحب.

تتوقف سيارة أجرة أمام الفندق، تهبط منها ليلى وقد أخفت معظم وجهها خلف نظارة شمسية سوداء، تنظر إلى أرض الطريق وكأنها تحصي خطواتها، يقابلها ماهر مبديًا قلقه الحقيقي عليها ودهشته من تحركاتها التي تخفي تفاصيلها عنه، تجذبه من يده ليجلسا في مكان





قصى من قاعة الفندق، يطلبان مشروبًا، تصمت ليلى وقتًا بدا طويلًا بالنسبة لماهر، لكنها كانت ترتب أفكارها وما ستخبره به، محاولة تبسيط الأمر حتى لا يكون رد فعله حاد، فقررت أن تخبره بالتدريج.

في البداية تبتسم وتخبره بأنها شاهدت شبيها له يقود سيارة خاصة بصحبة فتاة "ثم تغمز بعينها اليسرى" مع ابتسامة خفيفة، تؤكد أنها في البداية داخلها الشك من أن يكون هو ماهر لذا هاتفته على الفور، يتبسم الفتى وقد أخذ الأمر من زاوية أخرى، إنها تفكر فيه، ورغم كل ذلك الجفاء الذي تُظهره في تعاملها معه فها هي تؤكد أنه يحتل مساحة ما بداخلها، مساحة جعلتها تشعر بالضيق.. بالغيرة، عندما شاهدته مع فتاة أخرى، ليته يقابل شبيهه هذا ليحتضنه شكرًا وعرفانا ولاستغلته في إثارتها مرة أخرى.

تشيح بيديها علامة ألا يهتم بالأمر، ثم تنحني نحوه لتحتوى المنضدة الصغيرة أسفل صدرها، تكسو ملامحها قسوة أفزعت ماهر وهو يقترب ليدنو منها، يشعر بأنها سوف تهمس بكلمات ويجب أن يكون على مقربة منها، تهمس بكلمات عن السبب الحقيقي لتواجدهم في هذا المكان، الكلمات حارة مثل حرارة المكان، يشعر معها بحرارة صدرها، في البداية بدت المهمة سهلة، استقصاء الأمر في محاولة كشف غموض قاتل والدها، لكنها تسرد له حكايا مرعبة، فتاة تُسحر، جدران تُشق، إنسي يستحضر أحد ملوك الجان، رجل يذبح نفسه، جرائم تُدبر، فتاة تكاد تقتل نفسها ثم تحاول قتل أمها، يتوفي والداها رعبًا كمدًا، تتزوج المسحورة بالمدعو فراج عدو والدها القتيل





وصاحب مكيدة شيطانية منتج عنها اغتصاب فتاة مثل زهرة رقيقة مثل شعاع شمس دافئ في يوم مطير، ينفطر قلب والدها شدوان الطيب، تذل أسرتها فيثأرون من صاحب القلم، الدليل الوحيد الموجود بجوار فتاة جريحة فاقدة عذريتها على يد ذئب، فاقدة الروح ملقاة بين أعشاب القصب الجافة ليلًا، فتاة لم توجه إشارة إتهام واحدة نحو القتيل. تدمع ليلى متساءلة بأي ذنب يقتل والدى؟ وبأي ذنب تقتل أمى؟

يسحب ماهر يدها، يحتويها بين راحتيه، يربت عليها في حنان وشفقة، لقد أخذته إلى عالم آخر، تلك الحكايا في دراما ألف ليلة وليلة فقط، لم يتخيل يومًا أنها ما زالت حتى اليوم، ولها عالمها الكامل، لها عُشاق ومُريدون؟!

يود لو يحتضنها لِيُسرى عنها، لحظات قبل أن تسحب يدها وتجفف دمعها، لوجودهما في هذا المكان هدف، وصلت ليلى إلى مرحلة من المعرفة أنبتت بداخلها قوة رهيبة توافق قوة حقدها ورغبتها في الانتقام، يفزع ماهر من كلمة الانتقام، يُبدى دهشته، يجب أن يقدموا ما يمتلكون من أدلة وشكوك إلى الجهة المختصة، يتراجع سريعًا عن رأيه عندما لاحظ وجه ليلى يتغير إلى قسوة لم يعهدها، قسوة ذبيح حى، يتراجع صامتًا، تخبره بأنها ما أتت إلا للانتقام، سوف تثأر لوالديها رافقها أم غادرها للأبد.

يعم الصمت دقائق، تحتسى ليلى مشروبها بينما يمتنع ماهر عن تناول أي شيء، تعجب من تفاصيل القدر، كيف لشاب على درجته العلمية أن يتواجد هنا، ثمة رعب بداخله لا يقوى على تحمله؟!





يغيب عن المكان لحظات، لابد أن هناك حكمة ما، قد يكون اليد التي يجب أن تقود السفينة بحكمة حتى تعبر ذلك الإعصار المدمر، قد تلقى ليلى بنفسها إلى التهلُكَة، لن يستطيع العيش بدونها، مرافقته لها حماية وحياة، في لحظة واحدة يتقبل رغبة ليلى، بداخلها نيران يجب إخمادها، يتأملها، كيف لتلك العيون أن تبكي، وجنتان يجب أن تكونا وسادتين لشفتيه لا وسائد دمع، شفتان صيغتا من عشق تمتلكان جهاز إرسال للمشاعر هو الوحيد والأقوى على الإطلاق، كيف يتأتى لهما أن تنطقا بكلمات الانتقام؟ إن كان انتقامها حتمي لتجلس هي ملكة فوق عرشها المصوغ من زهورها المخملية، سوف يثأر لها، سيقدم فراجًا قربانا على عتباتها، لو تحل بسمتها بدلًا من قسوتها تلك لتغيرت تفاصيل الكون من حوله.

يندهش ماهر مما يعتمل بداخله، ماذا يقول؟! لقد ألهبه عشقها فتناسى مَن يكون تمامًا، أي غرابة في ذلك يا ماهر، يسأل نفسه. القصاص العادل حق، والعين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم. تستحق منه ليلى أكثر من ذلك، الآن فقط يشعر بمدى حبها بداخله، يشعر به عملاقًا يجعل منه ماهرًا جديدًا.

يمد يديه ليسحب راحتيها مرة أخرى، يبثها حماسًا وقوة لم تكن لتتخيلهم من قبل، تبتسم، يبتسم، يلثم راحتيها مرتجفًا، تطلق آهة وجع تمنى لو كانت آهة متعة، يعتدل ويخبرها بأنه يوافقها تمامًا فيما انتوت فعله، يتعاونان معًا لإظهار الحقيقة كاملة، لكنهما يجب أن يظلا طاهرى الأيدى، لا يجب أن يدنساها بدماء قذرة، تتساءل: كيف؟ يجيبها بأن





مكيدتهم ليست التدبير للقتل وإنما التدبير لرفع يد الجانى من أجل قتل نفسه، كما فعل ناصور الإنسي.

يخرجان من الفندق، وعلى أحد مقاهي الكورنيش يكملان ما بدآه، يضعان تفاصيل الخطة بدقة، تفاصيل خطتهم تحتاج إلى الكثير من البحث والترتيب والتدريب، يضع ماهر الخطوط العريضة لكيفية حصولة على المعلومات العلمية وتطبيقها على أرض الواقع، أما ليلى فتقرر أن عليها اتخاذ خطوة مهمة قبل البدء، خطوة نحو استقطاب شخص ما، يُبنى على تواجده النجاح التام أو الفشل التام.

تبتسم ليلى موارية نيرانها أمام لحظة هدوء نتجت عن شعور وشيك بالانتقام، الأماني تضفي علينا سعادة حتى قبل أن تصير حقائق. يتناولان طعامًا وشرابًا تشعر ليلى بمذاقه للمرة الأولى منذ ليلتها السوداء.

ترنو بعينيها ناحية ماهر الذي يشعر بحماس يشعله بداخله تعلقه بها، تشفق عليه من حبه، تتمنى أن تجد بداخلها هوى يوافق هواه، لن تقرر الآن، تنتهي فقط من تحقيق مرادها ثم تبحث بين زوايا قلبها لتبحث عن ماهر، تتنهد بصوت مسموع، تبتسم، مؤكد ستجده بالداخل، فقد آمنت بموافقته على مشاركتها تنفيذ انتقامها فوافق، وآمنَ هو بمحبتها إيمانًا حقيقيًا، فمن المؤكد أن تبادلة نفس المشاعر.

❋❋❋





(20)

فـــــراج

لم تترك الساحرة فراج منذ أن توفي السيد راضي وانهارت أسرته وتزوج بحميدة، واستقرت له الأحوال، فقد كان بمثابة بئر تغرف منه وقتما تشاء المال والمتعة، لقد تطورت العلاقة بينهما لممارسات حميمية يدرك فراج في داخله أنها استخدمت سحرها الأسود لتوقع به في شباكها، لم يكن يمتلك القدرة على الاعتراض ولم يكن يرغب من الأصل في الاعتراض.

لم تمر أيام منذ أن تزوج بحميدة حتى يشعر بفتور غريب لم يكن يتوقع حدوثه، حميدة كانت جسدًا لا روح فيه، لم يشعر بأية لذة، كانت الساحرة ملاذًا ملتهبًا يُفرغ فيه طاقاته المتأججة.

تمتص رحيقه وماله الذي يسرقه بحيل مختلفة من حميدة، تمر السنوات وهما على هذا الحال، ما كان يأمل فيه فراج في تلك الأيام هو اكتمال قوته بتعلم أساليب السحر، فقد رحل ناصور قبل أن يعلمه





خطوة واحدة، لكن ها هي سيدة السحر، أسفله عارية كل يوم، لو طلب منها ذلك ما بخلت عليه، سوف يعطيها كل ما تحلم به من مال.

ذات يوم، وبعد أن انتهيا من ممارسة الجنس، يعتدلان بأجساد عارية مثل أشباح تحت ضوء أحمر خافت، يشعل فراج سيجارته فتخطفها منه ساحرته ضاحكة بغنج الصبايا، يشعر فراج بانقباض وغصاصة في حلقه وهو يرسم ابتسامة على وجهه لمجاراتها، يمد يده ليجذبها لتنام برأسها على صدره، يداعب شعرها بأصابعه، يلحظ خشونته لكنه لا يبالى، بل يزيد في التودد فيمد يده ليضغط ثديها الأيسر بقوة، فتتأوه ساحبة جسدها للخلف لحظة قبل أن ترتد لتحتضنه أكثر وقد مدت يدها اليمنى بين فخذيه قابضة بشدة، تعضه في صدره، تلعق بلسانها مثل كلبة، يدفعها على ظهرها ليعتليها مرة أخرى بقوة، يبتسم في داخله، فعل خيرًا أن تناول حبة زرقاء قبل أن يأتى. يدق جسدها بجسده، ينتفض مثل ريح، أسفله تصرخ وتصرخ وتضمه أكثر وأكثر ولا تقول غير "يخرب بيتك يا وله يا فراج". يود لو يصهرها أسفله لتكون طوع أمره، الجنس مدخلها الوحيد لتحقيق ما يريد، فأوغل فيه يسقيها مما أوتى من قوة، حتى هدأ على ضمة طويلة.

قبل أن تذهب في غفوة حالمة تمد يدها تتحسس صدره العارى، يعتدل ويمسد شعرها وصدرها بيده قائلًا:

– علمينى السحر.

تنتفض فجأة وقد ذهبت عنها أحلام الصبايا، يكفهر وجهها، تكشر عن أنيابها، كانت تتوقع أن يطلب منها ذلك، كانت قد أعدت نفسها





للرد عليه بمنتهي القوة والعنف، تعلم أن سحرها هو ما جعله طوع بنانها وإن تعلم سر قوتها أَمِنَها وأَمِنَ شرها، بل لتحولت هي إلى تابعته، تنظر نحوه مليًا قبل أن تقول:

- ارحل الآن يا فراج ولا تطلب مني هذا الأمر ثانية.

ثم تمد يدها تسحب ثيابها لترتديها قطعة قطعة بينما يعلو صدرها ويهبط من أثر انفعال مكتوم، تتصاعد دماء الغضب إلى وجهها فيزداد اشتعالًا، تتوجه إلى مقعدها الأسطورى ملقية ببعض البخور على الفحم الخامد فيلتهب فجأة مصدرًا طقطقة ودخانًا كثيفًا.

يخرج فراج وقد علم أنها لن تطلعه على سر من أسرارها السفلية، كان يكفيه أن تكون معه فقط، يقرر أن يعتذر منها في الأيام التالية، لكن لم تأت الفرصة لذلك، كانت فاترة حتى في استقبال شبقه الجنسي المزعوم، تمر الأيام ويبتعدان في صمت.

يتحول نشاطه إلى ميدان عمله، يكوّن فرقة من عمال البناء، يلتحق بالعمل في إحدى شركات المقاولات، يستغل انتشار أخبار اتصاله بالجان الوهمية ويتمادى في فرض سطوته، يزيدها بالكلب ناصور الذي أصبح معه مثل ظله.

تمر السنوات حتى يصل إلى تلك الأيام الأخيرة، يطيح بكل من يعترض طريقه، يدبر ويمكر، مع انتصاره يشعر بنفسه مثل ملك من أصحاب التماثيل التي تملأ المعابد التي يعشق التجول فيها ليلًا، وحيدًا ينصت لصدى خطواته، يتلصص باحثًا عن ممارس لخطيئة لتكون سلاحًا لإذلاله.





حتى تأتي أيام يشعر فيها باختلاف غريب، حتى رائحتها مختلفة، نظرات الناس من حوله قد اختلفت، أمور غريبة تحدث لم يجد لها سببًا، كانت تحدث أمامه ولكنه، في البداية، لم يكن يوليها اهتمامًا كبيرًا، لكن ما إن زادت عن حد الاحتمال، ووصلت إلى ذلك القدر الذي أصابه في صباح ذلك اليوم، فإنه قد أدرك تمام الإدراك أن هناك خطبًا ما، لكن إدراكه هذا كان قد أتى بعد أن وصل إلى نقطة لا يستطيع عندها العودة.

ففي أحد الأيام وكان في المدينة يقضي بعض شيءونه، يقابله شابٌ يسأله عن عنوان ما، يجيبه، لم يخطو عدة خطوات حتى يقابله نفس الشاب ولكن بملابس أخرى ويسأله عن نفس العنوان ثم يواجهه وعلى ملامحه شراسة أسد ونظرات أفعى، قبل أن يقول في هدوء "شكرًا يا فراج" ويرحل تاركًا فراج في ذهوله، يختفي من أمامه قبل أن يفيق.

مما حدث له مؤخرًا أيضًا كلبه ناصور الذي أصبح يختفي كثيرًا ومن قبل كان يسير خلفه مثل ظله، يعلل الأمر بأن الكلب قد يكون في مرحلة بحث عن وليفة يُفرغ فيها شهوته، لكن الأمر تطور عندما عصاه ناصور ذات مرة ولم يستجب له أكثر من مرة، بل كشر له عن أنيابه بشكل أدخل بعض الخوف إلى قلبه فتراجع أمام الكلب مخلفًا وجهه بابتسامة لم يخفي كذبها على الكلب.

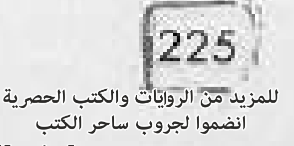
أيضًا أصبح عدد من العمال يتحدثون معه بصوت مرتفع، بل ويختلفون معه في قراراته التي كانت من قبل مثل سيف على رقابهم،





تمردوا عليه فيقرر أن يهدأ قليلًا حتى يُقلِّبَهُم على بعضهم البعض كي تظل يده عليا، إن لم يفلح في استبدلهم بعمال آخرين.

يجلس في المقهي ذات مساء في مكان قصي، لا يُكثر من الاختلاط، فقد اكتشف بعدسنوات أن الابتعاد يَزيد من هيبته في نفوس الآخرين، فجأة يجلس بجواره شاب يرتدي جلبابًا أسود مفتوح الصدر، يسأله هامسًا عن ساحر، قبل أن يُبدي فراج دهشته يرحل الفتى ضاحكًا بشكل مستفز، يلتفت فراج ليسأل عامل المقهي: عن هذا الفتى؟ فيجد نفس الفتى أمامه مرتديًا قميصًا وبنطلونًا أسودان ويسأله عن ساحر، يفغر فاهه دهشة، لقد مر بموقف مشابه من قبل، يلتفت ليشاهد أين ذهب الشاب الأول، لا أثر له، ابتلعه الظلام، يعود بنظراته إلى الشاب الموجود عن يساره، لا يجده.. يقف وقد تملكه ضيق شديد، ماذا يريد منه هؤلاء، يهرول باحثًا عنهما في كل اتجاه، لكنهما اختفيا مثل جني. يتكدر صفوه ويتعكر مزاجه، لا يعود إلى المقهي، في طريقه إلى منزله، طرقات ضيقة تحفها بيوت قديمة، الصمت يغلف المكان إلا من نباح كلاب تجيب بعضها من مسافات بعيدة، جنادب الليل لها صفير تشعر بأثره الرهيب إذا توقف، ينحرف يسارًا ليسلك زقاقًا يكفي لمرور رجلين بالكاد، يفضل عبوره لأنه يختصر الطريق إلى المنزل، الزقاق مظلم كالعادة، فجأة تتعثر قدماه في شيء ضخم، يرتعد.. يعود إلى الخلف خطوة، يقرر الهرب سريعًا وسلْك طريق آخر، ما إن يلتفت ويتحرك خطوتين تتعثر قدماه في شيء آخر، يقف منتفضًا لا يملك قدرة على الانفلات من المكان، بيد مرتجفة يُخرج قداحة من جيب





سترته، يشعلها عدة مرات حتى تشتعل ليخرج لهيبُهَا نحيلًا متراقصًا أمام أنفاسه المتلاحقة، على هدى الضوء الشاحب يشاهد جسدًا ملقى على الأرض تسيل دماؤه من أماكن متفرقة من جسده، يلتفت مذعورًا لعله يجد مفرًا، يجدُ شخصًا آخر غارقًا في بركة دم، تسقط قداحته من يده بعدما انتقل لهيبها إلى اصابعه المرتعشة، يعم الظلام، يدٌ عملاقة بأظافر حديدية تأتي من خلفة لتسحبه، يختنق، يحاول الخلاص صارخًا، يضيع صراخه مع ضربة قوية على مؤخرة رأسة تفقده وعيه. بعدما عاد إلى الوعي ألفي المكان بلا جثث أو قطرة دماء واحدة. لا يحكي ما حدث لأحد، ذلك أمر يُظهر ضعفه.

تكرر أكثر من مرة أن شعر فراج بمذاق مختلف للطعام الذي يتناوله، ولولا تناول حميده معه من نفس الطعام لشك في أن أحدًا دس في هذا الطعام مادة ما، ولما طالت المدة نسي الأمر ويبدو أنه قد تعود المذاق الجديد أو أرجع الأمر لسبب عضوى مثل الاحتقان أو الحموضة أو أي شيء مما يتحدثون عنه في البرامج الطبية على شاشات التلفزيون التي يتصادف مشاهدتُه لها حال بحثه عن فيلم أو ما شابه.

كثيرًا ما ندرك، ولكن في وقت متأخر جدًا، طرق النجاة، لكنها لن تكون ذات فائدة ترجى، ويبدو أن القدر يسدل على أعيننا ستائره لتحقيق النهايات المكتوبة، فلا مهرب من تلك النهايات أبدًا.

لم يولي فراج ما كان يمر به من أحداث غريبة الكثير من الاهتمام، فقد شاهد ما هو أكثر من ذلك غرابة فيما مضى، أما ما كان يشغل الجانب الأكبر من تفكيره هو ذلك الوهن الذي بدأ يسيطر على جسده،





مع أقل مجهود يشعر بإرهاق جم، لم يعد يمد الخطى حال سيره، أو يتنقل بين البنايات بنفس رشاقة الماضي، في البداية تخيل أن مرضًا ما يطرق باب جسده، عموما قد تكون وعكة تمضي بعد عدة أيام، لكن الوضع استمر مع تزايد شديد في نحافة الجسد وشحوب الوجه، لاحظ وهنه أحد العمال، ينتحي به جانبًا ويعطيه حبة ترامادول، يتناولها فراج بسرعة وكأنها حبة تحمل أكسير الحياة، بعد ساعة يشعر بتحسن ونشاط، تعود إلى وجهه البسمة الغائبة منذ أيام. أين غابت عنه فكرة تناول هذه الحبوب، يبدو أن معرفته عنها كانت مرتبطة بتحسين الأداء الجنسي فقط. يذهب إلى صيدلاني معروف بالاتجار في تلك النوعية من الحبوب الممنوعة، يجزل العطاء ويحصل على ما يريد، ترامادول، فياجرا.. وغيرها حبوب تحمل أسماء لا يستطيع حفظها، لا يهم.. الأهم عنده هو شعوره بالنشاط كما كان من قبل. سوف يدرك بعد أيام قليلة أن تلك الحبوب كانت خادعة تمامًا، كانت مثل ستارة تحجب عنه رؤية جسده الحقيقي وما يحل به من تداعي ووهن لحظة انتهاء مفعول الحبة، لكنه لحظة أن يدرك ذلك سيكون قد سقط إلى قلب بئر لا يستطيع العودة منها، وكان ذلك أقرب مما يتخيل.

ما لم يدركه فراج أن ما آل إليه جسده من ضعف ومن إدمان لتلك الحبوب قد أثر بشكل كبير على قدراته العقلية، فقد أصبح في الأيام الأخيرة شارد الذهن، لكنه ليس شرود المفكر المهموم، إنما شرود مطموس الفكر، شرود باهت وكأن العقل قد توقف تمامًا، جل ما كان يشغله في تلك الأوقات، ماذا يحدث له؟! كيف تحول إلى ذلك

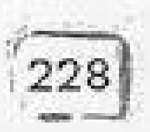




الهرم مرة واحدة؟! هل تأتي الشيخوخة فجأة هكذا؟ لكن أي شيخوخة تأتي في هذه السن المبكرة؟! لا.. لا.. هناك أمور غريبة تحدث يا فراج وعليك أن تبحث عن أسبابها. يُحدث نفسه بذلك ثم يمط شفتيه متسائلًا في داخله: كيف ذلك؟

لا سبيل أمام فراج غير ما تربى عليه، السحر.. سوف يذهب إلى ساحرته، يستعطفها، يقدم لها جسدة قربانًا تفعل فيه ما تشاء، يتذكر تلك الليلة الأخيرة، من سنوات، وكيف كان يحتصرها، لو لم يطلب منها تعليمه السحر ما لفظته من عالمها، سوف يتناول "حبتان" ويحلق لحيته المشعثة، يستحم ويتعطر ويذهب إليها، لابد وأنها سوف تستقبله بحميمية مثل حميميته، وبعد أن يروى ظمأها يسألها عما آل إليه جسده، سوف يشرح لها كل ما مر به من أحداث، مؤكد سوف تقدم له العون، آه.. يتذكر عشقها للذهب، كم مرة أعطاها ذهبًا؟ كثير.. اشترى لها الكثير وبعد أن جف ماله، حمل إليها قطعًا ذهبية كانت لزوجته حميدة الواحدة تلو الأخرى، سوف يقترض مبلغًا كبيرًا ويحمل إليها قطعة ذهبية باهظة الثمن، لابد وأن يسلب تفكيرها بمثل هذا.

يخرج فراج من غرفته يستند إلى حائط الغرفة، لم يكن يدرك أن الليل قد أسدل ستائره منذ فترة، لقد ذاب الزمن أمامه وتداخلت أمام عينيه الصور، لا يهم.. يتحرك بصعوبة مستندًا على جدران جافة حتى يصل إلى الحمام، أين حميدة؟ مؤكد تنام في الغرفة الأخرى، فعلت خيرًا، الحمام مظلم رغم طلبه بأن يظل مضاءً من قبل، بيد واهنة يبحث عن مفتاح الإضاءة، يتحسس.. ما هذا؟ يتساءل. أصابعه تغوص





على الجدار في سائل لزج، يمط شفتيه، يمسح يده في ملابسه، يبدو أنه سائل الصابون قد تخلف عن غسيل حميدة الملابس، على أثر شعاع ضوء شاحب يأتي من الصالة، وقد تعودت عينا فراج الظلام، يشاهد بقعة بيضاء على الجدار، إنها مفتاح الإضاءة، يمد يده وبضغطة متوجسة يضغط الزر ليغمر النور المكان. يشهق فراج ويرتد إلى الخلف مفزوعًا، السائل اللزج الذي يغطي الجدار لم يكن سائل الصابون، إنه دماء.. الحائط كله والأرض أيضا.. بركة من الدماء حتى إن الحذاء غاص فيها، تتسارع أنفاسه وينقبض داخله، يلتفت حذرًا، يكتم صرخة كادت أن تزلزل المكان، لقد شاهد في قلب الحمام كلبًا أسود مذبوحًا والدماء حوله في كل مكان، يخطو بسرعة إلى الخلف وعيناه مثبتتان على الكلب الأسود المذبوح، فجأة يتعثر في شيء فيسقط أرضًا، هنا تفلت منه تلك الصرخة المكتومة يكاد على إثرها يغيب عن الوعي، تمر لحظات لا يعلم مقدارها حتى يستطيع أن يجمع شتات فكره ويقبض بيديه على الأرض من حوله يستمد منها القوة كي يجلس لينظر ماذا يحدث، وكيف سقط؟

لا شيء..

لم يجد أي شيء في طريقه!! في ماذا تعثر وسقط إذن؟!! كل شيء حوله في الصالة كما هو.. أصبح يشعر بثقل رهيب في رأسه، حتى التفكير وكأنه كتل صخرية تضغط بعضها بعضًا بلا حراك، شلل تام يصيب تفكيره وجسده، لا يملك أدنى قدرة على التحرك، يصرخ بشدة.. يصرخ مناديًا حميدة، يطول الصراخ حتى إنه يفقد القدرة على





الصراخ وتنحشر الكلمات في صدره، يوشك أن يفقد الوعي، أو هو فقد الوعي بالفعل لحظات ثم عاد، لا يعلم.. إنه مثل مَن يقاوم النوم فيذهب في بحره لحظات ثم يعود مؤكدًا بأنه مستيقظ تمامًا، يؤكد لنفسه أنه لم يفقد الوعي، إنه لا يزال يمتلك بعض القوة، فقط تداخلت الصور والأشياء والأصوات، صور ضبابية وأصوات بين نباح كلب وعواء ذئب وضحكات هيستيرية ومن بين كل تلك الصور والأصوات تخرج حميدة من غرفتها، يراها تتثاءب وتدعك عينيها، كانت نائمة.

- ماذا حدث يا فراج؟

تسأله حميده وعلى وجهها دهشة باهتة، كل حياة حميدة منذ أن تزوجها باهتة، لا يجيبها بكلمات، إنما رفع نصفه الأعلى من فوق الأرض ملتفتًا به إلى الخلف متكئًا على يده اليمنى ومشيرًا ناحية الحمام بيده اليسرى، تغلف حميده وجهها بعلامات الاستفهام، يهز فراج يده في الهواء وكأنه يؤكد إجابته، لا تجد حميدة بُدًا من التوجه ناحية الحمام، تقف في فتحة الباب تتأمل المكان في صمت، ثم تلتفت إلى فراج وعلى وجهها نفس علامات الاستفهام، تقابلها علامات دهشة على وجه فراج، كان ينتظر أن تصرخ، أن تعود مفزوعة من بشاعة المنظر، أن تحتمي به.. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. ماذا إذن؟! هل تمتلك حميدة قلبًا حديديًا إلى هذه الدرجة؟! يجلس على مقعدته ويضم ركبتيه مثل جالس يستعد للوقوف، لكنه لم يقف وإنما صرخ فيها:

- الكلب يا حميدة.. الدم..





تأمله بدهشة ثم التفتت مرة أخرى إلى الحمام، لحظة ثم واجهته:

- أي كلب وأي دم يا فراج؟

لحظة صمت يسكن فيها الكون كله عن الحركة، وكأن شريط الحياة قد أصابه عطب فتوقف، تسمرت نظرات فراج على حميدة وقد غلفه الذهول، حميدة أيضًا تغمرها الدهشة.

بعد ثوانٍ وكأنها ساعات، يستجمع فراج بقايا قوته، يقف ولم تفارقه ارتجافات الفزع، حتى إنه يشعر بأصوات مرعبة لا تزال تتسلل إلى أذنيه، يتذكر ناصور الكبير والجدار الذي انشق عن نيران عظيمة قبل ظهوره. يقترب من حميدة، يتذكر المهندس عمر لحظة سقوطه في أيدي عائلة شدوان والشرر يتطاير من أعينهم، يستند بيده على كتفها قبل أن يرغب في دفعها جانبًا ليريها ما في الحمام، يتذكر صرخات طفل الجن زعزوع الذي حل محل قالب الطوب الأبيض في داخل الصندوق الخشبي، يُميل حميدة جانبًا بيده اليمنى مشيرًا باليسرى إلى داخل الحمام بيقين مَن يؤكد وجود قرص الشمس في نهار أغسطس، لكنه ما إن يفعل ذلك حتى يرتد مفزوعًا إلى الخلف.

لقد كان الحمام خاليًا تمامًا، لا كلب أسود مذبوح.. لا دماء على الحائط.. تيار هواء يندفع من النافذة المفتوحة محركًا المصباح لتتحرك الظلال بعنف.. ماذا يحدث؟! يصرخ.. يلطم وجهه باحثًا عن نفسه الضائعة. يجرى.. يجرى.. يخرج إلى الشارع.. يجرى.. كان حافيًا، بملابس منزلية قليلة، يجرى ولا يكاد يشعر بنفسه، لا يرى أحدًا ممن يتبعه بنظراته، لم يسمع همسات بعضهم وهي تتساءل عمن يجرى



هكـذا؟ لا تصله إجابة بعضهـم من أنه فراج، أو تعليقات آخرين أسفة تقول بأن فراج قد جُن، لم يشعر بشيء، فقط كان كل تفكيره مُنصبًا على شيء واحد: أن يصل إلى ساحرته، طوق نجاته مما هو فيه.

الوقـت ليل، الظلام يغمـر المكان، ضوء شـاحب يعبر نافـذة قريبة يضيء المكان حتى يستطيع المرء تمييز أصابع يديه، بشعره المشعث وثيابه التي لوثتها أتربة الطريق، فقد سـقط أكثر من مرة حال هرولته مع ذلك الوهن الذي يعانيه، يقف فراج، حافيًا بقدمين ملوثتين بالطين،أمام بـاب منـزل السـاحرة، يدق بما يملـك من قوة، فـكان دقـا ضعيفًا، بعد لحظـات يُفتـح الباب مصدرًا صريـرًا يمتزج بنباح كلـب يأتي من بعيد، تتأمل السيدة الشبـح الماثل أمامها، بعد لحظات تتأكد، إنه فراج، ترتد للخلف خطوة لتفسح له الطريق.

يجلـس فراج متهالكًا في نفس المكان الذي كان يجلس فيه من قبل مثـل ملك متوج، ينظر بعيون منكسـرة إلى سـاحرته التـي كان يرتع في جنتهـا، كان ينتـوى منذ قليل أن يأتيها فارسًـا، الآن أتاها مسـخًا يود لو تأخذ بيده لتُخرجه من قلب وحل غرق فيه، كان يشـعر به وحلًا سـميكًا يعوق حركته، يعوق حتى لسانه فلا يجد بداخله القدرة على الكلام.

تتأمله سـاحرته، لم تكن حالة فراج في حاجة إلى عبقرية لاكتشـاف مـا آل إليه، أدركتْ أنه يتداعى، لقد سـقط ولا أمل فـي عودته. يبدو أنه قد مر في تلك السـنوات، التي لم تشـاهده فيها، بالكثير من الأحداث، لقد تابعته من بعيد حينا، ثم شغلتها عنه تفاصيل الحياة، كانت تتمنى لو بقي لها عبدًا، لكنه أراد أن يكون ندا، يتعلم سـحرها، سبب قوتها، ومن





لم ينافسها، فليذهب إلى الجحيم، هكذا قالت وقتها، لم تكن تعلم أن ذلك الجحيم وشيكًا، نعم.. إنه بهيئته تلك آتى من أعماق الجحيم.

تقدم إليه كوب ماء، ثم تجلس قبالته مباشرة، تسأله:

- ماذا يا فراج؟

يرفع عينيه بإعياء شديد، يتأملها بدهشة، بصعوبة يجيبها متسائلًا:

- أتيتك لأعلم ماذا يحدث؟!

تتنهد، تهز رأسها علامة بداية فهمها، إنه يمر بعكوسات رهيبة، تعود إلى مقعدها، تلقى بقبضة من البخور على الفحم الملتهب، تملأ الأدخنة الحجرة، تمارس عدة طقوس تود لو تعلم منها ماذا حدث لفراج، تستمر في همسها دقائق قبل أن ترفع يديها إلى أعلى صارخة بتعويذة تحضير جن سفلى.

ينتفض فراج على صراخ ساحرته، لم يشاهدها على تلك الحال من قبل، يبدو أنها تغيرت خلال السنوات المنصرمة، هل توسعت في أعمال الاستدعاء؟ لا يهم ذلك.. فلتفعل أي شيء في سبيل إنقاذه، ولو طلبت منه أن يفعل أي شيء.. أي شيء.. لفعل.

مرة ثانية ينتفض صارخًا مع تزايد صراخها، لكن رعبه الحقيقي لم يكن من صراخها ولا من هيئتها التي بدت أكثر شراسة، ولا من علامات الرعب التي بدت عليها وهي تنظر إلى زاوية الحجرة، ثم ترتد إلى الخلف خطوة حتى إنها تعثرت في مقعدها وكادت تسقط على ظهرها، ما أدخل في قلبه الرعب تلك الكلمة التي أنهت بها تعويذتها:





- أهلا بك يا ناصور الكبير.

لم يجد وقتًا للدهشة، فقد احتل جسده رعبًا لم يشعر به من قبل، ناصور الكبير مرة أخرى؟! المرة الوحيدة التي حدث فيها ذلك أمامه انتهت بمقتل سعفان "ناصور الإنسي" وتعفن جسده ولفظ الأرض له على رؤوس الأشهاد. يعلم مدى جبروت هذا المارد وكيف أنه يكره عمليات الاستدعاء، وإن لم يكن مَن يستدعيه بالقوة الكبرى والدراية الشديدة بأساحير الجان، فإن استدعاؤه يكون كمن يستدعي الموت. تُخرجه ساحرته من بحر أفكاره المظلم على كلماتها التي تتوجه بها إلى زاوية الحجرة التي بدت في تلك اللحظات مثل حفرة نار تصدر شررًا وأزيزًا، فتقول:

- إنه فراج.. يتمنى لو يفعل كل ما تأمره به من أجل..

لا تُكمل جملتها، تفتح عينيها بشدة، رُعب رهيب يحتويها، تعود إلى الخلف حتى تلتصق بالجدار الخلفي، تصرخ.. تصرخ:

- لا.. أرجوك يا سيدى.. يا مليكى.. فلتذهب.. إنصرف.. إنصرف.. إنصـــــــــ...

تُبتر كلماتها، تصمت فجأة، تنتفض بهمهمة كمن ابتلع لسانه، تسقط أرضًا، تتأمل فراج بشراسة، تعلو وجهها ابتسامة سوداء، تضحك، تضحك بشكل هيستيرى وهي تقف، تتحرك في اتجاه فراج المرعوب الذي يرتد إلى الخلف، لا تصل إليه، تتوقف في منتصف الحجرة، بالتحديد أمام تلك القصعة التي تحوى الفحم الملتهب، تنحنى نحوها، ينظر فراج باحثًا عن الباب، يجب أن يهرب قبل أن يحدث ما لا



يستطيع تحمله، هل ستلقى بالنار ناحيته؟ يبدو ذلك، إنها تقترب أكثر من الفحم، تمسك حافتي القصعة بكفتي يديها، يشعر باللهيب يسري في يديها، يقف بصعوبة، يجر ساقيه في خطوة أولى، يقف متسمرًا لا يستطيع الحركة من هول ما يشاهده، يصرخ ليرج المكان..

لقد انحنت ساحرته نحو قصعة الفحم المشتعل وأمسكت حافتيها بيديها، وكأن يدًا خفية تمسك برأسها من الخلف، تدفع تلك اليد الخفية رأسها نحو الفحم، نحو النار الملتهبة، تغوص ساحرته بوجهها في قلب بحر اللهب، صراخ.. طرقعات وجلد يذوب ورائحة الجلد المحترق العفنة تملأ المكان. تسقط ساحرته أرضًا مفارقة الحياة ويسقط فراج خلفها فاقدًا الوعي.

تمر ساعة تقريبًا والصمت يعم أرجاء المكان، تتحرك أصابع فراج متزامنة مع حركة جفنيه، يفيق على مراحل متباعدة وكأنه يزيح عن جسده جبلًا رمليًا، يعتمد على مرفقيه، إنه لا يزال حيًا، لم يمت!! لقد تخيل أنه فارق الحياة من هول ما شاهد. يتأمل المكان من حوله، ساحرته ملقاة على الأرض جثة هامدة بوجهها المتفحم. يتذكر ما مر به دفعة واحدة، يزحف إلى اتجاه الباب على مقعدته، ما يزال ينظر في كل الاتجاهات مرعوبًا.

في الشارع يعم الظلام، يرافقه رياح خفيفة تخلق صفيرًا مع مرورها عبر الجدران والأشجار، لا تزال كلاب ضالة تعوى على أطراف القرية، يخترق فراج الشارع تلو الآخر يهرب من أرض الجان تلك، يحاول جاهدًا التماسك لئلا يسقط، فقد تملكه ضعف شديد جعله





يحاكي الموتى، يتعجب من أنـه لا يزال حيًا، لماذا لم يُصرع كما صُرع ناصور الإنسي من قبل، وكما صُرعت ساحرته اليوم؟! ماذا يملك من قوة حتى يتركه ناصور الكبير حيًا، يفكر في ذلك بينما لا يشعر بقدميه على الأرض ولا يعلم إلى أين تأخذه، يبدو أن ناصور الكبير يتخلص ممن يستدعيه فقط، يتأذى منهم فيقضي عليهم، خاصة إذا كان أقوى منهم، لاحظ علامات ضعف تسبق علامات الرعب التي ارتسمت على وجه الساحرة قبل أن تلقى حتفها.

يتداعى أكثر وأكثر مثل كوم هشيم أمام فيض نيران. يصل إلى منزلة يدق بابه في إعياء تام، لا يتلقى إجابة، ينصت.. يصله صوت أشباح الظلام التي ترافق المرعوب أينما كان..

لحظة..

ينصت أكثر، إنه يسمع صوتًا ما.. يتأمل بأذنيه الصوت القادم من.. من.. لا يدرى من أين، لكنه يصله واضحًا في هذه اللحظات، يكتم فراج صرخة كادت أن تفلت منه..

إنـه صوت المهندس عمر يتحدث، نعم.. إنـه المهندس عمر.. لقد بدا واضحًا الآن، كيف ذلك؟! يتساءل فراج وهو يلتفت يمينًا ويسارًا مرتدًا بجسده إلى الخلف حتى يلتصق بالباب، يعلو الصوت أكثر وأكثر ويتردد في أرجاء المكان، يصرخ فراج "لا" لقد مات المهندس عمر، قُتل ونزع رأسه عن جسده، كيف يتحدث الآن.. لا.. إنه يحلم.. أكيد لا يزال في غيبوبته الأخيرة، يدق الباب بمؤخرة رأسه عله يفيق، يتألم ويشعر بدوار رهيب، لا.. ليس في بحر الغيبوبة، إنه يقظ ويقف بجسده



حافي القدمين أمام باب منزله، يكوم قبضتيه ليدق بهما الباب من على جانبي جسده وهو يتأمل الظلام لعله يرى شبح المهندس عمر، هل يطارده الآن؟ هل يعود الموتى، أم تعود أشباحهم؟! فجأة يسقط على ظهره، فقد فُتح الباب الذي كان يرتكن عليه بثقل جسده فجأة.

بجسده الممدد على الأرض يتأمل المكان حوله على هدى الضوء المنبعث من مصباح الصالة، يشاهد وجه حميدة أسود، الإضاءة آتية من خلفها فغرق وجهها في الظلام، يرفع يديه مستغيثًا، يهمس مثل مفارق الحياة بكلمات مبهمة، تلتقط منها حميدة كلمة " الرحمة ".

أي رحمة تطلب يا فراج؟! تتساءل حميدة وهي تبتلع غضبها الرهيب، تمد يدها لتغلق الباب تاركة فراج غارقًا في ضعفه وصمته، يتمكن منه الاجهاد تمامًا فيذهب هذه المرة في نوبة نوم هي أقرب إلى فقد الوعي.

لا يعلم كم مر من الوقت، لكنه يستيقظ على ضوء النهار قد غمر وجهه، يتأمل المكان حوله فيجد نفسه نائمًا في سريره، مرتديًا ثيابًا نظيفة، مدهوشًا ينادى حميدة، تأتى صامتة كعادتها، يسألها عما حدث؟ تمط شفتيها متعجبة من سؤاله، لم يحدث أي شيء، يجلس فجأة صارخًا فيها:

- أخبرينى ماذا حدث؟ آخر ما أتذكره أننى سقطت على أرض الصالة بجوار الباب، بملابس أخرى وجسد مترب وقدمين ملطختين بالوحل.





- لم يحدث أي شيء من ذلك، لقد نمت بالأمس واستيقظت الآن.. هذا كل شيء يا فراج.

قالت حميدة ذلك وتركت المكان وخرجت، تركته مذهولًا يتأمل كل شيء حوله، يتذكر كل ما مر به أمس، لا.. مؤكد أن حميدة تكذب عليه، أو.. أو هي لا تريد أن تذكره بأمر يغضبه. لقد كان يومًا غاية في الغرابة، أحداثًا بشعة، جحيمًا عبره حيًا.. يتألم.. ينفض رأسه كي يفيق، لابد وأن يعتدل ليتخطى ذلك كما تخطى حادثة ناصور الإنسي من قبل. لم يسأل حميدة مرة أخرى خشية أن يضطر لكشف زيارته لساحرته.

تمر الأيام التالية على فراج وهو بين صراعات داخلية وأمور خارجية غريبة حتى يأتي ذلك الصباح الخانق بسبب الشمس الملتهبة، صباح تختفي فيه أصوات العصافير التي تغرد كل صباح أعلى غصون الأشجار المتناثرة أمام البيوت وفوق تكعيبات اللبلاب، يستيقظ فراج وقد شعر بخدر في جسده لم يألفه من قبل، صحيح أنه بذل مجهودًا كبيرًا يوم أمس لم يشعر به وقتها لتعاطيه حبة زرقاء للتنشيط يغرق بعدها في نوم عميق، يبدو أن تأثير ذلك القرص قد انتهي وترك خلفه وهنًا في جسده، يتمطى قليلًا قبل أن يترك سريره متوجهًا إلى الحمام، يتحرك خطوة واحدة، بعدها لا يشعر بساقيه تمامًا، كأنه يقف بنصف جسده الأعلى فوق لا شيء، يسقط أرضًا، لا يصرخ، فقد ألجمته الدهشة، ماذا يحدث؟! يعتمد بساعديه على أرض الحجرة ليعتدل واقفًا، لكنه لا يستطيع تحريك ساقيه، هل أصيب بالشلل؟! لا يعلم.. إنه لا يشعر بأي ألم.. لم يشكو من قبل من أي عرض في ساقيه، ماذا يحدث؟ تقبض





يديه على أطراف السجادة القديمة التي تغطي أرض الحجرة، يصرخ مناديًا حميدة، يستمر في الصراخ بينما يديه تحركان قدميه تارة وتدفقهما تارة أخرى، لكنهما لا يستجيبان فيزداد صراخه، لقد حل هلع اليقين محل الشك والذهول فتملكه رعب حقيقي.

تمر دقيقة كاملة قبل أن تظهر حميدة تسد باب الغرفة، تقف وعلى وجهها ابتسامة تَشفٍ عريضة، تنظر نحوه نظرات مسمومة تحمل انتقام السنين، يزداد ذهول فراج، وكأن حميدة على علم بما أصابه، لم تسأله لماذا يصرخ، ولم تقترب منه لتساعده على الوقوف.. ماذا يحدث؟ يسأل نفسه مرة ثانيه..

- حميدة.. إلحقيني.

يستعطفها بوجهٍ كسير بدت عليه علامات السنون، وكأنه يتعلق بأمل أخير مكذبًا ذلك المعنى الذي تحمله نظراتها، تتجاهله حميدة، تلتفت تاركة المكان وعلى وجهها نفس الابتسامة، تتركه غارقًا في ذهوله، تمر لحظات ثقيلة مثل جبل، يلجمه صمته، يتأمل المكان حوله، تفاصيل يراها طوال حياته، يشاهدها الآن وكأنه يراها للمرة الأولى، ما تلك الصورة المعلقة على الحائط؟! صورة تحمل شجرة حمراء الغصون وكأنها تروى بالدم. يلتفت مفزوعًا ناحية سوط أسود معلق على الجانب الآخر مصنوع من جلد طبيعي، لقد شاهده من قبل، لكنه لا يتذكر أين!! أصوات مرعبة تنطلق في الأرجاء تدق أذنيه، يبحث عن مصدرها، يشاهد فوق منضدة قديمة في جانب الحجرة رأس كلب





صُنع من الجبس وأغرق في اللون الأسود. يتذكر كلبه ناصور، أين أنت يا ناصور الآن، يهتف صارخًا من أعماق الجحيم:

- ناااااااااصوووووور.

من بعيد يأتيه صوت الكلب مزمجرًا كأنه يعترض على الطريقة التي يستدعيه بها فراج، مثل فتاة لعوب يستدعيها أحدهم في الشارع باسمها وصفتها، يتحرك الكلب ناصور ناحية الباب لكنه يجده موصدًا، يخربش بأظافره مع نباح ضعيف كمن يطلب الإذن بالدخول.

حميدة كانت تعلم جيدًا أنه سوف يستدعي الكلب ناصور ليهددها به وقد يأمره بالهجوم عليها إن استدعى الأمر ذلك، لذا.. ومنذ أن استيقظت.. أو منذ أن خرجت من غرفتها في الصباح الباكر، فهي لم تنم ليلتها الفائتة تقريبًا، أخذت الكلب خلف نصف دجاجة وخرجت به إلى الشارع وألقتها له في جانب ثم عادت وأغلقت الباب وكل منفذ يستطيع الكلب أن يدلف منه.

يكرر فراج نداءه للكلب الذي يعلو نباحه وهو يتحرك جيئة وذهابًا أمام المنزل حتى يستقر أمام نافذة حجرة فراج وقد شب بقدمية الأماميتين لأعلى باحثًا بعينيه عن ثقب يشاهد منه فراج في الداخل.

يتحشرج صوت فراج، وكأنه يمر عبر ماسورة مملوءة بقطع زجاجية حادة، حتى يخفت تمامًا، بدأ يدرك جزءًا من الحقيقة، والحقيقة التي يدركها أي فرد تنبع من دائرة معلوماته المسبقة، وكل ما يعلمه فراج من قبل لا يخرج عن دوائر النصب والاحتيال والتعامل مع شياطين الإنس والجن، لذا كان الجزء الذي أدركه من الحقيقة هو أنه تعرض لسحر





ما، سحر شل قدميه، وحميدة هي مَن قامت بذلك، نعم.. لقد بدا ذلك بوضوح على نظراتها الشامتة.

هل تحركت حميدة أخيرًا لتنتقم منه؟! مؤكد أنها لم ولن تنسى أنه كان السبب في وفاة أبيها وتداعي أسرتها كاملة مثل بناء شاهق ضُرب أسفله فجأة، أمها التي لازمت الفراشِ عدة أشهر ثم تفارق الحياة غير آسفة عليها، كانت تتعجل الموت الآبى مثل حبيب يَتَدلَّه. لن تنسى سنوات مرت كانت له جارية تتحرك بإشارة من إصبعه. هل أفاقت من غيبوبتها الطويلة؟!

ماذا حدث؟!.. هل انتهى مفعول السحر الذي يسقيها منه باستمرار لئلا تفيق؟! يحاول أن يتذكر.. يبدو أنه أَلِفَ استسلامها فنسى ذلك.. لا.. لا.. لم ينسى.. إنه يحافظ على تلك العادة أكثر من حفاظه على طعامه وشرابه، فلم يكن يود بذلك الحفاظ على حميدة طوع أمره بقدر ما كانت حميدة تمثل له صمام الأمان الذي لو فُتح لخرجت إلى الوجود مفاسده دفعة واحدة، هي الوحيدة التي تجعل منه رجلًا صاحب أسرة مستقرة. فلو كان، كما قيل عنه من قبل، لما عاشت معه حميدة ابنة إحدى أكبر عائلات الكاجوج، ولَمَا عَمِل بشركة كبيرة يقود عددًا من العمال، إنها تفاصيل واجهة حياته التي تشبه تفاصيل واجهة ماخور زرع صاحبه أمامه عدة أشجار وقام بوضع مبرد ماء كسبيل وكتب عليه "و سقاهم ربهم شرابًا طهورا".

لم يهتدى في بحثه إلى نتيجة تذكر، يشعر بالشلل ينتقل من ساقيه إلى عقله، فيصرخ ويصرخ ويختلط صراخه بنباح كلبه ناصور في





الخـارج، يعتمد فراج علـى يديه فيزحف ناحية بـاب الغرفة، في طريقه يجذب السـجادة أسـفله حتى تتكوم أسـفل صدره، تتراقـص المنضدة الصغيرة فيسـقط من أعلاها رأس الكلب المصنوع من الجبس فيتهشم ليختلط ظاهره الأسود بداخله الأبيض، يدق فراج الباب بعنف ليحدث ضوضاء مفزعة وهو ينادي على حميدة، فجأة يراها جالسة في مواجهته فوق مقعد خيزران وقد عقدت ذراعيها على صدرها، على وجهها نفس الابتسـامة التي تركتـه بها منذ لحظات، زيد عليها قـوة لا يدري منبعها. يتأملهـا قليـلًا ثم يجول بنظراته فـي المكان باحثًا عن مصـدر قوتها، لا شيء.. كل شيء كما هو تمامًا. فقط هي حميدة التي تغيرت.

يحاول فراج السيطرة على انفعاله الرهيب وأن يرسم ابتسامة جعلته مثل شبح وهو يقول:

- حميدة.. حبيبتي.. ماذا حدث؟

تكتم حميدة ضحكة ساخرة شرسة، ممزوجة برغبة رهيبة في تمزيق فـراج إلـى ألف قطعـة، فقط تخرج منهـا كلمة واحدة «حبيبتـي» قالتها بتساؤل ودهشة، تلك كلمة لا محل لها في حياتها على الإطلاق، كيف يسـتخدمها شـيطان إنسـي يقبع علـى الأرض أمامها محتـلا فتحة باب غرفة النوم؟! يُكمل فراج:

- سِحر يا حميدة؟ (يصمت لحظة ثم يسألها) أي ساحر؟

لمـا لـم يتلقى أية إجابة يصرخ فيها باحثًا عن أي شـيء حوله يقذفها به، لكنه لم يجد، يبدو أنها رفعت كل شيء يمكنه استخدامه من طريقه، يـزداد صراخه، تتزايد ابتسـامتها حتى وصلت إلى ضحكات هيسـترية،





ينفعل الكلب ناصور في الخارج مما يسمعه من خليط غريب بين صراخ وضحكات، يشعر بالخوف فيخفت نباحه ثم يسير تاركًا المكان، قبل أن ينعطف مع نهاية الشارع يلقى نظرة ناحية منزل فراج ثم يعتدل ليجرى.. يجرى حتى لا يعلم هو نفسه أين يذهب.

إعياء تام يسيطر على فراج فيخفت صراخه، يعاود سؤال حميده، تجيبه هادئة:

- ظننتَ أن ليلك دائم يا فراج، لكن لابد له من نهاية، لابد أن تظهر شمس يوم جديد.. لقد شغلك طمعك.. وعميت عيناك بنزواتِك.. كم قتلتَ في سبيل تحقيق أغراضك الدنيئة؟ قتلت والدى.. أمى.. قتلتنى.. قتلت أطفالًا كنت أحلم بهم.. قتلت المهندس يوسف قدرى..

تخرج منه الكلمات كأنها صادرة عن شخص آخر حتى إنه يندهش، يقول:

- ما فعلت ذاك إلا تقربًا منكِ يا حميدة.

تمط شفتيها، تقاوم دفقات الغضب المتكومة بداخلها راغبة في الانفجار، تظهر تجعيدات على جبهتها، تكور قبضتيها وهي تقول:

- اغتصبت منيرة وكسرت والدها شدوان وعائلتها كلها تحمل الطين فوق رأسها من أجلى؟!

تعلوه دهشة رهيبة، من أين علمت؟! لا.. يوارى دهشته سريعًا لئلا تكون دهشته تلك دليلًا على صدقها، يُعقب بعبارات مصحوبة بابتسامة ساخرة:





- اغتصبتُ منيرة؟! كذب.. كنتُ مع شـدوان وقتهـا، بحثتُ معهم عنها في كل مكان، إنه عمر البحراوى.. يتخيل أبناء بحرى باستمرار أننا خُلقنـا من طينة القاع.. هو مَن اغتصبها وحمّل شـدوان وعائلته العار.. لقد نال ما يستحق.. لقد..

تقاطعه حميدة غاضبة متقززة، فقد سئمت كذبه وفجوره:

- كفاك كذبا يا ابن الجن.. كفاك كذبا يا شيطان.. كل شيء انكشف.. خدرتَ منيرة واغتصبتَها وألقيت بقلم المهندس عمر بجوارها..

- كذب.. غير صحيح يا حميدة..

- لقـد قتلت المهنـدس عمر وماتـت زوجته محروقة حسـرة وهي تحمل رأس الذبيح، يتمت ابنتيهما الوحيدة ليلى. كم سـرقت؟ سرقت الكثيـر والكثير منى ومن غيرى ومن الشـركة التي تعمل بها وسـاهمتَ في غش بنايات سوف تسكنها أرواح بريئة قد تموت في أي لحظة وهي تنام داخل تلك البنايات الآيلة للسـقوط.. كم خرجتَ عن طبيعة البشـر بتعاملك مع السحرة.. مع الشياطين؟!

يتابعهـا فراج مذهولًا، ما هذا الذي تتحدث به؟ متى نطقت حميدة، منذ متى خرجت من تحت عباءة أسحاره؟! ثم.. ثم ما كل هذه الجرائم التـي نطقـت بها؟ هل فعلـت كل ذلك يا فراج؟ هو نفسـه لا يجد إجابه وكأنه يدرك جرمة الرهيب للمرة الأولى، فكيف يجيب حميدة..!!





كيـف وصلت حميدة إلى تلك المرحلـة وهي التي كانت مثل خاتم في إصبعه يحركه كيف يشاء؟ لابد أن هناك أحد أقوى منه يقف خلفها، ساحر أقوى من ساحرته...

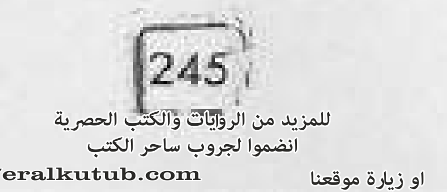
مَن؟! يصـرخ.. تتعلـق عيناه بحميدة وهـي تعود لمقعدهـا حاملة سـكينًا حـادًا يبـرق تحت أشـعة تعبر ثقبًا فـي البـاب، يرتـد إلى الخلف مفزوعًا، تّحبس أنفاسـة رعبًا، تجلس كملك على العرش وأمامه مجرم ينتظر الحكم. ماذا ستفعل بهذا السكين؟ هل ستقتله؟ أم تمزقه حيًا؟

للمرة الأولى التي يتذكر فيها فراج أمه منذ أن ماتت من عدة سنوات، تمنى لو كانت على قيد الحياة، تخيلهـا تخرج من حجرتها الآن حاملة فأسًا صغيرة، حتى إنه يتعلق بتلك الصورة وكأنها حقيقة، تسير أمه على مهل خلف حميدة حتى تصل إليها، ترفع فأسـها لتهوى بها فجأة وبقوة على رأس حميدة فتتفجر منه الدماء لتغرق أرض الصالة ووجه أمه التي تضحك بشراسـة، تخيلها تأتى نحـوه والدماء تلطخ يديها وتمسـح بها على رأسه وتخبره بأنه سوف يكون بخير الآن بعد أن قتلت له حميدة.

يهز رأسـه ليعـود إلى المكان، نعـم.. قتل حميدة هـو الحل الوحيد الآن.. لكـن كيف ذلك وهو مشـلول يلتصق جسـده بـالأرض؟! كيف ذلك وقد أضحى أضعف من ذبابة؟!

يحـاول أن يسـلك دربًا آخر، يبتسـم فـي عطف، يتودد إلـى حميدة ببضع عبارات:

- حميـدة.. لقد حاربت الدنيا كلها من أجلك.. لقد فعلت ما فعلت لأنـى أحبك.. لم أكن لأعيش بدونك يا حميدة.. إن كنت فعلت الخطأ





للـزواج بكِ فلا تفعليه أنتِ من أجل الفراق، أنتِ فتاة طاهرة ولا يمكن أبـدًا أن تلطخي يديكِ بدماء شيطان مثلي. ارفعي عني السـحر وأعدك بأنني سوف أعطيك حريتك كاملة. حميدة..

ينطق اسـمها باسـتعطاف باكي حتـى إن بعض الدمعـات قد فارقت جفنيـه، يعلم في داخلـه أنها دمعـات الرعب من الغد المظلم وليسـت دمعات اسـتعطاف وندم، تبتسـم حميدة ابتسـامة قارئ صفحات الندم المغشـوش، هي تعلم فراج جيدًا، تعلمه حتى من قبل الزواج به، تعلمه في كل لحظة كانت فيها أسيرة الجن، كانت تراه في كل الأشـكال التي تظهـر لها، كل شـبح كان فـي أعماقه يجلـس فراج، كل جسـد وهيكل عظمي ورائحة نتنة وعواء ونباح وسواد دائم.. كان فراج أصلًا له. لكنها لم تكن تمتلك القوة لمواجهته.

لكـن هل حقًا كانت تمتلك القوة لمواجهته، لكنها لم تمتلك الرغبة فـي فعـل ذلك بعد ما مرت به من أحداث انتهت بوفاة والديها، كما قيل لها منذ فترة؟!

اليـوم أيقنـت تلـك الحقيقة، وقتهـا فقدت كل شـيء حتـى إيمانها بنجاتها فسـقطت، مؤخـرًا يعود إليها اليقين، الإيمـان.. تؤمن بداخلها، برغباتهـا، بقدراتهـا الكامنـة، تتمرد، تسـتمد قوتها مـن خيالات ظلال والديها الذين رحلا بسبب هذا الكائن.. يشتعل داخلها.. تنفذ التفاصيل بمنتهي الدقة.. لابد أن تنتصر، و ها هي تنجح.

شـاردة تتأمـل ذاتها وعيناهـا مثبتتان على فـراج الذي ينظـر نحوها بعينيـن مفتوحتيـن مرعوبًا مما يشـعر به من عجز يسـيطر علـى أطرافه،





يتنفس بعنف حتى إن جسـده كان ينتفض مثل خروف ذبح منذ لحظة، تتلاشـى المناظر من أمام عينيه، سـتارة بيضاء رقيقة تُسـدل أمامه، يرى عبرها حميده جسدًا غير واضح المعالم، بعد لحظة أخرى تنسدل ستارة ثانيـة حمراء بلون الـدم، تختفي خلفها حميدة.. تختفي كل المعالم.. تبدو وكأنه يراها في حلم دموى، يفرك عينيه براحتيه كى يرى بوضوح، لكن الصور تتلاشـى وتتلاشـى حتى يتحول اللون الأحمر الذي يخلف الحجرة إلى لون أسود، لم يعد يرى أي شيء.. فجأة يكتشف أنه يمتلك أذنيـن، يميل بوجهه كى ينصت.. إنه لا يسـمع أي شـيء، يفرك عينيه.. يـدق أذنيـه.. لا شـيء.. لقد فقد بصره، فقد سـمعه بعد أن فقد سـاقيه. يصرخ.. ويصرخ.. ماذا حدث؟! حميدة. يناديها صارخًا..

بعـد دقائق يتلاشـى صوتـه من كثرة ما صـرخ، يصمـت متنفضًا في مكانه، بهدوء يهمس يائسًا:

- حميـدة.. أرجوكـى.. اغفرى لـى ذنوبـى وأنقذينى.. نعـم.. إنى أعتـرف بأننى ذهبت إلى ناصور الإنسـى، عاهـدتُ الجان وقدمت لهم كل فـروض الـولاء والطاعة من أجل كسـر شـوكة أبيك السـيد راضى بعدما قهرنى وطردنى من منزلكم ذليلًا، أعترف بأنى ذهبت إلى ساحرة أخرى وفعلتُ المسـتحيل لسـحرك، حتى مات والدك كمدًا ومن بعده أمك وتزوجتك يا حميدة، أعترف بأننى قاتل المهندس يوسـف قدرى، وقتلـتُ أكثـر من شـخص لا تعلمين عنهم شـيئًا، كل مَـن كان يقف في طريقى كنت أدبر أمرى للخلاص منه، أنا مَن اغتصب منيرة ابنة شدوان بعـد أن خدرتها في أرض القصـب، أنا مَن سـرقت قلـم المهندس عمر





وألقيت به إلى جوار جسـد منيرة الممزق حتـى أُلصق به التهمة، أنا من أوحيت إليهم بقتله وفصل جسـده عن رأسـه.. أنا كل ذلك.. لكن أنتِ يا حميدة...

فجأة يشعر بقبضة حديدية تمسك به من كتفيه وتجره على وجهه إلى منتصف الصالة، يود لو يسـمع شـيئًا، يحرك يديه في الهواء لعله يمسك بأي شيء يخبره بما يدور حوله، يرهف السمع أكثر وأكثر، وكأن صوتًا يأتي من قلب الزمن، من أعماق سحيقة، يقول:

- أنت فعلت كل هذا يا فراج؟

هـذا الصوت ليس غريبًا عليه، لقد سـمعه من قبـل، يعلمه جيدًا، إنه صوت.. صوت شِدوان، نعم هو شدوان.

شـدوان موجود الآن في منزله، اسـتمع لكل كلمـة نطق بها؟!! قبل أن يفيق من ذهوله تُمسك به أكثر من قبضة حديدية، يشعر بجسده يُرفع مـن على الأرض مثـل طفل صغير يحملـه أربعة رجال أشـداء. يصرخ متسائلًا:

- إلى أين؟

يضيـع صراخه بيـن تحذير، وعيد، أنَات، أهـات.. أحضان عدد من الحضور، لا يراهم ولم يعلم بدخولهم إلى منزله منذ قليل، ثلاث فتيات يحتضـن بعضهـن حتـى أصبحن مثل جسـد واحـد: ليلى عمـر، منيرة شدوان، حميدة راضي.





في جانب يقف ماهر الذي يُمسك بحقيبته التي لم تفارقه خلال الأسابيع الماضية والتي تحتوى على الكثير من المواد الكيمائية ذات الصفات الخطيرة في إحداث الأمراض العضوية والهلاوس بالإضافة إلى التركيبات التي ينتج عنها ألوانٌ وروائح عدة، وإلى جواره شبيهه والفتاة الجميلة التي رافقته في السيارة، "سماح الأخشب" فتاة مغربية وعلى دراية واسعة بعلوم تحضير الجان، عضوة جمعية مغربية لدرء السحر الأسود.

يعبر شدوان باب المنزل، ينظر نحو رجاله الذين يحملون فراج وعلى وجوههم غضب لو عاد لفراج بصره وشاهده لَفارق الحياة رعبًا، يشير إليهم شدوان، يتبعونه وفراج يتلوى بين أيديهم صارخًا.

تمت

رضا سليمان

الشيخ زايد – مصر

إبريل 2016





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: 69)

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (البقرة 102)

صدق الله العظيم



تقدير

***

زوجتي

التي ما تزال تتحمل جنوني

***

المتحمس دائمًا

نقي القلب

محمد عبد المنعم

صاحب دار سما للنشر والتوزيع

***

المتميز

همام عبد المطلب

مراجعة

***

تقدير خاص لكل أبطال هذا العمل أينما كانوا..





المؤلف

رضا سُليمان. كاتب مصري، ولد بمحافظة الدقهلية 1972 حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليًا مخرجًا بالإذاعة المصرية شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفًا وإخراجًا أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب. محاضر مادة فن الكتابة والإخراج الإذاعي بكليات وأقسام الإعلام. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية منها جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة الإذاعيون يبدعون. صدر له المسرحية الكوميدية: آدم تو، وروايات: عمدة عزبة المغفلين. مطلب كفر الغلابة. ماريونت، وحي العشق.



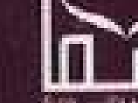
ظلال الموتى

قد كان الشيء الملقى على الأرض، و الذي تحسسته «ليلى» بيدها منذ لحظة واحدة، رأس إنسان، رأسا بلا جسد، رأسا يرقد فوق بركة صغيرة من الدماء.
من الممكن في لحظة واحدة أن تتغير الأمور وتنقلب حياتك من جنة على الأرض إلى جحيم، إلى نيران مشتعلة، إلى عيون جاحظة دامية لا تعرف للنوم طعما. فهل توقعت يوما أن تمر بذلك الاختبار الرهيب؟ هل تخيلت و لو للحظة أنك أمام قتيل في الظلام و عندما يبرق شعاع نور تجد هذا القتيل هو أقرب الناس إليك؟ هل وجدت نفسك فجأة بين قوم سيرتهم السحر الأسود؟ هل تخيلت نفسك ذات يوم وجها لوجه أمام شيطان حقيقي؟
كثيرا ما استمعنا إلى حكايا في هذا الاتجاه، لكننا لم نعشها، خوض التجربة يختلف كثيرا عن الاستماع إليها.
أبطال الرواية عاشوا كل هذه التفاصيل الحقيقية المرعبة، إنهم يدعونك الآن لتكون معهم خطوة بخطوة.. هيا.

رضا سليمان



كاتب مصري، ولد بمحافظة الدقهلية ١٩٧٢ حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليا مخرجا بالإذاعة المصرية شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفا وإخراجا أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب، محاضر مادة فن الكتابة و الإخراج الإذاعي بكليات و أقسام الإعلام. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية منها جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة الإذاعيون يبدعون. صدر له المسرحية الكوميدية، آدم تو، و روايات: عمدة عزبة المغفلين، مطلب كفر الغلابة، ماريونت، وحي العشق.

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف



